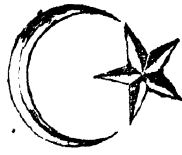


UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190711

UNIVERSAL
LIBRARY



عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشفال العمومية المصرية

الجزء الرابع

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم



المسامرة السابعة والتسعون

الجمعية المشرقية

ثم ان الخواجا فتح الصندوق واطلع على ما فيه ثم اقبله وقال
لابن الشيخ وعدتك بنظارة ونحن بالمركب فها هي فخذها
واحفظها وهي نفسك فانك متوجه معنا فاخذها ووضعها في غرفته
وغير ثيابه ورجع وكانت العربية حاضرة فركبوا جميعا الى المدرسة
المشرقية ليلقي الشيخ فيها درسا فساروا قليلا فوجدوا رئيس الجمعية
على بابها فتلقاهم وحياهم واخذ بيد الشيخ بغاية ما يليق من التعظيم
والوقار وما ينبغي من الاحترام والاعتبار وكان على الشيخ يومئذ
حلة مصرية مما يلبسه العلماء فشخصت العيون اليه وكان لا يمر

باحد الا قام له ونظر اليه وتامله وما زال ذلك الرئيس آخذاً
 بيد الشيخ الى ان ادخله محل الدرس فوجد به جمعا لا يشق له
 غبار وجميع الطلبة في الانتظار فلما قدم عليهم قاموا جميعا تعظيما
 له واجلالا وتلقوه بما يليق بمثله فشق الشيخ صف الحلقة ودخل معه
 الرئيس والخوaja وابنه حتى اجلسوه على كرسي قد هيئ له في وسط
 الحلقة فكان الشيخ وحده مرتفعا على جميع الحاضرين فاطرق راسه
 مليا خاشعا لله تعالى ولما جالس البشير واستقر كل في مكانه افتتح
 الشيخ الدرس فقال بعد التعرذ والبسيلة فحمدك اللهم على ما اوليتنا
 من النعم التي لا تعد والمنن التي لا تحصى خلقت الارض والسموات
 واسكنت فيها انواع المخلوقات الزرد الحمد لا شريك لك في الملك
 يا مدبر الفلك ومجزي الفلك انت الاول الاخر الباطن الظاهر
 فاليك المرجع والمستند وعليك التمسك والمعتمد اللهم وفقنا لما
 يرضيك يا رحيم واهدنا الصراط المستقيم اما بعد فقد سألتني حضرة
 الرئيس المعظم والاستاذ المقيم ان تشرح بعض مسائل علمية وفنون
 ازهرية عقلية ونقلية فلم تسعني مقادته بل وجبت علي طاعته
 ومحالته مع اني اعلم من نفسي التفرغ من الخوض في هذا المشرع
 وعدم القدرة على ان احوم حول هذا المرتع فارجوكم ايها السادة
 الاساتذة والاحبار الجهابذة ان تفضلوا الطرف عن المفوات وتصفحوا
 عما يقع من الزلات فان من الواضح انني عن البيان ان الانسان
 محل النسيان كما قيل

وما سمي الانسان الانسيه .

ولا القلب الا انه يتقلب

واسئل الجميع ان ينظروا الى الفقير بعين الرضى والقبول

في كل ما يفعل او يقول فتدقيل

وعين الرضى عن كل عيب كيلة

كما ان عين السخط تبدي المساويا

والله تعالى يوفقكم واياكم الى اقوم طريق ويهدينا معالم التحقيق
بجاه سيدنا محمد خير الانام عليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة
والسلام ثم قال اعلوا ان الله تعالى لما خلق الانسان علمه البيان
فخلق آدم وعلمه الاسماء كلها وكان يتكلم بالسريانية فالسريانية هي
اول اللغات ثم نوع اللغات الى انواع فجعل افصحها وافضلها اللغة
العربية فنريد التكلم في طرف ما يتعلق بها فنقول ان اول من
تكلم باللغة العربية نبي الله اسماعيل بن نبي الله ابراهيم الخليل عليهما
السلام ثم ما زالت تسع جيلا بعد جيل الى ان صارت لا يحيط
بها من ائمة اللغة الا القليل وقد طلبتم مني لحسن ظنكم بي ان املي
عليكم منها بعض دروس تكون لفيها غوامضها كالشموس فما
وجدت اقرب من الدواوين التي تشتمل على ما كانت تستعمله
العرب في تغزلاتهم وما كانوا يقولونه في حلولهم وتنقلاتهم ورأيت من
احسن ما صنف في هذا المعنى ديوان حامل لواء الشعراء وامام كل
شاعر فوق النبلاء وهوامر القيس المشهور الذي ورد فيه الاثر

المأثور واسمه جندح بن حجر بن عمرو وجندح بضم اوله وثالثه
وسكون ثانيه على وزن قنغد ومعناه في الاصل رملة طيبة تنبت
الوانا وامه فاطمة بنت ربيعة اخت كليب ومسلم وامرء القيس لقبه
وكنيته ابو وهب وابو الحارث ويلقب ايضا بذئ القروح لقوله في
بعض قصائده

وبدلت قرحا دائما بعد صحة

. لعل مناياها تحولن ابؤسا

ويلقب ايضا بالذائد لقوله في بعض قصائده

(اذود القوافي عني زيادا)

ومعنى امرء القيس في الاصل رجل الشدة لان القيس في
اللغة الشدة وقيل ان القيس كان اسما لصم فنسب اليه ولهذا كان
الاصمعي يكره ان يروي قوله الاثني

عقرت بعيري يا امرء القيس فانزل

فكان يقول يا امرء الله وكان ابوه حجر طرده في صغره من
اجل عنيزة التي كان يتشبه بها فلما طرده صار يتقلب في احياء
العرب ويتبع صعاليتهم وهم اللصوص وكان ابوه ملكا على بني
اسد فعسفهم عسفا شديدا فتمالأوا على قتله فقتلوه فلما بلغه قتل
ابيه وكان يشرب الخمر قال اليوم خمر وغدا امر ضيعني صغيرا
وحملني ثقل النار كبيرا وقام في اخذ نار ابيه في خبر طويل سنتكلم
عليه اذا دعا الحال اليه وما زال في طلب نار ابيه الى ان وصل

انقرة قطعن في ابطه فنزل هناك بجانب جبل يقال له عسيب
وتفرق عنه اصحابه وكان بجانب الجبل قبر لبعض بنات الملوك
وفيهما يقول

احارتنا ان الخطوب تنوب * واني مقيم ما اقام عسيب
اجارتنا انا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نسيب
فان تصليني تسعدي بمودتي * وان تقطعيني فالغريب غريب
فلما مات دفن بجانبها وكان اخر ما تكلم به (رب طعنة
مشعجرة وخطبة مستحضرة وجفنة . مدعثة وقصيدة محبرة تبقى غداً
بانقرة (المشعجرة) في الاصل الجفنة التي يسيل ودكها فشبه الطعنة
بالجفنة التي يسيل منها الودك وهو الدهن والجفنة القصعة الصغيرة
والمدعثة المكسورة والمحبرة المحسنة وانقرة بفتح المهملة وسكون النون
وكسر القاف معرب انكوريه وهي عمودية التي مات بها امرء
القيس ثم شرع يلقي عليهم من حفظه ويتألق في تعبيره ولفظه
وبجمل ويوضح ويكني ويصرح ويطنب فلا يمل ويوجز فلا يخل
وكان من جملة ما القاه عليهم عند الكلام على قول امرئ
القيس

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

يسقط اللوا بين الدخول فحومل

. ان قال ان الالف في قفا يحتمل ان تكون للتثنية لان
العادة ان اعوان الرجل في الغالب اثنان راعي ابله وراعي غنمه

وكذلك الرقعة ادنى ما تكون ثلاثة ويحتمل ان يكون الخطاب
لواحد وانما جرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور السنتهم عليه
كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان ازدر

وان ترعياي احم عرضا ممنا
وان تكون مبدلة من نون التوكيد والاصل قفن فابدها
ألفا في الوصل قياسا على ابدالها في الوقف ويحتمل ان المراد تكرير
الامر مرتين والاصل قف قف فالحق الالف اماره دالة على ان
المراد ذلك كما قاله في قوله تعالى حكاية عن اهل النار قال رب
ارجعون ان المراد منه ارجعني ارجعني ارجعني ثلاثا فجعلت الواو
علامة مشعرة بان المعنى تكرير الفعل مرارا والدخول بفتح الدال
اسم مكان وهو مفرد ولفظ بين يقتضي الاشتراك فلا يدخل الا على
مثنى او مجموع كقولك المال بينهما والدار بين الاخوة وكقوله
شوقي اليك نفى لديك هجوعي

فارقطني فاقام بين ضلوعي

فان وقع بعدها مفرد فلا بد من العطف عليه بحرف مشرك
وهو الواو نحو المال بين زيد وعمرو وقد وقع بعدها هنا مفرد وهو
الدخول وعطف عليه بالفاء ثم اجاب بان الدخول اسم واقع
على عدة امكنة فهي وان دخلت على مفرد لفظا فهي داخلة على
متعدد معنى فلذلك عطف عليه بالفاء الموضوعة للتعقيب لا

للاشتراك فقال له بعض من بالمجلس اذا اشتربنا في لفظه بين
 ان لا تدخل الاعلى متعدد فما تصنع في قول القرآن في صفة
 المناقين مذبذبين بين ذلك فان لفظ ذالا يشار به الا الى مفرد
 فقال له الشيخ لو دقت النظر لوجدت الجواب واضحا وذلك
 ان اسم الاشارة وان كان مفردا لفظا لكنه متعدد معنى لانه ادى
 تأدية شيئين وناب مناب لفظين وقد كشف سبحانه هذا التأويل
 بقوله بعد لا الى هولاء ولا الى هولاء وكان تقدير الكلام في الآية
 بين ذينك الفريقين ونظيره لفظه إحد في قوله تعالى لا نفرق بين
 أحد من رسله فان هذه اللفظة وان كانت مفردة الا انها
 تستغرق الجنس الواقع على المفرد والمثنى والجمع وما يدل على ان
 اسم الاشارة هنا نائب عن شيئين نيابته في باب ظن عن المفعولين
 نحو ظننت ذلك فلتخلص من هذا ان بين لا يقع بعدها الا متعدد
 او ما يؤدي تأدية المتعدد فقال له اخر اذا كان كذلك فحينئذ
 لا يصح ان يقال المال بين زيد وبين عمرو

فقال الشيخ وهو كذلك بل الصواب في مثله حذف بين
 الثانية كقوله تعالى يخرج من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا
 للشاربين

فقال ذلك السائل فما تقول في قوله تعالى حكاية عن قول
 فرعون لموسى فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه فان بين الثانية
 مضافة لضمير المخاطب وهو مفرد وقول موسى لشعيب ذلك بيني

وبسبك ايما الاحلين قضيت فلا عدوان عليّ وقوله هذا فراق بيني
وبينك فان بين في الموضعين مضافة لمفرد الاول ضمير المتكلم والثاني
ضمير المخاطب فلم جاز ذلك ولم يميزان يقال المال بين زيد وبين
اخيه فقال الفرق بين الموضعين ان المعطوف في الايات قد عطف
على المضمحل المحرور وقد شرط جمهور التحويين في العطف عليه
تكرير الجار فيقولون مررت بك وبزيد ولا يميزون مررت بك
وزيد ولهذا لحنوا من جر الارحام في قوله تعالى واتقوا الله الذي
تسألون به والارحام عطفاً على المضمحل المحرور حتى قال بعضهم
لو اني صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتي وبعضهم وجه
الجر بان الواو للتسم فيكون الباري سبحانه قد اقسام بالارحام تنويهاً
بفضلها وتنبيهاً على تاكد حتمها ووجوب رعايتها ثم سمع الشيخ رجلاً
من وسط الحلقة يقول

وبينا المرء في الاحياء منقبض

اذ صار في الرمس تغفوه الاعاصيرُ

كانه يعرض بالاعتراض على الشيخ في اشتراطه في لفظ بين
ان تضاف الى متعدد

فقال الشيخ ليس ببدع ان يتغير حكم كلمة بتغيير ما تضم اليه
لان التركيب يزيل الاشياء عن اصولها ويحيلها عن اوضاعها ألا
تري ان ربّ الحجارة لا يليها الا الاسم كقولك ربّ اخ لم تلده امك
فاذا اتصلت بها ما غيرت حكمها ووليها الفعل كقوله تعالى ربما

يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وكذلك لم الجازمة فانها حرف
 فاذا زيد عليها ما وهي حرف ايضاً صارت اسماً في بعض المواطن
 بمعنى حين ونظير ذلك في الافعال قلّ وطال فانها فعلان لا
 يستغنيان عن الفاعل كما هو حكم جميع الافعال فان كل فعل
 لا بد له من فاعل فلا يلي الافعال الا الاسماء لفظاً او تقديرًا
 وهذان الفعلان لما دخلت عليهما ما الزائدة وتركبت معهما استغنيا
 عن الفاعل وجاز ان يليهما الفعل نحو قولك طال ما زرتك وقلّ
 ما هجرتك وكذلك لم اشياء تختلف اسماءها باختلاف اوصافها فانهم
 لا يقولون للقدح كأْس الا اذا كان فيه شراب ولا للبئر ركبة الا
 اذا كان فيها ماء ولا للدلو سحبل الا اذا كان فيه ماء ولو قل ولا
 يقال له ذنوب الا اذا كان ملاناً ولا يقال للبستان حديقة الا اذا
 كان عليه حائط ولا للاناء كوز الا اذا كانت عليه عروة والا
 فهو كوب ولا المجلس ناد الا وفيه اهله ولا للمرأة ظعينة الا وهي
 في الهودج ولا للستر خدر الا اذا اشتبل على امرأة ولا للقدح سهم
 الا اذا كان فيه نصل وریش ولا للسرب نفق الا اذا كان نافذاً
 ولا للخيط سمط الا اذا كان فيه نظم ولا لماء الفم رضاب الا ما
 دام في الفم ولا لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة الا اذا كان عليه
 الطعام والا فهو خوان ومثل ذلك كثير في كلامهم وهذا من اسرار
 اللغة العربية التي لم يطلع عليها الا من تتبع مواقع استعمالهم وتضلع
 من موارد كلامهم

ثم قال له اخر لماذا لقبوا امرء القيس بذي القروح وبالذائد
مع ان له كلاماً كثيراً غيرهاً

فقال الشيخ لا بدع في ذلك فان الانسان قد ينسب الى ما
اخترعه وقد ينسب الشاعر نفسه الى بعض كلامه ومن ذلك قول
دعبل الخزاعي انا ابن قولي

لا تعجبي يا سلم من رجل * لعب المشيب برأسه فبكي

وقول ابي تميم انا ابن قولي

نقل فوادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى

وحينه ابدأ لاول منزل

وقول محمد بن وهيب انا ابن قولي

ما لمن تمت محاسنه * ان يعادي طرف من رمقا

لك ان تبدي لنا حسنا * ولنا ان نعمل المحدفا

فقال له اخرو كان له اطلاع على دواوين الشعراء اظن ان

دعبلأ سرق معنى بيته السابق يعنى قوله لا تعجبي الخ من قول مسلم

بن الوليد

مستعبر بيكي على دمنة * ورأسه يضحك منه المشيب

فقال له الشيخ نعم الا ان دعبلأ جاء به اجود فصار احق به

منه وقد تفنن الشعراء من بعده في نظم هذا المعنى فنه قول بعضهم

تبسم الشيب بذقن الفتى * يوجب سح الدمع من جفنه
 حسب الفتى بعد الصبا ذلة * ان يضحك الشيب على ذقنه
 ولما علم الشيخ ان لم يفن البديع بعض المام قال وفي هذه
 الابيات عند علماء البديع من الجناس ايهام التضاد وهو الجمع بين
 معنيين غير متقابلين بلفظين يوهان ذلك وذلك لان المراد من
 ضحك المشيب وتبسمه ظهوره وهو بهذا المعنى لا يقابل البكاء ولا
 سح الدمع وانما يقابله بلفظه فلذلك سي بايهام التضاد وكلما كثر
 عدد المتقابلات كان الكلام ابلغ فقد تكون المقابلة بين شيئين
 كالابيات المتقدمة وقد تكون بين ثلاثة كقوله

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا
 واقبح الكفر والافلاس بالرجل

وكقوله

فلا الجود يفني المال والمجد مقبل
 ولا النجل يقي المال والمجد مدير
 وقد تكون بين اربعة كقوله
 قابلتهم بالرضى والبشر منشرحا

ولوا غضابا فيا حزني لغيظهم
 وقد تكون بين خمسة وخمسة كقوله
 ازورهم وسواد الليل يشفع لي

واثنى وبياض الصبح يغري بي

وكقوله

راحت تحب دجى شباب مظلم

وغدت تعاف ضحى مشيب نير

وقد تكون بين ستة وستة كقوله

على رأس عبد تاج عز يزينه

وفي رجل حر قيد ذل يشينه

فقال له بعض القوم نسع ان هذه القصيدة وهي قفا

نبك الخ يقال لها احدى المعلقات السبع فما المعلقات وما سبب

تسميتها بذلك

فقال الشيخ كانت العرب في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر

في اقصى الارض فلا يعبا به ولا ينشده احد حتى يأتي به مكة

فيعرضه على اندية قريش فان استحسنوه روي عنه وكان فخرا لقائله

وان لم يستحسنوه طرح ولم يعبا به فكانت العرب في الجاهلية تجمع

في كل عام بمكة وتعرض اشعارها على هذا الحي من قريش واول

شعر علق على الكعبة شعرا مرى القيس هذا فعلقه على ركن من

اركانها ايام الموسم حتى نظر اليه اهل الموسم فتبعه الشعراء وعلقوا

قصائدهم من بعده ولما كانت ايام بني امية اخنار بعض امرائهم

منها سبعا فسميت المعلقات السبع فهذه احداها وهي من البحر

الطويل وعدتها ثمانون بيتا الابيناء والثانية لطرفة ابن العبد وهي

من الطويل ايضا ومطلعها

لخولة اطلال ببرقة ثمـدِ نلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ
وقوفاً بها صحبي عليّ مطيم يقولون لا تهلك اسيّ وتجـلدِ
وهي مائة بيت وبيتان

والثالثة لزهير بن ابي سلى المزني وهي من الطويل ومطلعها
أمن ام اوفي دمنة لم نكلمـ بحومانة الدراج فالشلم
ودار لها بالرفتين كانها مراجيع وشم في نواشر معصمـ
وهي اثنان وستون بيتاً

والرابعة للبيد ابن ربيعة العامري من الكامل ومطلعها
عفت الديار محلها فمقامها بنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى سهمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
وهي سبعة وثمانون بيتاً

والخامسة لعمر بن كلثوم من الوافر ومطلعها
الا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندربنا
مشعشة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها سنينا
وهي مائة بيت وواحد

والسادسة لعنترة بن شداد من الكامل ومطلعها
هل غادر الشعراء من متردمـ ام هل عرفت الدار بعد توهمـ
يا دار عبلة بالجواء نكلمـ وعي صباحاً دار عبلة واسلمـ
وهي خمسة وسبعون بيتاً

والسابعة للحارث بن حلزة البشكري من الخفيف ومطلعها

اذتتنا بينها اسماء رب ثاور يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شماء فادنى ديارها المخلصاء

وهي ثمانون بيتاً

وكان سبب انشاء امرى القيس لقصيدته هذه انه كان
يعشق عنيزة ابنة شرحبيل وكان لا يحظى بلقاءها ووصالها فانتظر
ظعن الحى وتخلف عن الرجال حتى اذا ظعنت النساء فسبقهن
الى الغدير المسى دارة جلجل واستخفى هناك اذ علم انهن اذا
وردن هذا الماء اغتسلن فيه فلما وردت عنيزة والعذارى
اللواتي كنّ معها ونضون ثيابهن وشرعن في الماء ظهر امرى
القيس وجمع ثيابهن وجلس عليها فلما رأيته اكبرن هذا الامر
وشق ذلك عليهن وناشدته ان يخلي سبيلهن فحلف ان لا يدفع
اليهن ثيابهن الا بعد ان يخرجن اليه عواري فخاصمه زماناً طويلاً
من النهار فأبى الا ابرار قسمه فخرجت اليه اوقهن فرمى بثيابها اليها
ثم تابعن حتى بقيت عنيزة واقسمت عليه فقال لها يا ابنة الكرام
لا بد لك من ان تفعلى مثل ما فعلن فخرجت اليه فراها مقبلة
ومدبرة فلما لبسن ثيابهن اخذن في عذله وقلن له قد جوعنا
واخرتنا عن الحى فقال لهن لو عقرت راحلتى لكنّ أنا كان فقلن نعم
فعقر راحلته ونجزها وجمعت الاماء المحطب وجعلن يشوين اللحم
وياكلن الى ان شبعن وكان معه ركوة خمر فسقاهن منها فلما
ارتحلن اقتسمن امتعته فبقي هو فقال لعنيزة يا ابنة الكرام لا بد لك

من ان نحمليني والحث عليها صواحبيها ان تحمله على مقدم هودجها
فحملته فجعل يدخل رأسه في الهودج ويقبلها وهو يشير الى ذلك
كله في قصيدته ومع علو منزلة امرئ القيس في البلاغة
وشهادة الاولين والآخرين له بذلك فهو قائد الشعراء الى النار
يوم القيامة لان ابامرة اغراه على قبائح صارت سنة عنه وصار قدوة
فيها وان كان من اهل الفترة وقد قال الله تعالى وما كنا معذبين
حتى نبعث رسولا فتعذبيه من بين اهل الفترة محكم يعلمها
الباري سبحانه

واستمر الشيخ بتفهم بلحه الى ان جاء الوقت المقدر للقيام
وكاد من كثرة ما التقي عليهم ان يخرج عن المقام وقد بهرت عقولهم
جلالته وملأت قلوبهم مهابة لرقه تعبيره ودقة تقريره واتساع فهمه
وغزارة علمه فلما ختم الدرس وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم
قام اليه صاحبه الانكليزي ورئيس الجمعية ونائبه ووضعوا ايديهم
في يديه ومشوا ومعظم اهل المجلس حافون به الى ان وصلوا محلا
قد اعد للاستراحة فخصوا الشيخ بصدر المجلس وكان قد بقي في
نفس بعض الطلبة بعض مسائل هاب ان يسأل عنها في اثناء
الدرس فلما شربوا القهوة قال قد ذكرت لنا ايها الاستاذان
العرب كانوا في ابتداء امرهم لا يلتفت الى نظمهم ونثرهم الا بعد
شهادة قريش لهم فمن قريش وما قدر ما حازوه من فنون
الادب حتى اذعن لهم جميع العرب

فقال الشيخ قد سألت عن علا صيتهم وشاع وانتشر فخرهم
 في البقاع خلاصة ولد قحطان وصفوة سلالة عدنان ومن بلسانهم
 نزل القرآن قوم كانت البلاغة شعارهم والفصاحة دثارهم
 حازوا الفضائل تفصيلاً وجملاً واحسبوها نهلاً وعللاً قوم قد
 تباعدوا عن عننة تميم وتلثة بهراء وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر
 وطهمانية حمير وغشمه قضاعة فقال ما ذاك ايها الخبر لقد زدني
 تشوقاً لبيانك وتطلعاً لتبيانك.

فقال اما عننة تميم فانهم يبدلون من الهمزة عيناً ومنه قوله
 اعن توسمت من خرقاء منزلة

ماء الصبابة من عينيك مسجوم

يريد ائن توسمت

واما كشكشة ربيعة فانهم يبدلون كاف المخاطبة شيناً فيقولون
 ما بش وما لش يريدون ما بك وما لك ومن ذلك قوله
 فعيناش عيناها وجيدش جيدها

ولكن عظم الساق منش دقيق

ومنهم من يقلب الباء ميماً والميم باء اذا كانا في اول الاسم
 فيقولون في نحو بكر وبكر وبدر مكر ومدر وفي نحو مسجد
 ومعبد بسجد وبعد ومن ذلك ما يحكى عن ابي عثمان المازني
 وكان يتكلم بتلك اللغة قال دخلت على الواثق فقال لي ممن
 الرجل فقلت من مازن فقال من اي الموازن مازن تميم ام قيس ام ربيعة

فقلت له من مازن ربيعة فكلني بلغة قومي وقال لي بسمك وكان اسم الشيخ بكر قال فكرهت ان اجيبه بلغة قومي كراهه ان واجهه بالمكر فقلت له بكر يا امير المؤمنين ففطن لما قصده و كان من الفطنة بمكان ومن فطنته ما حكى انه كان بحضرته جارية نغيبه قول القائل

أظلم ان مصابكم رجلا اهدى السلام تحية ظلم
فاختلف من بالخبرة في رجل فمنهم من نصبه على انه
اسم ان ومنهم من رفعه على انه خبرها والحجارية مصرة على ان شيخها
ابا عثمان المازني لقنها اياه بالصعب فسأله عنه فقال الوجه النصب
فقال ولم ذلك فقال لان مصابكم مصدر بمعنى اصابكم فعارضه
بعض من بالمجلس فقال له المازني هو بمنزلة قولك ان ضربك زيدا
ظلم فرجلا مفعول مصابكم والدليل عليه ان الكلام متعلق الى ان
نقول ظلم فقيم الكلام فاستحسن الواثق الجواب وامر المازني بالف
دينار واما كسكسة بكر فانهم يزيدون على كاف الموءنة سينا عند
الوقف ليبينوا حركة الكاف فيقولون للمرأة مررت بكس واكرمتكس
واما غمغمة قضاة فصوت لا يفهم تقطيع حروفه

واما ططمائية حمير في ما في لنتهم من الكلمات المستنكرة
فمنهم من يجعل اداة التعريف ام بابدال اللام مما فيقولون طاب
ام شراب يريدون طاب الشراب ومنه ما روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم لما سأل سائل وكان حميريا امن امير امصيام في ام

سفر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكلم كل قوم بلغتهم
ليس من امبرء اصيام في امسفر واما تلتلة بهراء فانهم يكسرون حرف
المضارعة فيقولون انت تعلم بكسر التاء ونحن نعلم بكسر النون وهو
يعلم بكسر الياء

ثم قام في المجلس سائل فقال للشيخ ولم سميت قريش قريشاً
فقال له لان القرش في اللغة يطلق على دابة من دواب البحر تغلب
ولا تغلب فسمي احد اجدادهم قريشاً تشبيهاً بتلك الدابة وكل من
كان ينتهي نسبه اليه يسمى قريشياً

وقد اختلف المؤرخون في ذلك الجدل الذي لقب بقريش
ف قيل هو فهر بن مالك بن النضر وقيل هو النضر بن كنانة كما
قال صاحب السيرة

اما قريش فالاصح فهر جماعها والاكثر النضر
فقال السائل وحيث كان هذا الجدل عظيماً فلم صغر اسمه فقال
الشيخ تصغيره لبس للتخثير بل للتعظيم على حد قول القائل
ما قلت حبيبي من التخثير

بل يعظم اسم الشيء بالتصغير

فقال السائل وهل ورد عن العرب التصغير لغير التخثير قال
نعم من سنن العرب تصغير الشيء اما لتخثيره كقولهم في رجل
رجيل وفي دار دويرة واما لتكثيره وتهويله كقول لبيد

وكل اناس سوف تدخل بينهم

دويبة تصفر منها الانامل

واما التقيصه كما يقال لم يبق من بيت المال الا دينيرات واما

لتقريبه كقول امرئ القيس يصف فرسه بطول الذيل

وانت اذا استدبرته سد فرجه

بضاف فوق الارض ليس باعزل

اي بذيل طويل فضاف صفة لموصوف محذوف وكقولك أزورك

بعيد العيد وجاءني فلان قبيل الظهر لان التصغير في الظروف

بمعنى التقريب

واما لآكرامه والشفقة عليه كقولك يا بني ويا أخي وكقول

لثمان لانه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم

واما لتشريفه وتعظيمه كما هنا وكفى اولئك القوم شرفاً على

سائر الانام قول نبينا عليه الصلاة والسلام ان الله اصطفى كنانة

من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفاني من قريش فانا

خيار من خيار من خيار فقال له كيف يحفظ نسبهم الى اسماعيل

وقد مضى له من الزمن اجيال فقال له ان العرب عموماً من عاداتهم

المحافظة على انسابهم فكيف نسب من كان منهم سيد العالمين

وصفة الله من الخلق اجمعين فهو محمد ابن عبد الله بن عبد

المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن

كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة

بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن
عدنان بن ادد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت
بن حم بن قيزار ابن اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليها السلام لكن
النسب الصحيح تفصيلاً ينتهي الى عدنان وهو الجدد المسمى عشرين
وما زاد على ذلك الى اسماعيل فلم يرد فيه حديث صحيح وقد جمع
بعضهم اباؤه صلى الله عليه وسلم في بيتين من الشعر على طريق
الرمز الى كل اب باول حرف من حروف كلماتها وهما
علقت شفيعاً هال عقلي قرانه

كتاب مبين كسب لبي غرائب

فدى معشر نفسي كرام خيرة مدا الفهم مذنبل مجد عواقبه
فالعين في علقت اشارة الى ابيه عبدالله والشين في شفيعاً
اشارة الى جده شيبه الحمد وهو عبد المطلب والهاء في هال اشارة
لهاشم وهكذا

وكان من عادة الشيخ اذا فتح له باب في الكلام يطلب فيه
ولا يخرج منه حتى يستوفيه فلذلك قال وكان اسماعيل حين
اسكنه ابراهيم بمكة كما هو مذكور في القرآن وجد بها قبائل من
جرهم بن قحطان وهم العرب العاربة فلما كبر اسماعيل تزوج منهم
امراً فولد له منها اثني عشر ولداً ذكراً فتبيل لهم ولذريتهم العرب
المستعربة وإنما قيل لهم ذلك لان لنة اسماعيل كانت عبرانية فلما
تزوج من جرهم تكلم بالعربية فمعنى المستعربة اي المكتسبة للعربية

بخلاف العاربة فمعناه المتأصلة في العربية وكان قبل جرهم بن
فحطان عرب يقال لهم طسم وجديس وكانت مساكنهم باليامة من
جزيرة العرب ولكنهم اتقروا عن اخرهم ولم يبق لهم اثر ولم ينقل
عنهم بعد ذلك خبر وذلك ان الملك كان في طسم فاستمروا على
ذلك مدة من الزمن حتى انتقل الملك الى رجل منهم غشوم
ظلم جعل سنته ان لا تزف عروس بكر من جديس الى بعلمها
حتى يدخل هو عليها فأنت جديس من ذلك ودبروا
في قتله ودفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا له ولخواصه طعاما دعوه
اليه فلما حضر في خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم
فقتلوا الملك ومن لحقوه من خواصه فهرب رجل من طسم الى تبع
ملك اليمن وشكا اليه ما فعلته جديس بملكهم واستنصر به فزار
ملك اليمن الى جديس ووقع بهم حتى افناهم عن اخرهم فلم يبق
لطسم ولا لجديس بعد ذلك ذكر فلذلك سميت العرب البائدة
ولذلك جعل المؤرخون العرب ثلاثة اقسام بائدة وعاربة
ومستعربة فالبائدة هم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل
اخبارهم لتقدم عهدهم وهم عاد وثمود وجرهم الاولى وكانت على عهد
عاد

فلما اظنبت الشيخ في وصف العرب ونسبتهم وتفصيل عنصرهم
ولغتهم قال له بعضهم ايها الاستاذ قد اجمع اهل الملل واصحاب
النحل من المتأخرين والمتقدمين على ان القرآن عربي مع اننا نجد

فيه الفاظ منها ما هو فارسي وما هو سرياني وما هو عبراني وما هو باللغة الحبشية وما هو بالعجمية كالارائك في قوله تعالى على الارائك ينظرون فانها حبشية ومعناها السرر وكالجبث فانه اسم للشيطان او الساحر وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالباريق فان معناه المضي وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالاباريق فانها فارسية ومعناها طريق الماء او صبه على هيئة ونحو سراق فانها سريانية ايضا واصلمها سرادر ومعناها الدهليز او سرا برده ومعناها ستر الدار ونحو حصب في قوله تعالى للكفار انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم فانها زنجية ومعناها حطب ونحو سري في قوله تعالى لمريم قد جعل ربك تخك سريا فانها زنجية ومعناها النهر ونحو غساق فانها تركية بل طمارية ومعناها البارد الممتن ونحو الفوم فانها عبرية ومعناها الخنطة ونحو التسطاس فانها رومية ومعناها الميزان او العدل ونحو اليم في قوله تعالى لام موسى فاذا خفت عليه فالتقيه في اليم فانه سرياني ومعناه البحر وهكذا فاما من لغة الا ونجد منها في القرآن الهاظا

فقال الشيخ لا يخفى ان لغة العرب متسعة جدا حتى قال بعض ائمتنا انه لا يحيط بها الا نبي ومع ذلك فلا مانع من وجود بعض كلمات في القرآن بغير لغة العرب وقد ورد في الخبر الصحيح ان في القرآن من كل لسان على انها الفاظ محصورة يمكن عدها وهذا لا يخرج القرآن عن كونه عربيا فان وجود كلمات

يسيرة غير عربية في خلال كلام عربي لا يخرج عن كونه عربياً
ألا ترى ان القصيدة او الرسالة الفارسية مثلاً لا تخرج عن كونها
فارسية بوجود لفظ او بعض الفاظ فيها غير فارسية ولعل حكمة
وقوع مثل هذه الكلمات في القرآن وان كان كل كتاب انما
نزل بلغة القوم الذين انزل عليهم انه حوى علوم الاولين
والآخرين ونياً كل شيء. ومن لازم ذلك ان يكون فيه الاشارة
الى انواع اللغات والالسنه لئتم احاطته بكل شيء وايضا فان
النبي صلى الله عليه وسلم مرسل الى سائر الامم فلا بد ان يكون
في كتابه طرف من لغة كل قوم وان كان اصله بلغة قومه
فاخير له من كل لغة اعذبها واخفها واكثرها استعمالاً للعرب
وبعد ذلك كله فلا مانع من كون هذه الكلمات كانت في الاصل
غير عربية ثم وقعت للعرب قبل نزول القرآن فعربت بها بالاستنها
وحولتها عن الفاظها الاصلية الى لغتها فصارت عربية ثم نزل
القرآن وقد اخلطت هذه الكلمات بكلامهم فما نزل القرآن الا
بلغتهم فقال السائل قد وقع في كلامك ذكر الشعار والدثار
والعلل والنهل فامعنى ذلك فقال الشيخ الشعار هو الثوب الذي
يلبي جسد الانسان لانه ملاصق لشعره والدثار الثوب الذي لا
يلبي الجسد بل يلبس فوق الشعار والنهل الشرب الاول للاهل
والعلل الشرب الثاني لان الابل تشرب مرتين في العرصة
الواحدة الاولى نهل والثانية عال وهذه الالفاظ من جملة الفاظ

مزدوجة من كلام العرب منها الهياط والمياط والعطيط والاطيط
والحي واللي والمناخ والمناخ والسناخ والبارح ومنها شذر ومذر
والسناخ والباطح والصادح والصائح وشاع وذاع وعزوبز والعجبر
والعجبر والطارف والتلبد والصادر والوارد والهمزة والهمزة والقصم
والقصم والنخضم والقضم والثامور والحامور وكظ ويط والعامر
والغامر والهدير والهريز والفرح والمرح وحيص ويص والعج
والعج الى غير ذلك فعجب السائل من كمال استحضار الشيخ وقال
لولا خوفا من ملاك لسألت عن كل ما يخطر ببالي مما سبقت
الاشارة اليه فقال الشيخ اني لا امل من ذلك بل هو عين
البغية فقال قد عبرت عن ابليس اللعين فيما مضى بأبي من فهل
له ابن يسمى من فقال الشيخ هذه كنيته ولا يلزم ان يكون له ولد
يسمى بذلك بل يحتمل ويحتمل لان العرب عدتهم في الاعلام
اسم ولقب وكنية فالاسم ما وضع على الشيء اولاً واللقب ما اشعر
بمدح كزبن العابدين او ذم كاتق الناقة والكنية ما صدرت بأب
او ام كابي الفضل وام الخير ولو لم يكن لعمري ولد يسمى
الفضل او الخير وهذا القسم وهو الكنية كثير في كلام العرب حتى
لغير الادميين وكما يكى الشيطان بابي من يكى ايضاً بابي كردوس
وان شئت سردت لك جملة من كنى الحيوانات فقال السائل
اني اريد ذلك

فقال الشيخ ان كنية الاسد ابو الحارث وابو فراس وابو

حفص وابو الابطال وابو الزعفران وابو العباس وابو شبل وكنية
الافعوان ابو حيان وابو يحيى وكنية ابن آوي ابو دئب وابو كعب وابو
وائل وكنية البرذون ابو الاخطل وكنية البرغوث ابو طامر وابو
الوثاب وابو عدي وكنية البغل ابو الاسحج وابو الحرون وابو الصقر
وابو كعب وابو قموص وابو مختار وابو ملعون وكنية البومة ام
خراب وام الصبيان وكنية التنين ابو مرداس وكنية الثعلب ابو
الحصين وابو النجم وابو نوفل وكنية الثور ابو عجل وكنية
المجرادة ام عوف وكنية الحداة ابو الخطاف وكنية الثرباء ابو
قادم وابو الزنديق وكنية المحرام ابو صابر وابو زياد وكنية الخنزير
ابو زرة وابو عتبة وكنية الخنفساء ام الاسود وام مخرج وام الفسوخ
وكنية الدب ابو جهينة وكنية الدجاجة ام الوليد وام احدى
وعشرين وكنية الديك ابو حسان وابو اليقظان وكنية
الذباب ابو جعفر وكنية الذئب ابو جعدة وابو حدقة وابو كاسب
وكنية الرخمة ام قيس وام جعران وكنية الزرافة ام عيسى وكنية
السرطان ابو بجر وكنية السنور ابو خداس وكنية الصقر ابو
منهال وابو شجاع وكنية الظبي ابو الخشف وكنية الضبع ابو
عامر وكنية الضفدع ابو المسبح وكنية الطاووس ابو الحسن وكنية
النعام ابو البيض وكنية العصفور ابو محرز وابو يعقوب وكنية
العقاب ابو الحجاج وكنية العقرب ام عريط وام ساهر وكنية
العنكبوت ابو خيثمة وابو قشعم وكنية ابن عرس ابو الوثاب وكنية

الغراب ابو حاتم وابو الجراح وكنية الفار ابو خراب وكنية
 الفرس ابو مضاء وابو مدرك وكنية الفيل ابو المحجاج وابو كلثوم
 وكنية القرد ابو خالد وابو حبيب وكنية القطا ام ثلاث وكنية
 القمرى ابو ذكري وكنية القنفذ ابو سفيان وابو الشوك وكنية الكركي
 ابو عريان وابو نعيم وكنية النسر ابو الاصبع وكنية الناقة ام مسعود
 وام حوار وكنية النعجة ام الاموال وام فروة وكنية النمر ابو الاسود
 وابو جهل وكنية النمل ابو مشغول وكنية الهدد ابو الاخيار
 الى غير ذلك وقد يكون للواحد كنى كثيرة

فقال الحاضرون ايدك الله ايها الشيخ قد انعشت ارواحنا
 وازلت اتراحنا وجلبت افراحنا ثم قام الشيخ وقاموا ليودعوه فكان
 من جملتهم الطلياني الذي كان اجتمع به في مرسليليا فقال
 للشيخ اريد ان تشرفني غدا انت وصاحبك الانكليزي ومن تحب
 فقال له الشيخ يكون ذلك ان شاء الله ثم مضى مع الانكليزي الى
 المنزل وكان الشيخ لم يصل الفرض الذي عليه فلما انصرف
 الانكليزي الى النوم قام الشيخ فتوضأ وصلى ثم التفت الى ولده وقال
 كيف كان الدرس فقال ما رأيتك في جلاله مثل ما رأيتك
 في هذا اليوم ولقد كان قلبي في هذا الامر يخفق ولساني من
 هيبة المجلس يكاد ان لا يتطرق الى ان افتتح الدرس فاتجلى ما لي
 وذهب اضطرابي فكانت كل كلمة نطقت بها تسري في بدني كسريان
 الماء او الدواء اذا وافق الدواء ولقد رأيتك تارة تتأق في الكلام

وتعطب في توضيح المرام وتبسط عن مخدرات المسائل المحجاب وتكشف
 عن وجوه مشكلاتها الثقاب ولعمري لقد سررت في هذا اليوم
 أكثر من فرح الأطفال بعيد الصوم سيما وقد رأيت أهل الجمع
 كلهم يشنون وبفضلك يعترفون فما جد لك مثلاً إلا كما قال القائل
 غموض الشيء حين تذب عنه تقلل ناصر الخصم المحقق
 تضيق عقول مستمعيه عنه فيقضي للعجل على المدقق
 فضمه والده إليه وقبله بين عينيه وأنشد
 ما أبيض وجه المرء في طلب العلا

حتى تسود وجهه في المبدأ

ثم قال وأنا أخبرك بما حصل لي وهواني كنت قبل قدومي
 عليهم أحسب مجلسهم لا يعتريني منه أدنى خجل ولا ير بفكري منه
 وجل فلما قدمت إليهم واجلسوني على الكرسي مرتفعاً اعتزاني
 بعض فتور وخشيت أن يفرط مني بعض هفوات فيتوهوا في
 القصور فلما استعذت بالله واستعنت به وفقني للصواب واتسع لي
 ميدان الخطاب وقد استغربت مهاتي لهذا المحضر مع أني كثيراً ما
 قرأت دروساً في جمع أعظم من هذا بالآزهر وقد تم المجلس بفضل
 ذي الجلال والحمد لله على كل حال وأريد الآن أن أريح بدني
 لأن الخواجا في انتظارني لنخرج الليلة للنزهة فان كان لك غرض
 في الخروج معنا فم أدِّ فرضك وأرح بدنك

المسامرة النائمة والتسعون

البركة في الحركة

فخرج ابن الشيخ من عند أبيه وأدى ما وجب عليه ثم ذهب
إلى يعقوب في غرفته فالح عليه يعقوب أن يدخل فأبى وقال إنما
جئت لأكبرك بأن والذي عازم على الخروج هذه الليلة مع الخواجا
للنزهة وقد أذن لي في الخروج معه وإن حضرة الخواجا في انتظاره
فهل أنت ذاهب معه فقال يعقوب ذلك غاية رغبتني لولا العذر
وكان ابن الشيخ حزيناً على صحبة يعقوب لما كان ليعقوب
من العلم بالأمور لكثرة تغربه وإسفاره فكان دائماً يستفيد منه
معلومات تتحسن بها آدابه وكان كل منها يأنس بالآخر فلذا
قال ابن الشيخ إن لم تكن معنا فإست بمتوجه معهم
فقال يعقوب لا يليق بك ذلك وأظن أنهم عازمون على

التوجه الى التياتر فتوجه انت معهم لتنظر ما هناك وفي غد
نستأذن ونتوجه نحو العين التي كنا بها سابقاً واتم لك هناك ما
كنا شرعنا فيه ثم سمع نداء والده عليه فذهب اليه فوجده متهيئاً
للخروج فمشى خلفه فوجد الخواجا في انتظارها والعربة حاضرة
مهيأة للركوب فقال الشيخ اظن ان المشي انفع لنا واكثر فائدة لما
فيه من التمكن من الاطلاع على كل ما نمر به فنسفيد منه علماً
فقال الانكليزي هذا صواب ولكني اخشى عليك التعب وما اريد
ان اشق عليك

فقال الشيخ جزاك الله غني خيراً فان لكبر السن حكماً
وللعادة احكاماً وقد صدق القائل لكل امرء من دهره ما تعود
فاني كنت وانا صغير في بلدي كثير الحركة والتنقل فكنت صحيح
الجسم سليم البنية قوي الحواس لا يقاومني في النشاط وخفة الحركة
احد من اترابي فلما جاورت بالازهر رأيت حركاتهم قليلة بسبب
طول الجلوس في المطالعة وليس عندهم وقت للفسحة فلاجل
تحصيل العلم سلكت مسلكهم ولازمت السكون مع علي بان هذه
عادة سيئة بالنسبة للصحة خصوصاً مع برودة البلاط وعدم الحائل
الكثيف الذي يمنع برده عنهم ولقد صدق المثل من عاشر القوم
اربعين يوماً صار منهم فكنت اخرج من منزلي اول النهار الى
الازهر فلا اعود اليه ولا اخرج من الجامع الا ليلاً بل لا اتحول
من مكاني الا لأزالة ضرورة اداء عبادة وكذلك في الليل

اجلس مجلساً واحداً للمطالعة حتى ينتصف الليل فانام مكاني
وصار هذا ديدني مدة اقامتي بالازهر فتولدت لي بذلك الامراض
وتسلطت على جسي الاستقام حتى آل بي الامر الى ان كنت اصلي
بعض الصلوات من جلوس لانه قد اعتراني تقاعد يشبه العجز
فان الجلوس يحبس الدم عن الجريان في العروق والاعصاب
ولقد صدق المثل ان في الحركة بركة ولما قدر الله لي السياحة
 واجتمعت بحضرتكم داخلني النشاط ودبت الصحة في جسي بسبب
كثرة الحركة والانتقال وازدادت قوتي مع كبر سني فانا اليوم
اكره عدم الحركة حتى اذا كنت منفرداً في غرفتي اراني احب القيام
والمشي فاقوم لانظر من الشاييك واطلع على الاحوال فانا احمد
الله واشكره كثيراً على الابتاع بحضرتكم وقد ادركت للسياحة
فوائد كثيرة جمه غير الحركة الداعية الى الصحة فمنها كثرة الاطلاع
وتحصيل الفوائد الدنيوية والاخروية ولقد صدق من قال
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى

لم تبرح الشمس يوماًدارة الحمل

ومنها زيادة البركة في العمر فان كثرة الاطلاع بمنزلة زيادة
العمر وقلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر كما قيل
وفي الجهل قبل الموت موت لاهله

فاجسامهم قبل القبور قبور

وقد قالوا ان الماء الراكد عرضة للتغير فكهول الاغتسال فيه

بخلاف الماء الجاري فهو بعيد عن التغير ولا نكره استعماله بحال
فنه أكثر نفعاً ثم مشياً وابن الشيخ خلفها واستمر في الكلام على

فقال الخواجا لا شك ان الانتقال يبلغ الامال والتعود
يفيت المقصود والتعود على الحركة ما يتوي البدن ويبرىء كثيراً
من الامراض ولذلك مدحها الحكماء وحث عليها الاطباء واما
كثرة السكون فيتولد عنها الكسل وخيبة الامل وبرودة الدم
وكثرة العلل وما يدل على وجوب الحركة ان الخالق سبحانه وتعالى
حكم بها على جميع الموجودات حتى على الشمس والقمر وسائر
الكواكب التي في السماوات فان القمر يدور حول الارض والارض
تدور حول الشمس وبالحجلة فلا شيء من العالم بثابت مطلقاً
فالكون وما حواه من حيوان ونبات وجماد وشموس واقمار
وغيرها ما لا يعلم كنهه الاً مكنونه يتحرك بحجلمته فضلاً عن حركة
اجزائه صغيراً وكبيراً وما ذلك الا للحكمة بالغة اقتضتها ارادة
مدير الكون ومديره فالزلازل التي يظهر اثرها على الكرة الارضية
تنبئ عن حركة عظمى في باطنها وسر بليغ اودع في جوفها
وكذلك الحوادث الجوية كالعواصف والصواعق فانها تدل على
ان السماوات دائماً في حركة فليس الحكم بالحركة خاصاً بالاجسام
الحيوانية والنباتية بل هو شامل لها ولغيرها حتى الحبال والبحار
وقد قيل ان جبال الجهة القطبية الشمالية تشققت في قديم الزمان

وتهددت وانتقلت صخورها الى الجهات القطبية الجنوبية وبعد ان مزقت حرارة الجهات التي مرت بها طبقاتها الثلجية فمنها ما رسب في قاع البحر ومنها ما استقر في صحاري اسيا وافريقيا فكل من مربها وتأمل هيائها ونظر الى تركيبها علم انها ليست من جنس الارض التي هي بها بل انتقلت اليها من جهات بعيدة لحوادث عنيفة واسباب قوية ولم تزل مثل هذه الامور تحصل الى الان فاحيانا ياخذ البحر صخوراً من جهة ويسير بها الى جهة اخرى وتارة ينضم بعضها الى بعض فتقف بالشواطئ فتكون سواحل وتارة تتراكم في جهة من قاع البحر فتكون جزائر فيكسوها مرور الدهر انساعاً ويكسوها تداول الايام عمراناً وارتفاعاً فسمجان التقادر على كل شيء وهو الفعال لكل شيء وكما فعل سبحانه وتعالى فيما نراه فكذلك يفعل فيما لا نراه فمن ذلك ظهور الجبال في ارض لم يكن بها منها شيء وكذلك ما يظهر وسط البحار من الشعاب والجزائر والجبال التي لم تكن من قبل وما ذاك الاّ للحكم بالحركة التي دبر الله بها الاكوان ورزق بها الحيوان واغرب من ذلك دقيق الرمل والحصى فان اصلهما صخور ضخمة تكون على قم الجبال الشاهقة عرضة لتأثير حوادث الجو من الحرارة والبرودة والامطار والثلوج والرياح فتنتفت وتقلها السيل وتنسفها الرياح فتارة تلقى في اغوار الارض فيرتفع بها ما كان منخفضاً ويخصب ما كان مجدياً وتارة تلقى في البحر فتتراكم فيه وتعضم حتى تحوله عن

موضعه فانظر صنع الصانع كيف سلب على الجبال ما اثر فيها
 ففتتها رمالاً وحصىً ثم ارسل عليها ما قذف بها الى البحار حتى
 حولتها عن مواضعها فسبحان الحكيم العليم فمن تأمل في مجاري
 الانهر والتخجان ومصابها رأى ان كل ما يحدث فيها من الجزائر
 انما هو من الاجزاء الدقيقة التي جرت مجرياتها ومن امعن النظر
 وتبع كتب التاريخ والاثر وجد هذه الانهار قد تحولت عن
 مجاريها الاصلية حتى صارت مواضعها الاولى ارضاً ذات مزارع
 وبساتين ومساكن ونحو ذلك ومن ذلك اقاليم مصر البحرية فقد
 قالوا انها انما تكونت مما تخلف عن نهر النيل من الطمي كما ان
 ما يجلبه نهر الطونة والرين من تلك المواد الدقيقة كل عام يسد
 مصبها وكذلك نهر المسيسيبي بامريكا فانه لضعف جريانه لا يقوى
 على دفع ما فيه من الزبد والرمل فيحدث من ذلك في كل سنة
 ارض جديدة بخلاف نهر الكنج الذي هو احد انهار الهند فانه لقوة
 دفعه وسرعة جريانه لا يبقى في قراره شيئاً مما يأتي به بل يأخذه
 معه حتى يلتقيه على شاطئ البحر الملح فمن مصادمة الصخور والشعوب
 ونحوها لما يقذفه على مدا الازمان تكونت عنه ارض تبلغ مائتي ميل
 وهناك اسباب اخرى لا ندرکها تحدث احياناً بظاهر الكرة الارضية
 فانا نجد في بعض الجهات ارضاً قد ارتفعت شيئاً فشيئاً واخرى
 قد انخفضت كذلك ولا نشعر بها ولا ندرکها لطول الزمن الذي
 مرّ عليها فلو اطلعنا على حال الارض في الازمان السابقة وحالها

في الازمان اللاحقة لجزمنا بان الكرة الارضية وما فيها من اول خلقها الى الان دائماً في حركة وتموج كتموج المياه فيتنفخ ما كان مرتفعاً ويرتفع ما كان منخفضاً وقد استدلوا على ذلك بانحطاط ما بين مدينة صور وثغر اسكندرية عما كان عليه ايام الرومان وبارتفاع ارض الروسية الشمالية عما كانت عليه فانها كانت غامرة بالماء ثم انجلى عنها فظهرت وبني بها مدائن وقد وجد في ارضها بعد انحسار الماء عنها كثير من العاج متخلفاً عن الحيوانات التي غشيتها تلك الحادثة حتى ابتلعته الارض

وقد استفيد من التواريخ ان كثيراً من المين القديمة صارت الان ارضا قارة وان كثيراً من المدن صارت في قاع البحار فهذا ايضا ما يدل على ان كرة الارض دائماً في حركة ومن ذلك تأثير الشمس في البحر فيرتفع منه بخار فينعقد سحاباً ثم يسير الى الجهة التي يسوقه الله اليها فيسقط على الارض اما مائعاً او متجمداً ثم ينماح لناخذ منه ما يكفيها ويكفي ساكنيها جميع السنة ومن ذلك الرياح فانها هي التي تسير السحاب من جهة الى جهة على مقتضى ارادته سبحانه وتعالى وان كنا لا نعلم من اين تأتي ولا الى اين تذهب وبالجمله فلم يخلق الله شيئاً الا وفيه سرٌّ وله حركة اما على انفراده واما بامتزاجه مع غيره ولو اراد العارف استقصاء الكلام على ادنى شيء من المخلوقات لاستغرق فيه العمر ولا فضى به الحال الى تفويض العلم بالحقيقة الى من له الخلق والامر

فقال الشيخ وقع لي كتاب قد مسحته يد الزمان والمحتمه في
النسخ بخبر كان فتصفحته فوجدت فيه ما يقرب من ذلك وهو ان
الله تعالى لما خلق الكون بقدرته ودبره بحكمته جعل الافلاك العلوية
والكواكب السماوية بمنزلة الآباء وجعل الاركان الاربعة وهي
التراب والماء والنار والهواء بمنزلة الامهات فاقضت حكمته تعالى
انه اذا اتصلت اشعة الكواكب التي هي بمنزلة الآباء بالاركان
الاربعة التي هي بمنزلة الامهات حدث المواليد الثلاثة التي هي
المعدن والحیوان والنبات فما وجدت المواليد الثلاثة الا بحركة
اتصال الآباء بالامهات وهذه الاركان الاربعة وان كانت
كالامهات بالنسبة للمواليد الثلاثة الا انها متولدة عن غيرها ايضا
لانهم يقولون ان الحرارة اتصلت باليبوسة فاتجنبا ركن النار ثم اتصلت
بالرطوبة فاتجنبا ركن الهواء ثم اتصلت البرودة بالرطوبة فاتجنبا ركن
الماء ثم اتصلت باليبوسة فاتجنبا ركن التراب فحصل في الابداء حقائق
الآباء والامهات فكانت النار حارة يابسة فحرارتها من جهة الاب
ويبوستها من جهة الام وهكذا فانظر كيف جعل المولى كل صفة
من صفات الاشياء مكتسبة وراجعة الى اصلها

وفي اثناء ذلك الكلام وصلوا الى باب بستان يسمى لوكسانبور
وهو من الاماكن المشهورة المعدة للنزهة فدخلوه فوجدوا به خلقا
كثيرا على عادتهم في اوقات نزهتهم فطافوا فيه برهه وتخبروا للجلوس
ناحية منه قد راق منظرها وخضرتها وحلت في اعينهم نضرتها

اغصانها دانية وعينها هامية فالوا الى ذلك الموضع فكانوا بحيث يرون كل من يمر عليه فتهب الشخ من كثرة المارين واختلاف هياتهم

فقال الانكليزي لو تأملنا في هؤلاء الخلق واختلاف السنتهم واجناسهم والوانهم وسالنا كل واحد منهم على حدته عن قطره وبلده واصل منشئه ومنبته لوجدنا فيهم من جميع الجهات من هندي وصيني وتركى وشامى وغير ذلك وها هو حضرناكم مصري والمقيم انكليزي قد فارقنا الاوطان وجعنا هذا المكان فلولا الحركة في طلب المعاش ما خرج احد عن بلده ولو عاش الى ان يرى ولد ولد وله وليست هذه الحركة خاصة بنوع الانسان بل كذلك انواع النبات والحيوان فانها تنتقل من جهة الى جهة ومن قطر الى قطر انما النبات لا يتنقل حالة كونه نباتا بل بذره هو الذي يتنقل فقد يأخذ الريح بذرا من ارض فبليقه في ارض غير ارضه وقد يكون البذر في اجواف الحيوانات وحواصل الطير فاءذا انتقلت من ارض الى اخرى القته فيها فينبت ولعل هذا معنى ما قيل ان ربع ما على الكرة الارضية من النبات لبذره اجمحة او شبه الاجمحة فيطير بمعونة الهواء حتى اذا سكن وقع فينبت حيثما استقر ومن اسباب انتقال الحبوب والنباتات ايضا السيل والخلجان والبحار فكثيرا ما يأخذ البحر المحيط من جزائره انواعا من الفاكهة والنوا واغصان الشجر ويسير بها حتى يلقاها في مواضع غير

مواضعها فتنبت فلذلك نجد في بعض الاحيان بات ارض قد
ظهر فجأة بارض اخرى لم يعهد بها من قبل

وتوارىخ الامم والاثار القديمة منبئة بان النبات يتبع في حركته
حركة الشمس في مدارها من المشرق الى المغرب فجميع ما نراه في
ارضنا هذه كان اصله في جهة الشرق ثم انتقل منها اليها وكذلك
جميع ما بالاعرى فمن ذلك شجر البن والشاي وقصب السكر
والموز والقطن والكنان والتيل والفول والقثاء جميعها اصل
منبتها ببلاد المشرق ثم انتقلت غير ان الاثنين الاخيرين لم يدخلوا
بلاد اليونان الا بعد ايام اسكندر المقدوني وقد خلق الله سبحانه
وتعالى شجر الخبز وجوز الهند وشجر التمر وجعل فيها خاصة
الاقتيات وقيام منبت الانسان وتعيشه لكن لما اقتضت ارادته انها
لا تثمر الا في جهات خاصة جعل لمحكمته الباهر وقدرته البالغة
نباتات اخرى تثمر في كل ارض ولا تخصص بجهة دون جهة
وذلك كالحنطة والشعير والقطناني ونحوها فان انواع النبات عموماً
تبلغ نحو اربعة الاف نوع منها عشرون نوعاً صالحة للغذاء وصالحة
لان تزرع في كل ارض فتكون في الارض المحترقة بجمرة الشمس
كما تكون في الارض المغطاة بطبقات الثلج

فقال الشيخ اظن ان اول ظهور جميع الاقوات بل ما على
وجه الارض من الحيوان والنبات كان بالهند ثم انتشرت منه الى
سائر الجهات لما روي من ان ادم لما اكل من الشجرة الغي نهى عن

قربانها واهبط الى الارض كان نزوله بملك الجهة فعلم صنعة الحديد وامر بالمحراث فحراث وسقى وحصد ودرس وذرى وطحن وعجن وخبز واكل فلما حضرته الوفاة احاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها ادم خلي ملائكة ربي فانه ما اصابني ما اصابني الا من قبلك فلما توفي غسلته الملائكة وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له ولحدوا ودفنوه بسرديب بارض الهند وقالوا لبنيه هذه ستكم من بعده فهذا الاثر يدل على ان اصل الاقوات بل والمعادن والحيوان كان موجوداً قبل نزول ادم في هذا المكان ثم ما زال يتشر من مكان الى مكان الى ان اتى الطوفان وقسم نوح الارض بين اولاده فاخذ كل واحد منهم من ذلك ما تيسر وذهب به الى بلاده

فقال الانكليزي هذا كلام معقول ولذلك يقول اهل الهند ان مقدسهم ابراهيم نزل من السماء وعلمهم صنعة الزراعة واستعمال الحيوان فيها والمصريون ينسبون ذلك الى ايزيس واليونان ينسبونه الى سيرابيس ووافهم على ذلك سكان الليرو من امريكا في الذرة خاصة ولذلك يزرعونها عندهم حول معبد الشمس في الارض المقدسة وهي ارض مرتفعة عن سطح البحر اثني عشر الف قدم والمستفاد من كتب التاريخ ان استنبات نباتات الغذاء ما وصل الى المغرب الا من جهة المشرق وان اول ظهورها كان باسيا وانا وان كنا نحزم بان بعض النبات نزل من الجنة لكننا لا

ندري متى نزل ولا في اي بقعة نزل

ويقال ان الامة الشركسية من بين جميع الامم هي التي وسعت دائرة انتشار انواع الزراعة وان ما باوروبا من النباتات منقول اليها فنحو الخوخ والبرقوق والبندق اصله من بلاد العجم ونحو البرتقان من بلاد الصين ونحو البطاطس والذرة من الامريكا وينسب ايضا اليهم زرع الارز والقطن في ساحل البحر المتوسط

ثم صاروا كل ما نجح بارضهم شيئا زرعه فيما استولوا عليه من الاقطار ولذلك لا تجد في اوروبا شيئا من الحبوب والفواكه الا وفي امريكا نظيره وهم الذين غرسوا شجر الكرم بمجيزتي مدير وكاريا وسائر ابلاد القبلية من افريقيا وامريكا وكذلك القطن والارز بمججات برزيليا والايمازوني (الولايات المتحدة) وجوز الطيب والقرنفل بمجيزة موريس وجيزة بوربون وجزائر الهند وكذا الشاي ببرزيليا والهند وجاوى وساعدتهم العرب في نقل شجر البن وقصب السكر والتخل والقطن من بلاد الهند الى بلادهم ولم ينقل ذلك الى الديار المصرية الا فيما بعد واما الصينيون فاخذوا زرع القطن من بلاد الهند ستان كما تعلم اهل يابونيا زرع الشاي من الصينيين واما البر والشعير فوجودهما باوروبا قديم

وفي كلام بعض قدماء المؤرخين والشعرا ما يدل على ذلك

وقال بعضهم ان اصلها من الهند وان الذي نقلها الى افريقيا اهل
الاندلس

واما البر الاسود باوروبا فحدث فيها ويقال انه منقول
اليها من افريقيا وان نقله الى جرمانية كان في القرن السابع من
الميلاد على يد الملك شارلمان وقد كثر بها الان حتى صار
كافيا لاقتيات ثلث الاهالي

واما الارز فهو وان كان حادثا في اوروبا فالعرب هم الذين
زرعوه في الجهات الجنوبية منها وكان قديما في بلاد المشرق وكان
اغلب القوت منه ولم يزرعه الامريقانيون الا في القرن السابع
عشر من الميلاد وقد كثر الان زرعه عندهم حتى صار يرسل منه
الى الجهات والامريقيون يقولون ان اصل ظهور الذرة كان بارضهم
ولكن لم يظهر لصحة ذلك دليل بل الظاهر ان اصلها من المشرق
بدليل تسمية الاوروباويين لها بقمع الترك وتسمية اليونان
لها بقمع العرب وقد شوهد من النبات مثل الشوك ونحوه كثير نابعا
في خلال النبات النافع في الارض التي تقل اليها نبات الحنطة
ونحوها وذلك يدل على ان جميع ما هو في بلادنا من هذا النوع
قد ورد اليها مع الحنطة وغيرها وقد يعلق حب بعض تلك النباتات
بالانسان في ثوبه او متاعه فيسافر ولا يشعر به فينبت حول
مسكنه او مبيته

ومن الغريب ما قالوه ان كل نوع من النبات له ارتباط

واختلاف بنوع من الانسان بحيث لو وجد نوع منه في بقعة
لاستدل العارف بذلك على من كان ساكنًا بها مشرقياً كان او
مغربياً وانه باختبار النبات وتنفق احواله وتنقلاته يمكن معرفة
تنقلات الامم فان من النبات ما يتبع العبيد ومنها ما يتبع عرب
البادية والهنود ونحو ذلك ومن النبات ما ينتشر بنفسه حتى يملأ
الارض التي انتقل اليها ويعطل ما كان قبله من النبات الطبيعي
وغيره وذلك كالحرفوش والخوخ فانها لما انتقلا الى الجهات الجنوبية
من امريكا كثيرا بها ومنعا ما عداها حتى ضاقت المراعي على
ماشيتهم وكذلك لما نقل بعض النبات الى جزيرة سنت هيلين انتشر
فيها حتى اذهب نباتها الاصلي وحشائشها الطبيعية وكذا في بلاد
الصين ارض يقولون ان جميع ما بها من النبات منقول اليها ولم
يبق بها شيء من نباتها الاصلي وقد ورد الى بلادنا من المشرق
انواع كثيرة من الفاكهة منها العنب والرمان والخوخ والسرير
(الكرز) والذي نقل البرتقان والليمون الى اوروبا هم العرب
ثم ان الثمار بعد نقلها لا تبقى على حالتها الاصلية بل تتغير وتكسب
خواص غير خواصها التي كانت لها في قطرها الاول فتجدها
باوروبا كبيرة الحجم شديدة الحلاوة لذينة الطعم بعد ان كانت
دون ذلك ولو نقلت الى قطر اخر لتغيرت ايضا وهكذا لان الغالب
ان كل شيء انتقل الى مكان غلب طبعه عليه فاذا رجع الى مكانه

يعود طبعه الاصلي اليه ومن الامثال الصادقة ان للبقاع تأثيراً في
الطباع

وقال بعض المؤرخين ان لكل ارض نباتا ينسب اليها فينسبون
الدخان والبطاطس الى امريكا ولكن هذه النسبة ناشئة عن عدم
الاطلاع فان كتب التواريخ ناطقة بان الاندلسيين ايام تملكهم وجدوه
مستعملا في التحضيرات الكيماوية عند اهل مكسيك وكان قبل
ذلك معلوما بين اهالي الصين وجاوى ولم يدخل اوروبا الاسنة
الف وخمسة وتسعين وادخله البرتغاليون في بلادهم فكان
مستعملاً باجزاخاناتهم فقط فلا بد انه كان معروفاً ببلاد اسيا
قبل استكشاف امريكا بزمن طويل

وقد تبين لك مما مر ان انتقال النبات من ارض الى ارض
لا بد ان يغير حالة الارض كما نغير بذلك طبيعة النبات وتبين
ان تنقلات الحيوان والنبات تابعة في الغالب لمن سكن الارض
لما بينهما وبين الانسان من الارتباط التام اذ بها بقاء بنينه وقضاء
اوطاره وستر عورته وقد وقف كثير من الناس عند ظواهر الاشيا
فزعموا ان الحيوان لا يتنقل من الارض التي خلق بها وليس هذا
الزعم بصواب ولو سلم ذلك بالنسبة للحيوان الاهلي لا يسلم بالنسبة
للحيوان الوحشي وان كنا لا نعلم كيف كان انتقاله في الازمان
الماضية لسكون المؤرخين عن الكلام في ذلك كما سكتوا عن
تنقلات الادميين في تلك الازمان

وعلى ما مر من أن أول عمارة بني آدم الأرض كانت بالشرق
يمكن أن يقال أن وجود جميع الحيوانات كان بالشرق ثم انتقلت
إلى المغرب

وقد قال المؤرخون أن الخلق كانوا أول أمرهم عشائر رعاة
ثم تفرقوا فلا مانع من أن تكون الحيوانات قد تبعتهم في ذلك
وبالجملة فالحيوان والنبات كل منهما ينتقل بأسباب ووسائط
دبرها الخالق جلت قدرته ومن تلك الوسائط المياه العظيمة فكل
نهر أو خليج ينقل في سيره إلى البحر كمية عظيمة من ذوات الروح
وكثيراً ما شوهد في وسط البحر جمل من بعض الحيوانات متراكمة
بعضها فوق بعض تعوم فوق الماء وعلى سطحها المحار والقواقع الذي
لا يعوم وحده فتكون له كالرؤوس الذي يركب عليه في البحر
كما يركب على السفينة وقد وجد كثير من هوام الأرض والحشرات
والأفاعي والدود والسمك والطيور والقواقع ونحو ذلك راكبة فوق
الأعشاب وغصون الأشجار العائمة في البحار فتنتقل بواسطتها
من جهة إلى جهة وكذا الهواء قد ينقل منها الوفامؤلفة ويسير
بها إلى حيث شاء الله وقد امتحن ذلك بعضهم بوضع لوحين من
زجاج خلف مصراعي شباك فوجد في التراب الذي اجتمع بينهما
في مدة ستة أشهر بذر ثمانية أنواع من النبات واحد عشر نوعاً
من تقاوي عش الغراب وأربع بيضات من بيض حيوانات صغيرة

مع جملة من تلك الحيوانات بل قد ياخذُ الهوا ما هو اكبر من ذلك كالقارة والعرة والسبك ونحو ذلك

وقد وقع في بعض السنين مطربلاد فرنسا فكان كله سمكا وكثيراً ما امطرت السماء ضفادع ومن الهوام الصغيرة ما يد لنفسه فوق النجر خيطاً دقيقاً ثم يسير عليه مسافة ثم يد غيره ويتقل وهكذا الى حيث اراد وقد اتفق انه سقط على بعض الملاحين في سفنهم وكان بينهم وبين البر نحو ثلثة ميل ولكون تلك الحشرات لا تظهر الا في اوقات سقوط الندى ظن بعضهم ان تلك الخيوط تتصل بذرات الماء وبعضهم يزعم ان لهذا الحيوان معرفة بالكهرباء فان كانت كهرة الخيط سالبة طردتها كهرة الطبقات السفلى من الجو وجذبها كهرة الطبقات العليا منه وكل هذا ظنون غير ثابتة والله اعلم بالحقيقة

واكبر داع لمفارقة الحيوان لوطنه ان يقدر قوته او الفه فترى الحمر الوحشية تترك بلاد التار وتجاوز صحاري اسيا في فصل الشتاء الى الجهات الشمالية لاجل المراعي التي بشاطئ بحر عنال وقد تجتمع الوفا كثيرة وتسير الى شمال الهند وارض العجم لاجل المرعى وبعض الحيوانات لجوعها تخرج من جهة القطب الشمالي وتسافر الى الجنوب كارب بلاد السيري وفار بلاد الترويح ونحوها والدويات الصغيرة جداً تسبح عادة متجمعة طوائف طوائف حتى يرى البحر متغير اللون من كثرتها فيه وفي بعض الجهات

تظهر أنواع من الحشرات لا يعلم من أين أتت ولم يسبق لأهل تلك
الجهات رؤيتها وعادة تأتي سائحة فوق الماء أو دابة على الأرض
وكثيراً ما شوهدت الدبدان تقطع البحار العظيمة والفيافي الواسعة
الشاسعة لطلب القوت لا يعوقها عن طريقها شيء وقد اقتضت
الحكم الأزلية أن ما يؤلف يعز وجوده وما يكره يكثر موجوده وبعض
ذلك كان مفقوداً من أوروبا إلى القرن الحادي عشر ثم امتلأت
منه مثل دود القز فانه يميل إلى الأماكن التي اغناها فلا يفارق
منازل التوت وهي موجودة في الهند والصين قبل أن توجد
بأوروبا وغيرها بزمان مديد وأول ظهوره بالقسطنطينية كان في
القرن السادس جلبه إليها أحد القسيسين ثم نقل منها إلى اليونان
والذي أدخله أرض صقلية الملك روجبر ثم منها إلى باقي الأرض
والتخل تهوى الجهات الغربية ولكن الآن صارت لا توجد في جهات
جبل أورال وقد بذلوا كل جهدهم فلم يمكنهم أن يعودوها على
أرض السيبيري مع أنها كانت غير معلومة في أمريكا إلى القرن
السابع عشر من الميلاد والآن بعد استقرارها فيها أخذت في
الازدياد حتى ملأت جميع البلاد والهندوتسميها بالذباب الانكليزية
ولم فيها كراهة عظيمة لانهم يستدلون بها على دخول اللاس
بيض الوجوه في بلادهم وهم لا يحبون ذلك فهم يستدلون بها على
مسير المهاجرين إلى الجهات الغربية

وللنمل تنقلات عجبية وهي وإن كانت تظهر لغير المتأمل أنها

في سيرها متفرقة غير متولفة ولا منتظمة إلا أنها جيوش متتابعة ولا تفصل عن طريقها أصلاً بل تهتدي الى مقصدها مع الانتظام وهي انواع

منها الاسود وهو كثير جداً واذا ظهر في مكان يكاد يستر وجه الارض ويأكل في سيره ما مر عليه من النبات ويدخل المنازل ويملاها حتى لا يترك منها موضعاً إلا وي تلف ما به فلا يسع اهل المنزل حينئذ إلا فراقه

فقال الشيخ الجراد في تبقلاته أكثر ضرراً واشد اذىً لانه لا يبقى من الزرع ولا يذر ويقال انها تحفر لبيضها في الرمل ومن حرارة الشمس يفرخ ويكبر في اقرب وقت ويكون اولاً بغير جناح فاذا هب النسيم سار به الى حيث يريد وكثيراً ما يملأ الفضا فيغطي الارض ويحول بيننا وبين السماء

فقال الخواجا انها كذلك وسيروا من الشرق الى الغرب وتقطع البحار والفيافي وتقع في بقاع مختلفة فتكون في افريقية وبلاد الانكليز وارض جرمانيا وكثيراً ما حل التخط في الجهات التي تحل بها لانها تهلك جميع النبات والشجر وكثيراً ما يجيء عقب ذلك الطاعون بسبب العفونة التي تنشأ عن رمها وكذلك السمك وسائر الحيوانات المائية لها انتقالات كثيرة ولا تحتاج الى اماكن تستريح فيها حين عبورها كما يستريح الطير على صواري السفن وكثيراً ما شوهد كلب البحر ملازماً للسفن السائحة في البحار

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان معاش بعض الامم يتوقف على سياحة انواع من السمك فيتظرونه في زمن معين ويصيدونه ويتفعمون به وذلك كالبورى والثوبار وغيره وهو الذي يصنع منه الفسج في بلادكم وهناك نوع من السمك يسهونه اسكيري وتسميه الفرنج مكرو

ومن غريب امره انه في فصل الشتاء يدفن نصفه المقدم في الطين ويظهر نصفه المؤخر فاذا خرج الشتاء خرج من الطين فينتقل الى الماء القليل المحركة ويبيض فيه واغرب منه ثعبان السمك فانه يقضي اكثر حياته في البر وتجدد زمن الصيف ايام جفاف البرك يخرج ليلاً ويمشي في خلال النبات الى ان يصل بركة او ارضاً فيها ماء فينزل فيه واكبر سبب في وقوعه في ايدي الناس حبه لنوع من النبات يعرفونه فتكون شهوته سبباً في هلاكه وكثير من الاسماك لا يسير الا ليلاً على وجه الارض ويخرج منه مادة لزجة يلتصق بها في نوع من الشجر ليصيد نوعاً من المحاريبواه وكثيراً ما شوهدت السمكة والمحارة معاً فوق الشجر

واما الورل والثعبان والتمساح فلا تفارق مكان اقامتها بخلاف النوع المعروف بالبنى الذي يوجد في بحار الهند الغربي وامريكا الجنوبية وهو المسمى عند الفرنج بكراب فانه يكون في بعض اوقات السنة بالمغارات بعيداً عن البر مغشياً عليه وفي فصل الصيف يخرج منها في هيئة جيش منتظم فتخرج الذكور ثم الاناث

ويأخذ سعة عظيمة من الارض نحو مائة متر ومتى اشتدت حرارة الشمس عليه استظل بالاشجار فاذا جاء الليل سار طوائف ويكون لها ديب تحس به الناس وسط النبات فاذا قربت من البحر الملح دخلت فيه جميعاً فتسبح فيه وتقطع في سياحتها بلاداً بعيدة فاذا تعرض لها احد دافعت عن نفسها ويسمع منها قرص اسنانها في مدافعتها فان لم تخلص بذلك تفرقت الى جهات مختلفة ثم تنضم وقد يموت اكثرها في سياحته والطير كالسمك في التنقل بل اقوى منه حركة فتراه عند اشتداد البرد يترك الجهات الباردة الشمالية ويذهب الى الجهات الحارة الجنوبية ويقطع في سيره آلاف اميال ومنه ما يعيش في الاقطار الباردة والحارة كالغراب فانه يكون باوروبا على شاطئ البحر الاسود وبحر الخزر وينعق ببلاد الهند والعجم كما ينعق بامركا وجزائر البحر الباردة والحارة ومع هذا فكل نوع من الطير وطن يألفه لكن يفارقه احيانا التماساً لمواد الغذاء او فراراً من العوارض الجوية ومن عجيب امرها انها لا تخطئ اوان مفارقة وطنها ولا وقت عودها وتشاهد هذه الغريزة في المحبوس منها سواء كان مقتنصاً او متولداً في البيوت فانه اذا احس بصوت ابناء جنسه حن اليه ولو خلى سبيله لساير معها وغالب الطير اللطيف لا يكثر بالبرد والحر ولا بالقرب والبعد بل متى جاء الوقت المعلوم لمهاجرته الى الامكنة المعهودة له خرج الى تلك الجهات واقام بها فيفرح به اهله وتميل اليه طباعهم

فيتلذذون بسماع تغريده ويأنسون برؤيته ولكل نوع منها كيفية
 يكون عليها ومنها ج ينهجه في هجرته وتعديته البحر وقطعه للمفازل
 فالبعض يكون منفرداً والبعض يكون مجتمعا ومنها ما يسير
 بالنهار ويسكن بالليل ومنها ما يسير بالليل ويستريح بالنهار
 فالاوز يسافر مجتمعا معترضا والغصفور يسير متسلسلاً والجمع
 يسير على هيئة شكل مثلث وإذا صادفها في سياحتها بحر قطعته
 طيرانا فاذا هزلت وسقطت فيه قطعته سباحة ومن المستغرب جداً
 طريقة سباحة الطير المعروف بالسفاني فانه اذا اراد مفارقة اوروبا
 الى افريقية صبر حتى تهب ريح شديدة من الشمال الغربي فاذا
 هبت رفع احد جناحيه كالقلاع وحرك الآخر كالمجذاف وترك
 نفسه مع الريح الى ان يقطع البحر المتوسط الاسكندري ويصل الى
 افريقية وإما كن استراحته في الجزائر معلومة فلذلك تجد اهل تلك
 الارض يعرفون وقت وجوده بارضهم فيتجهيئون لصيده ومثله اللقلق
 المسمى عند الفرنج سيجوني فمضيفه الجهات الشمالية الباردة من
 اوروبا ومشتاه وطنه الاصلي من افريقيا فيسمع صوته بجهة الاهرام
 وغيرها وحمام امريكا الشمالية ينتقل في اوقات معلومة في عدة
 بقاع لا يعلم سكانها من اين اتى وينتشر احياناً في نواحي امريكا
 الشمالية والجنوبية معا واذا آن اوان يبضه اجتمع وبحث عن
 المواضع التي تناسب ذلك فيبيض فيها فاذا افرخ رجع الى وطنه
 ولا يضل في طريقه ولو نقل بواسطة كالسكة الحديدية فانه يهتدي

الى وطنه ونوع البلبل يتنقل في فصل الخريف من الشمال الى الجنوب كل عائلة على حدتها لكن انائه تسبق ذكوره باسابيع فتذهب وحدها من مصر والشام وتقتصد البلاد الشمالية ومنه نوع تهاجر انائه فقط في فصل الشتاء وتبقى ذكوره واما الحيوانات ذوات الثدي فلا تتنقل من بقاعها المعدة لها الا اذا جاعت او تعدى عليها احد في ارضها ومنها ما ينقله الانسان معه كالخيل والحمر الوحشية الى حيث يستوطن من البقاع وهي التي تناسلت في الناس وعمرت منها البلاد بامريكا فانها ترحل في فصل الشتاء الى المهاد الحارة وكذلك الظباء والفيلة مع غلظ جنتها تترك مواضعها لطلب مراعيها والجواميس الامريكانية المتوحش يتنقل من السهل الى الجبل وبالعكس على حسب الفصول فيتبع مجاري الانهار والسيول لانهما المرعى بغريزة وضعها الله فيه فيتبع المرعى حيث كان ولا يعلم احد طريق اهتدائه اليه

وللقردة طرق عجيبة في قطع كبار الانهر والخلجان المتسعة

واما الحيوانات الاهلية فتتنقل تبعاً لانتقال الانسان فخيول اسيا وبلاد العرب الان كثيرة بامريكا ولم تكن موجودة بها قبل اختلاطهم بالانديسيين وكذا النعم منها هناك كثير ضائفاً ومعزاً وذلك بسبب تنقل الناس كما ان الانسان هو الواسطة في وجود بعض الحشرات والهوام في جهات لم يكن لها بها وجود كما تقدم

وذلك كالغار بأمريكا فانه قبل دخول الاور وباوبين هذه البلاد لم يكن له بها وجود اصلاً

وقد تقدم ان اول بقعة وجد بها الآدمي هي ارض الهند وهناك علامات تدل على ذلك فانها كانت في اول الزمن كثيرة النبات والخير ثم اخذت ارضها ترتفع شيئاً فشيئاً حتى قل خيرها فهاجر منها اكثر ساكنيها باسباب وحوادث لا نعلمها واستمرت آخذة في العلو والاحمال حتى صارت جبالا لا تنبت فلم يبق بها ساكن ولم يزل يتقل الانسان من جهة الى اخرى بمحوادث داعية الى ذلك حتى امتلأت منه الارض وعمرت جوانبها

فقال الشيخ هذا كله يدل على عظمة الله وقدرته حيث اودع في كل نوع من المخلوقات قوى غريزية وطبائع مختلفة يقدر بها على تحصيل قوته ويأمن بها على نفسه مدة حياته وفيما ذكرتموه دلالة على ان الحركة اساس بديع لعمار الاكوان وقيامها وقانون جليل عليه مدار انتظامها فكل مخلوق لا يستغني عن الحركة في كل حاجاته ولكنها تكون على انواع بحسب انواع الحيوان وطبائع البقاع فتكون كثيرة عند بعض وقليلة عند بعض اخر لانه سبحانه كما نوع احوال البقاع نوع ما لساكنيها من الطبائع فليست طبيعة من يسكن الهواء كطبيعة من يسكن الماء ولا من يسكن الارض الحارة كمن يسكن الباردة

وحيث كان السعي في طلب القوت والمحافظة على حياة

النفس من اهم الامور كان ذلك ايضا يختلف باختلاف البقاع فيكون في الارض السهلة سهلا وفي الصعبة صعبا. وكلما سهلت طرق الاكتساب في جهة تساهلت سكانها في الكد والاجتهاد فيه وكلما صعبت ازداد الكد والنصب فبين سكان الجبال ونحوها من الجهات الصعبة الحرث والغرس و (بين) سكان الارض المحصنة ذات الانهار والخجان بون بعيد وتبان في الطباع والاضاع وكذلك طرق التحفظ مختلفة باختلاف البقاع ففي البلاد الباردة تجمع البرودة اطراف الالياف الظاهرة من بدن الانسان فتزيد بذلك قوتها ويسرع رجوع الدم الى القلب وينشأ عن ذلك للانسان من النشاط ما يساعده على الكد والعمل بخلاف البلاد الحارة فان حرارتها تمدد الالياف المذكورة فتتلاشى قوتها وتضعف بذلك قوة الانسان ويدخله الفتور ولا يقوى على العمل ولذلك تجدد سكان البلاد الباردة اقوى من غيرهم فانه متى انتظمت حركة القلب والالياف فقد انتظمت السوائل في احاء الجسم وتكون حركة الدم نحو القلب اتم فيقوى فعله وتزيد قوته وقوته فوائد كثيرة منها شدة البأس وقوة الجاش وملك النفس عن سرعة الانتقام وعدم الخوف على النفس ومتى قل خوف الشخص على نفسه كثر حبه للحق والتماسه له واتباعه اياه اينما كان ويكون بعيدا عن الظنون والاهوام عاليا عن الكذب والنفاق والمخداع والمكر ونحوها فلا ريب في ان هؤلاء الناس يكون عندهم من

الأخلاق والطباع ما يغير طباع غيرهم من سكان البلاد الحارة مثلاً لو حبسنا رجلاً في مكان شديد الحرارة لنالم وهمدت قواه بحيث لو طلب منه فعل امر يحتاج في الإقدام عليه إلى الجرأة لم يفعل إذ ضعف قوته بورثه ضعفاً في قلبه وثقلاً في حركته ولذلك تجد سكان البلاد الحارة في القوة أشبه بالشيوخ وسكان البلاد الباردة بضدهم ولو انتقلت سكان البقاع الباردة إلى البقاع الحارة أو بالعكس لتغيرت طباع كل إلى ما يناسب الجهة التي انتقل إليها لكن بعد زمن وفي البقاع الشمالية التي ينزل بها الثلج دائماً يكون الإنسان ضخم الجثة قليل المهمة والنشاط وسببه أن قوة الألياف ينشأ عنها استجلاب العصارة الرديئة من الغذاء فيحدث أمران الأول أن جواهر الكيموس تصبح صالحة لأن تكسو الألياف وتغذيها فتكبر الجثة والثاني أنه ينشأ من قلة جودة العصارة المستجلبة قلة اللطافة في العصارة العصبية فيقل النشاط وتكون الأحاساس في البلاد الباردة ضعيفة بخلاف الحارة فإنها فيها قوية جداً وفي المعتدلة تكون معتدلة وكذا تختلف درجة الأحساس عند الناس باختلاف الأقطار والعوارض وذلك أن اختلاف الأحساس ناشئ من كون جميع الأعصاب الواردة إلى المنسوج الجلدي يتكون من كل منها مجموع عصبي ففي الجهات الحارة يكون المنسوج الجلدي رقيقاً جداً وإطراف الأعصاب مفتحة فتحس بأقل شيء ورد عليها من الخارج وفي الباردة بخلاف ذلك لانضمام المنسوج الجلدي وتجمع

اطراف الاعصاب فلا يصل الى المخ الا الاحساسات العظيمة
الحاصلة من مجموع العصب ولا يخفى ان النوى العقلية جميعها حاصلة
من احساسات صغيرة فمن هنا يكون الاحساس كثيراً في البلاد
الحارة قليلاً في غيرها والالم كذلك فانه يحصل من تمزيق بعض
اعصاب الجلد او تفريقته فكما كثر كثر الالم وبالعكس ففي
الباردة التي جثة اهلها ضخمة واعصابهم غليظة يصعب ذلك التمزيق
لغلظ جلودهم بخلاف اهل البلاد الحارة لرقه اعصابهم وجلودهم
ولهذا كان الم سكان الاقطار الباردة اقل من الم سكان الاقطار
الحارة ومن هذا التباين في الطباع الناشئ عن اختلاف البقاع
نكون اهل البلاد الحارة كثيرة الميل الى النساء ومنهم من يرى الميل
اليهن من اعظم النعم بخلاف سكان البلاد الباردة فان ميلهم
اليهن قليل اما اهل المناطق المعتدلة فمعتدلوا الأحوال
مطلقاً

فقال الخواجا ما ذكرتموه مسلم ولذلك نجد البلاد الجنوبية مثل
ايطاليا وما جاورها من البلاد الفة رجالها نساءها ليست كالفه رجال
البلاد الشمالية الباردة بنساءها فانهم لا حظ لهم الا في الحركة كالصيد
والسفر والحرب والشرب وسبب ذلك ضخامة اجسامهم وثقلها
وتمام الصحة ولهذا كان اكثر اهل تلك البقاع يميل الى المشروبات
الروحية وكما بعدوا عن التطيين وقربوا الى خط الاستواء نقص
هذا الميل واطنه تابعا لما يقذفه البدن من العرق ففي الجهات

الحارة يعوض ما خرج من الجسم بشرب الماء وفي الباردة يعوض
 بالمشروبات الروحية كالنيبذ ونحوه، لئلا ننعاش وبث الحرارة لتنبعث
 الحركة خيفة جمود الدم ألا ترى ان الماء هو الشراب المألوف عند
 اهل المشرق من يوم خلت الله الدنيا بخلاف النيبذ ونحوه فهو
 المألوف عند اهل البلاد الباردة واهل البلاد المعتدلة لا تقطع رغبتهم
 في النساء لكن لا تبلغ بهم الى حد التهور فهم فيها على حال الاعتدال
 وتزداد تلك الرغبة بالتدرج بحسب البلاد الحارة ولو اخبرت اهل
 البلاد الباردة لوجدتهم اقرب الى الصديق والحق والامانة من اهل
 البلاد الحارة فان اولئك تغلب عليهم شهواتهم وتكثر فيهم الكبائر
 والمساوي فتراهم لا هم لهم الا شهوات انفسهم وطاعتها فيما تقترحه
 عليهم من الاماني والشهوات البهيمية

واما اهل البقاع المعتدلة فلا ثبات لهم على حال فطورا في
 الفضائل وطورا في الرذائل يغشون كل ناد ويميمون في كل واد
 وكلما زادت درجة الحرارة ضعفت القوى البدنية ويتعدى ذلك
 الى القوى العقلية فتتساوى لديهم الامور فلا تتبعث خواطرهم الى شيء
 ولا يهتمون بشيء ويغلب عليهم الكسل ويحملون العذاب في
 الدنيا بلا ملل ولا يجتهدون بعقولهم في سياسة انفسهم فيكون في ذلك
 استرقاقهم ويرون الرق اهون عليهم من العمل ولهذا نرى الفقراء
 والدراويز والشحاذين وامثالهم في تلك البلاد كثيرين وانا لنعلم
 بما تواتر عن السياحين ان الهنود مجردون عن الشجاعة والبأس كما

هي طبيعة بقعتهم وقد شوهه ان من تناسل من الاور وباوين هناك يشبه طبعه طبع الهند دون طبع ابيه واصوله ومن ذلك فللهنود عوائد فظيعة مستغربة كل الاستغراب منها ان نساهم بحرقهم انفسهم بالنار بعد موت ازواجهم ومنها انهم مع ضعف قواهم ونخافة اجسامهم يتوهمون اوهاما جسيمة جداً فيتوهمون اموراً افطع من الموت فلا يبالون من الموت ولهم صبر وتجلد على انواع العذاب

وهؤلاء القوم تخلوا اذهانهم وسلامتها عن العوارض وقابليتهم واستعدادهم لكل ما يلقي اليهم يلزم لهم على سبيل التاكيد زيادة عن غيرهم ان تقنن لهم قوانين وتشرع لهم احكام حسنة يتعلمونها ويتداولونها بينهم ويلزم ان تكون تلك القوانين اموراً معقولة خالية عن الاوهام والوساوس ليحبيلوا على احسن الاحوال حيث انهم على الفطرة الاعلمية ليس في اذهانهم شيء من التخليطات كالأطفال الذين يلزم لهم السياسة والتعليم والتدريب على ما به صلاحهم اكثر من الكبار الذين دخلت اذهانهم تشويشات تعطلها او تمنعها عن رسوخ التعليمات فيها وقد كانت الامم الشمالية زمن الرومانيين مستقلة بنفسها ومدافعة عن وطنها وحرعها ومع جهلهم وعدم وجود قوانين لهم حاربوا الرومانيين زمناً طويلاً حتى كسروا شوكتهم وخفضوا دولتهم ولو اضافت ضعف بنية الامم المشرقية عن العمل الى ما هم عليه من حب البطالة والكسل لعرفت سبب ثباتهم على

قوانينهم وعوائدهم وأخلاقهم فانك لو قارنت بين ما كان في
سالف الأزمان وما هو الآن لم تجد إلا فرقاً يسيراً ومن تأمل
أحوال الأمم وجد أن المؤسسين الذين وضعوا القوانين لسياسة
الناس هم الذين أكسبوا أهل بقاعهم ما هم عليه من العوائد والأحوال
ضرورية أن كل طائفة عملت بقوانينها وسيست باحكامها حين
صارت كالجبل لم فبعض المؤسسين سائر أهل بقعته على ما هم
عليه من رديء النخصل وسيء الأحوال فلم يزدادوا بذلك إلا
ضرراً من الفقر ونحوه والبعض رفع أهل بقعته عن الرذائل بل
وحملهم على التحلي بافضائل فتحسنت أحوالهم وحمدت خصالهم
وأفعالهم ففي اعتقاد الهنود مثلاً أن السكون والعدم هما الأصل
واليها تؤول الأشياء فيرون البطالة أحسن الأحوال ويستندون
في ذلك إلى اسمه تعالى الثابت لأنهم فهموا أن معناه الذي لا يتحرك
مع أن الأمر ليس كذلك بل معناه الدائم الذي لا يزول
ازلاً وأبداً وسكان جزيرة سيام يقولون أن العيم الأبدي هو كون
الإنسان لا يجبر على الحركة واتعاب الجسم فذلك كان السكون
وعدم الاشتغال عندهم أمراً مرغوباً فيه في تلك البلاد الحارة المضعفة
لجميع القوى ولأن الراحة عندهم أمر طبيعي هو المقصود
بالذات

فلما أسست القوانين على حسب قطرهم وما يناسب أوضاعهم
من الترغيب في الدعة وترك الحركة اعتبت مضار كثيرة بخلاف

اهل الصين فان قوانينهم مؤسسة على الاجتهاد والسعي والبحث
على ذلك فتجد احوالهم مستحسنة وقواهم متوفرة وارزاقهم متيسرة فيبين
الفريقين بون بعيد مع انها متجاوران

— —

المسامرة التاسعة والتسعون
الاكلميزي والبيانرو والكتاب

ثم اننا وان لم نستوفِ الكلام في هذا الملتام الا اننا محتاجون
الى الرجوع الى البيت لناكل ثم نعود للتياثر فانكم ما رأيتموه ولا
وقفتم على حقيقة ما فيه فقاما وركبا العربية واخذوا باطراف
الاحاديث الى ان وصلا مكانها فنحا كل نحو غرفته فلما خلا الشيخ
بابنه قال له ما تقول فيما حدثنا به الخواجا في هذا اليوم فقال انتم
بذلك ادرى وبالحكم فيه احرى فقال ما قال الا حقا ولا نطق

الأصدقاً واني جلت في بحر الفكر في شان هذا الامر مدة سيرنا في الطريق فوجدته في مقاله صادقاً وبالحق ناطقاً ما كأنه إلاّ ساح كل بقعة واثبت له فيها سجرة وركعة وعاشر من استوطنها من السكان في كل الازمان فانه لا يقف على تلك الاحوال إلاّ من كان هكذا من الرجال فله دره عالماً نخبيراً وفاضلاً بالامور خبيراً حاز من كل فن طرفاً فاخذ منه ملحا وظرفاً

فقال له ابنه ومن الغرائب والعجائب معرفته بجميع اللغات فاني اراه يكلم كل لسان بلسانه مع الزلاقة وحسن التعبير والطلاقة كأنه في كل لغة اصيل وليس فيها بدخيل ومن مزياه انه محبوب عند كل من يعرفه

فقال الشيخ ان ذلك من علمه وادبه فان من تحلى بجملة الادب اغناه ذلك عن الحسب والنسب

ثم قال يا بني ثم بنا نذهب اليه فذهبا فوجدا الاكل قد كملت هيأته فجلسوا جميعا ياكلون وفي خواص الاطعمة يتحدثون ثم بعد شرب القهوة ذهبوا للفرج على التياتر فاخذ الخواجا له ولهم تذاكر ودخلوا فلما اخذ كل موضعه دارت الملاعب من كل جانب فسرّ الشيخ بما رأى

وكان الخواجا يرحم له العبارات اللعبية ويبين له ما فيها من النكات الهزلية والمجدية وفي الاوقات الخالية بين الالعب اجتمع بكثير من يعرف الخواجا فكانوا يحيمونه ويمازحونه ويوأسونه

ويراعون خاطره وهكذا الى اتقضاء اللعب فانصرف الخوارجا مع الشيخ وولده وكان باللعب خافق كثير ما بين نساء ورجال وشيوخ واطفال

فقال الشيخ اظن ان اهل هذه البلدة لا يدخلون تحت عدد وازداد تعجبه من خلوص باهم وانتظام حالهم لانه رأى جميع اوقاتهم ما بين اعمال جدية سديدة وهزليات والعباب غريبة مفيدة تكسبهم ثياب ثروة ونزاهة ونفidence علوما باحاديث الفكاهة فما يمر عليهم يوم من الايام الا وتتزايد اتمال الثروة والنزاهة عندهم فتمضي عليهم الايام والليالي في لذة بال

ثم وصلا الى المحل ونزلا عن العربية فقال الخوارجا ايها الاستاذ ان البوسطة تتوجه غداً فان اردت ان ترسل كتاباً فحرره الليلة فقال له الشيخ جزيت خيراً ووقيت ضيراً ثم ذهب كل نحو غرفته وكان اكثر الليل قد مضى

فقال الشيخ لولده يا بني حيث لا ينبغي الان غير النوم فان شاء الله نحرر خطاباتنا غداً ونرسلها الى البلاد لوالدتك والاولاد فقبل يده وقام لينام فقابلته يعقوب بعد قضائه ما كان مشغولاً به فسلم كل منهما على الاخر سلام اشتياق ودخلا يتحدثان بما رقا وراق فتكى له ما رآه في هذه الفسحة وعن التياتروما فيه من النزاهة وقال كنت اتمنى تمام سروري بوجودك فقال له يعقوب الايام بيننا فقال وما الذي عافك عنا

وفرقك منا فقال بعثني حضرة الخواجا الى بعض اصحابه لامرهم
فقال لعله تم على مرأه فقال نعم وقد فرح به فرحا شديداً
واستفدت انا منه كذلك شيئاً جديداً وهو هذه الساعة فهنا
بها ابن الشيخ ثم تواعدا على الذهاب الى العين صباحا ودخل ابن
الشيخ لينام فلما انتبه من نومه اخذ محبرة وكاغدا ويراعا وصار يحرق
لوالدته هذا الكتاب

اهدي عاطر تحياتي الى كريمة النسب الطاهرة الاندال قرب
الله لنا ايام التداني

وبعد بث الاشواق ابدي لمحبابك اني منذ فارقت مطلع
سعودك ومربع شهودك وانا مشغول البال مرتبك الحال وما من
وقت يمر علي الا وانا منتظر ورود خبر منك الي اطمئن به
عليك وعلى الاخوة والاخوات والامام والاخوال والعات والخالات
ولكن كيف السبيل الى تحقق تلك الامال مع بعد ما بيننا على ان
بعد الشقة يزيد لوعتي وينغص خاطري وكم هاج علي الوجد وقت
الانفراد وكم صورك الوهم في الفواد فيثير ما انا فيه من النيران
ولا سيما اذا اشتد الذكر لهاتيك الديار وما كنت تفعلينه بي من
الحنو وعطفك علي ورافتك بي فعند ذلك يهيج وجدي ويكاد
ان يشيب من تذكره فودي ولولا ان من الحنان المنان بصحبة
اعز الخلان وعرفت يعقوب الذي اخبرت سيادتك عنه فيما سبق
لذبت من الم النوى واعتزني من الم الجوى ما لم اجد له دوا

ولعددت ثواني الغربة سنوات وخلت جميع اوقائي عن اللذات
لكن ملازمته لي وشغفته علي وتسليته لي برائق العبارات خفف
عني الكروب وربما تحصلت بصحبته على كمال المرغوب مع صحة
البدن والنزهة في غالب الزمن ومشاهدة امور ظريفة مع ما اكتسبه
منه بالممارسة عند المحادثة والموائسة واما صاحبنا الخوجا فلا يدع
في نفسي شيئاً احبه الا ويحلبه لي لان حبه لي زائد وقد بلغت حد
التكلم باللغة الانكليزية وذلك ليس الا بهيمته فحزاه المولى عني خيراً
فصرت الان وان لم اتحصل على درجة عظيمة في اللغة الانكليزية
لكن يمكنني قضاء ما يلزمني بحيث اعبر بها عن مقصودي وافهم
ما يقال لي وقد اخذت ايضاً في تعلم اللغة الفرنسية ولست مقتصرأ
على ما اخبرتك به بل كل ما وقع نظري عليه او سمعته او
فهمته اسطره لكي اطلعك عليه حين العود الى مصر ان شاء الله
تعالى والذي يغلب على ظني انا نقيم شهراً بباريز ثم نتوجه
الى بلاد الانكليز وواندي في هذه المدة فضلاً عن اشتغاله مع
الخوجا بقراءة بعض دروس عربية بالمدرسة المشرقية ففضله كل
وقت ينشر وفخره بين العلماء يزيد ويكثر وليس ثم ما يكدره غير
الفراق وعدم ورود المخاطبات. الينا منكم فالمرحو عدم انقطاع
الرسائل لانها للاطمئنان عليكم من اقوى الوسائل حيث كان
ارسال الخطابات ممكن لك مع ما ياتي للخوجا من المكاتبات ثم
ارجو تبليغ السلام الى الاخوان والمحبين الكرام

ثم طوى الكتاب وذهب به الى والده وسلمه له فقرأه بتمامه وسر
من حسن نظامه وسلاسة مباحثه وجزالة معانيه ثم قال له ان
كتابك فيه البكافية فانه استوفى ما يلزمي كتابته ثم وضع اسمه
بجانب اسم ولده وكتب على هامش الكتاب بيده وصية بالاولاد
وبارسال رسائل مع الورد تبين فيها ما عندها من الاخبار ثم
برشم الكتاب وقام هو وولده ودخلا عند الخواجا فحياها واكرم
مشاها ثم قال للشيخ اني كتبت خطاباتي التي اريد ارسالها الى القاهرة
فقال الشيخ ونحن كذلك وسلمه الخطاب فوضعه الخواجا داخل
الظرف وبرشمه ثم سلم ليعقوب الظرف بها فيه فتوجه به
الى البوسطة

ثم قال الخواجا للشيخ اني كنت اريد ان اخرج مع حضرتكم
للتنزه حسب الاتفاق ولكن ارجوكم السماح فقد عاقني عن ذلك امر
مهم وهو ان لاجد اصحابنا قضية مهمة في بلد قريب ولا بد لي من
التوجه معه لبتها وقد واعدته على ذلك وان شئت الذهاب معنا
فلا بأس لاسيا والبلدة قريبة والسبل الموصلة لها لطيفة ولا تخلو
من فائدة وان شئت ان تبقى ههنا ومعك يعقوب فلا مانع وان
شأ المولى في يوم غير هذا نذهب معاً ومع كل هذا فالرأي لكم فقال
الشيخ ان استحسنتم بقاءي هنا فلا مانع

فقال الخواجا للرأي ما ترونه واظن اني اعود قبيل الغروب
وفي ذهابي وايابي استكشف لكم الطريق فان وجدت بها ما

يسر خاطرکم ذهبنا جميعاً فاتفقا على ذلك ثم حضر الطعام فتناول
كل ما تيسر وقام الانكليزي وتوجه وبقي الشيخ وولده
ويعقوب

المسامرة المائة

الحفرافية

فقال الشيخ ليعقوب قد سبق انك اخبرتنا ببعض حوادثك
حين اسرك ولم تذكر لنا ما جرى بعد عودك ولا ما حصل لاختك
فهذا وان ذلك فاذكر لنا ما بقي منه في بالك وكان الخوارج
ترك العربى للشيخ فقال يعقوب سمعا وطاعة وها هي العربى حاضرة
فلنركبها ونذهب لنغنم اللذين ونكون التسلية بشيء من فنظر
الشيخ الى ولده فرأى السرور على وجهه فقال ذلك امر حسن.

لأناباه ولكن انتظراني نحو ساعين فان لي اربا اريد قضاء فاجابه
يعقوب لذلك وقام هو وابن الشيخ الى غرفة يعقوب فمد يعقوب يده
الى كرة وقال لابن الشيخ تذكر ما كنت وعدتك به حين كما
في الجراول نعرفي بك فقال ابن الشيخ وقد كتبت في رقعة وارسلته
لوالدي فقال يعقوب اني اشتريت هذه الكرة التي هي مثال للارض
بما فيها لابن لك عليها الاقطار المعمورة من غير المعمورة وكيف
تنوزع البحار عليها وحيث اهلنا حضرة الوالد ساعين فالرأي
عندي ان نصرف ذلك في معرفة بعض شيء من الجغرافية فقال
ابن الشيخ ان في شوقا شديدا لمعرفة هذا العلم فقال يعقوب ستعرف
ذلك قريبا ان التيت بالك فانه علم لا صعوبة فيه

ولبدء بمعرفة البحار المحبطة بالدنيا ويكفي الان ان تنظر لهذه

الكرة ليتبت ما تراه في ذهاك

فاعلم ان جميع ما تراه على سطحها محدودا بخطوط هو اشارة الى
الارض القارة والجزائر وما سواها من سطح الكرة هو المستور بالمياه
ويتكون عنها البحار المسماة باسماء مختلفة على حسب اوضاعها وهذا
الشريط المستطيل المنفرد وحده الممتد من اعلى الى اسفل الضيق
الوسط العريض الطرفين هو المسمى بالدنيا الجديدة وهي
الامريكيتان الشمالية والجنوبية فالشالية هي الجزء الاعلى من الشريط
والجنوبية هي الجزء الاسفل منه

واما الدنيا القديمة فهي هذه القطع الثلاث المتصل بعضها

بعض الممتدة بالاتساع من اعلى الى اسفل بدون انتظام ونقسم الى قسمين صغير وكبير فالصغير في الجنوب الغربي ويعرف بطريقة وهي قطعة من الارض منها اقليم مصر والسودان والحبشة والمغرب وبلاد اخر والكبير في الشمال الشرقي والشمال الغربي فلذا قسموه الى قسمين ايضا غربي وشرقي فالغربي يعرف باوروبا التي منها فرانس وجرمانيا والانكليز والروس وغيرها والشرقي يعرف باسيا التي منها بلاد العرب وارض الشام والعجم والهند والصين والترك وغيرها وجميع هذه النطع الصغيرة المرسومة في الجنوب الشرقي جزائر كبار وصغار واشهرها جزيرة هولاندة الجديدة وباقي هذه الجزائر تسمى جزائر اوقيانوس وهي من الدنيا القديمة

واعلم ان ما يسمونه بالبحر المحيط الجنوبي هو كتابة عما تحصر من الماء بين شرقي الدنيا الجديدة وغربي الدنيا القديمة وما يقال له البحر الاطلنطي هو المحصور بين غربي الدنيا الجديدة وشرقي القديمة وهذان البحران ممتدان جهة القطبين وهناك يجتمعان ويتكون عنهما البتران المنجمدان وهما المنجمد الشمالي عند القطب الشمالي والمنجمد الجنوبي عند القطب الجنوبي

فاذا تأملت ذلك رأيت ان معظم الارض القارة في النصف الشمالي من الكرة وان معظم الماء موجود في الجنوبي منها ولذا اطلقوا اسم الاوقيانوس على ما انحصر من الماء بين الدائرة القطبية والارض القارة من جهة الجنوب الذي منه رأس عشم الخيروبحر

الهند المحيط بجزائر الاوقيانوس ويتصل بمحدود افريقية واسية من
جهة الجنوب انما هو قطعة من هذا البحر العظيم فكل ماء يجري
وسط الارض القارة من اي جهة من جهات الدنيا قديمة وجديدة
مصبه تلك الابحر الاربعة

ثم ان كل بحر منها يتفرع منه بحار صغيرة تخترق الاراضي
القارة مثل البحر المحيط قد اخترق الدنيا الجديدة فتكونت بهامه
فروع منها بحر بهران وبحر الكاليفورني وبحر تبا وكذلك دخل منه
في الدنيا القديمة فروع مثل بحر بابونيا وبحر الصين وغيرها من
البحور وكذلك البحر المنجمد الشمالي تفرع منه فروع فمن فروعه
بالدنيا القديمة البحر الابيض ومن فروعه بالدنيا الجديدة البحر القطبي
ومن فروع البحر الاطلنطي بالدنيا القديمة بحر بلتيقة والبحر المتوسط
الذي على ساحله مدينة الاسكندرية وخليج غينا وفي الدنيا الجديدة
بحر باقان وبحر هودسون وخليج مكسيك وغير ذلك وتشعب من
بحر الهند البحر الاحمر وهو بحر التلزم وبحر عومان وخليج بنجال
وبحر العمم

والبحر المحيط متصل بالمنجمد الشمالي في بنار بهران وبحر الهند
ببغازات عديدة في جزائر السند وهولاندة الجديدة ويتصل بالبحر
المنجمد الجنوبي بالاوقيانوس وبالبحر الاطلنطي بالاوقيانوس
وببغاز ماجيلان

واما البحر الاطلنطي فيتصل بواسطة البحر المنجمد الشمالي

ببحر اسلاندة وبواسطة البحر المنجمد الجنوبي بالاقويانوس وبتصل
بالبحر المحيط بالاقويانوس وبنغاز محيلان وببحر الهند بالجزء من
الاقويانوس الذي في جنوب رأس عشم الخير

وجميع المياه الجارية فوق ارض الدنيا القديمة تصب في الابحر
الاربعة التي ذكرناها كما تقدم وخط انقسام تلك المياه يتجه على غير
انتظام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي فيخرج من ابتداء
الشرقي الى راس عشم الخير ويمرّ ببرزخ السويس

واما الماء التجاري في ارض الدنيا الجديدة جميعه فينصب في
الثلاثة الابحر الاصلية وهي البحر المحيط والاطلنطقي والمنجمد الشمالي
وخط انقسامه فيها يتجه من الشمال الى الجنوب
ومساحة ارض الدنيا الجديدة عماراً وخراباً وسهلاً وحزناً

٢٩٦ ٨٠٧٠ ميريامتر مربع

ومساحة الدنيا القديمة ٦٨٠٠٠٠٠٠٠ ميريامتر مربع اي ان
سعة الدنيا القديمة قدر سعة الدنيا الجديدة ثمانى مرات ونصفاً تقريباً
وبما ذكرته لك تعلم اقسام المعمور من الارض على وجه العموم
وما فيها من البحار ايضا ثم لا بدّ بعد ذلك من معرفة الامم الساكنة
في كل قسم على حدته وهذا امر يطول لو اردنا الدخول فيه على
وجه التفصيل فقتصر على ذكره عجبلاً لكن قبل الدخول في
شرح ذلك اذكر لك بعض كمات تقع بها على تاريخ علم الجغرافية
لتعرف كيف تقدم هذا العلم تدريجاً

ثم نتكلم على قطعة أوروبا حيث نحن الآن فيها فنقول الكرة الأرضية كانت غير معلومة من جميع جهاتها كما هي الآن فكانت كل أمة في تلك الأزمان الخالية تعد نفسها في وسط الأرض وكانوا إذ ذاك يعتبرونها كقرص مستدير يحيط به نهر عظيم كانوا يسمونه الأوقيانوس وكانوا إذ ذاك لا يعرفون من البحار غير البحر المتوسط وكانت أرض الروم تعتبر أنها مركز لذلك القرص ويظنونه امتداً من جهة الشمال إلى ما بعد نهر الطونة ومن جهة الغرب إلى بغاز قادس ومن جهة الشرق إلى حدود آسيا الصغرى ومن الجنوب إلى آخر أفريقيا والبلاد المعلومه كانت بلاد الروم وآسيا الصغرى ومصر وإثاليا

وفي زمن هيرودوط بطل اعتقاد الناس في البحر المحيط واتسعت قطعة أوروبا وآسيا وأفريقيا ما استكشف من الأرض والبلاد وبقي ذلك إلى زمن القراطيجين فساحوا في البحر المحيط واستكشفوا الجزائر المخالدة في الجهات الجنوبية وجزء الانكليز في الشمالية وبعد الإسكندر الأكبر عرفت أغلب بقاع آسيا الكبرى ثم إن استرابون الجغرافي الشهير حصر جميع المعلومات الجغرافية إلى وقته فكانت عبارة عن أغلب بقاع آسيا وأفريقيا وأوروبا وهي محاطة ببحر عظيم والرومانيون بسبب حروبهم في جميع جهات الدنيا احاطوا بعلم كثير من جهات أوروبا خصوصاً الجهات الشمالية منها وكانت غير معلومة لذاك الوقت وعلمت حينئذ الأمم

الساکنة على نهر الطونة ومجر البلتيکا وجزائر الانکلیز

وفي القرن الثاني من المیلاد جمع بطليموس جميع المعلومات الجغرافية وضبط حدود الارض المعلومه ووسع الکلام في قطعة افريقا وآسيا وبين ارض الصين الا انه لم يعين الحد الغربي لافريقا والمثير برون النازلون من الشمال الذين هجموا على من باوروبا هم الذين وسعوا دائرة جغرافية هذه البتعة وذلك في القرون الوسطى ثم جاء من بعدهم العرب فبينوا جميع جهات اسيا وافريقا كل البیان وساحوا ارض الصين وجزائر السند وفي وقتهم مدت الديانة الحمدية اشخاصها وهزت بلابل العز افنانها حتى وصلوا النهر المار من وسط ارض الهند ولم تعلم جهة شمال اوروا الا من عهد حرب النورماندي ومن ذلك الوقت علمت البروسيا والسکدینا والروس ومن عهد حروب الاتراك والمغول وقف على معرفة سكان البقاع المركزية لآسيا وارض التار وبلاد السییریا وغيرها من الجهات

ومن حين حرب القدس اشتاقت الناس الى السیاحة فانسعت دائرة الجغرافية اتساعاً عظيماً بما استفيد من رسائل السیاحين وترحلهم فعلت اوضاع ام كثيرة كانت مجهولة الى ذلك الوقت خصوصاً اوضاع اسيا وافريقا

ثم لما اشترك جميع الناس في حب التجارة والسیاحة حصل لهذا الفن تقدم عظيم وكثرت المعلومات وفي القرون الثلاثة التي

اشتغل فيها اهل الوندیده وجنوه بالتجارة من بلاد الهند الى اوروبا
بطريق البر لا بطريق البحر علمت انلب البقاع والطرق المجهولة
للناس ولما اخذ البرتغاليون البحر طريقاً لتجارتهم لهدية استكشفوا
استكشافات عظيمة ووصلت سفنهم الى ما لم تصل اليه سفن
الاقدمين حيث كانوا لا يتعدون رأس نون في المحيط الانلانتىكى
اما البرتغاليون فقد وصلت سفنهم الى جزائر كناريا سنة ١٤١٧
من المبلاد

ثم في سنة ١٤٢٢ وصلت الى جزائر الاسوز ثم حصل
استكشاف السنجال سنة ١٤٤٥ وفي سنة ١٤٧٢ جاوزوا
خط الاستواء وفي سنة ٨٤ استكشف برطولي ديداراس عشم
الخير وفي اثناء سعادة البرتغاليين بالتجارة ظهر كرسstof كلومب
الاسبانيولي واستكشف الدنيا الجديدة في الثاني عشر من شهر
اكتوبر الافرنكي سنة ١٤٩٢ وفي تلك المدة وصل البرتغاليون
راس عشم الخير وجميع سواحل تلك الجهة ومن ذلك الوقت
صار ما بين اوروبا والهند طريقاً مسلو كاً وعلم الناس بحر العجم
والبحر الاحمر وخليج عومان وخليج بنغال وغير ذلك من بقاع
شتى وذلك انه من نحو مائة سنة كانت اغلب التجارة فيها
للبرتغاليين فاستكشفوا جزيرة ملقة سنة ١٥٠٠ وجزائر السند سنة
١٥١٠ وفي التي تليها جزيرة سيام ثم في التي تليها جزيرة ملوك
وفي سنة ١٥١٦ استكشفت سواحل الصين وفي سنة ١٥٤٢

سواحل يابونيا ثم فعل الاسبانبيون كما فعل البرتغاليون في
 جهات امريكا وفي سنة ١٥١٢ صار اغلب جهاتها معلوما مسلوكا
 وفي سنة ١٥٢٠ علمت الطريق من امريكا الى الهند وفي سنة ١٦١٠
 كثر استكشاف جهات الدنيا الجديدة حتى علمت بتمامها

ومن حيث ذ اتسعت دائرة التجارة والملاحة وجابت جميع
 الامر البحار بسفنها واستكشفوا كثيرا من الجزائر ووقفوا على جميع
 الجهات المعورة من الارض ولم يبق لهم مجهول يبحثون عليه
 غير الطريق الموصل للقطب الشمالي ووسط افريقيا وهولندة
 الجديدة

وما ذكرته لك وان كان على وجه الاختصار الا انه
 يمكنك به ان تعلم كيف تقدم هذا العلم الى ان صارت الملاحة
 الآن اهن شيء حيث بني على قواعد بمتضاها تجوز الفلك
 البحار العظام وتسير على خطوط معلومة مضبوطة بالحساب ويصل
 الناس الى اقصى اغراضهم من اي جهة من الكرة امنين مما كان
 يحصل في الازمان الخالية فان الملاحين كانوا اغراضا لكل مخيف
 لقلة معرفتهم بهذا العلم فكانوا يضلون عن الطريق واذا
 تعددت الطرق لا يدرون النجاة في اي طريق فكان من يسبح
 منهم تطول عليه المدة

وبيناها يتحدثان والى تلك الكرة ينظران اذ دخل عليهما
 الشيخ فاراد يعقوب ان يقطع الكلام فقال له الشيخ امض فيما انت

فيه فقال اني خشيت تضبيع الوقت فاحببت ان اتكلم معه على الكرة في بعض مواد جغرافية ولكن حيث حضرتم فينبغي ان نقف عندما وصلنا ونخرج فقال وانا اريد ايضا ان تبين لي مزية هذه الكرة وما عليها من الرسوم فاعاد له يعقوب حاصل ما تقدم بالاختصار ثم قال وسيكون ذلك ان شاء الله تعالى في مرة اخرى

فقال الشيخ بل انهم ذلك الان ونجعل خروجنا بعد ساعة فانه ليس المراد من الخروج غير الفسحة وطال ما كنت انشوق الى الاطلاع على جغرافية قطعة اوروبا وكم سنخ بخاطري ان اسال حضرة الخواجا عن ذلك فتحدث امور تمنع وحيث كنت الان بهذا الصدد فاروم منك شرح ما تعلمه فيها فقال يعقوب هذا بعض ما يجب علي

قطعة اوروبا محاطة ببهار من جميع الجهات الا جهة واحدة فمن جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالي ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطي ومن الجنوب بالبحر المتوسط ومن الشرق بجزء من البحر المتوسط وبالبحر الاسود وبخط وهمي يمر باعالي جبال القوقاز ويمتد الى بحر الخزر ثم نهر اورال وجبالها وينتهي الى رأس وبجاز واكبر طولها خمسمائة وثلاثون ميترامتر واكر عرض منها ثمانمائة واربعة وثمانون ميترامتر وطول سواحلها البحرية ٢٢٧٢ ميترامتر ووحدها في الارض طولها ٣٩١ ميترامتر ومساحتها ٩٧٧٨٠٤

مهر يامتر مربع وعدد اهلها ٢٢.٠٠٠.٠٠٠ نفس وعلى حسب
ارضها وما تشتمل عليه من الجبال يمكن تقسيمها الى جنوبية
وشمالية فالاولى عبارة عن ارض مرتفعة جداً وبها جبال عالية
مختلفة هيئة وانحداراً وسواحلها البحرية خلجان كثيرة

وبارض ذلك انهر كثيرة تمتد في جميع جهاته وبهذه
الصفات تكون محفوظة من الرياح الشمالية وعرضة للرياح الشرقية
الافريقية الرطبة بسبب البحر المتوسط والثانية عبارة عن ارض
واسعة وبرك متعددة، وهذه الصفات كانت عرضة للرياح الباردة
الثلجية التي تهب من اسيا ومن البحر المتجمد الشمالي فارنفاع اوروبا
الجنوبية وكثرة موانئها سبب في اتساع دائرة الفلاحة والتجارة بها
وموجب لاستقلال اهلها وتمتعهم بخلاف اوروبا الشمالية فان ارضها
مع اتساعها ليست مسكونة الا بام قترآ متوحشين في قبضة حكومة
تصرف فيهم كيف شئت وكل من الاثنين وان وجد في سواحل
خطبان و بحر الا ان وضع البحر المتوسط الملاصق لاوروبا الجنوبية
يبين ثلثه اقسام الدنيا اسيا وافريقيا واوروبا هو الموجب لسعادة
اهل هذا القسم منذ اربعة الاف سنة وهو منبع التمدن ومركز
تجارة جميع الامم ولو قارنا فطمة اوروبا بنيرها من الارض اوجدناها
اقل منها خيراً بالطبع فانه ليس بها ما بالآخرى من النبات
والحيوان والمعادن واكثر ما يوجد بارضها الحديد وكان غالبها
مغطى بالغابات لكن مع طول الزمن ومساعدة طيب الهواء وهمة

هلمها صارت اكثر بقاء الارض عمراناً وخيراً فالانسان هو الذي
 بتدبيره كساها حلل البهاء فهي دليل على عظم قدر نوع الانسان
 وعلو شأنه فتد جلب لها جميع انواع النبات النافعة من الباع
 الشاسعة وكذلك جمع فيها انواع الحيوانات من جميع الجهات
 والف بين هذه الاجناس فتفرع من ذلك افنان التمدن وبعد
 ان كانت انهرها تمر في خلالها بغير فائدة عمل لها اهلها جسوراً
 قوية وطرقاً هندسية وسوا سطوح جبالها ونشفا مستنقعاتها
 المضرة فانتسعت بذلك ارض الزراعة وعمرت بالمدن والبلاد
 وبحسن التدبير تسلطنوا على البحار واخترعوا في ذلك اختراعات
 كثيرة حتى وصلت رسالهم الى جميع الجهات وجلبت منها جميع
 المحصولات فرادت ثروة اهلها وصحت ابدانهم وصارت ارضها اتقى
 الارض هواء واكثرها ثمراً وتنقسم اوروبا بالنظر للبحار المحيطة بها
 والانهر الموجودة داخلها الى سبعة اقسام طبيعية

الاول الاندلس

الثاني فرانسا والبحول

الثالث جرمانيا

الرابع ايطاليا

الخامس الروم

السادس الروس

السابع اسكاندناوة

ويضاف الى ذلك قسم سكان الجزائر وهم الانكليز فتكون
اقسامها به ثمانية وهذه الاقسام كانت مسكونة في الزمن السابق
بست ام متباينة فكان في جزر اليونان والروم وجنوب ايتاليا
يقال لها اليبلاسك وفي شمال ايتاليا وبحيث جزيرة الاندلس
يقال لها الايبير وفي الجول وجزائر الانكليز امة الجال او الكلت
وفي جرمانيا والسكاندينافو الجرمانيون وكانت تنقسم الى كمبريس
وتوتون وجوت وبارض الروس كان السلاف والفنواي واول
امة منهم دخل فيها التمدن هي الامة الرومية فالروم هم السابقون
في ذلك وعنهم اخذ من جاورهم من الامم ولكن لم يغيروا شيئاً
من عوائد الامم الذين استولوا عليهم وغاية ما هناك انه خرج اناس
منهم الى ايتاليا وجزائر البحر المتوسط وبعض من جهات الجول
وكانت جل همتهم بلاد المشرق فاسسوا بها دولة عظيمة وتبعهم
الرومانيون وهم امة صغيرة من الايتاليين استولوا باستمرار الحروب
على الثلاث الاول من الامم الست المذكورة واختلطوا بالخامسة
وجعلوا البقية

فلما تمكنت دولتهم وقويت شوكتهم واتسعت مملكتهم تغيرت
جغرافية اوروبا الجنوبية وذلك لان ملكهم وصل من جهة الغرب
الى البحر الاطلنطي ومن الشمال الى نهر الرين ونهر الطونة ومن
الشرق والجنوب الى حدود اوروبا من ابتداء مصب الطونة في
البحر الاسود الى بغاز الطارق وكان حكمهم متداً كثيراً فيحكمون

على جميع الجهة الشرقية من اسيا والشالية من افريقيا وكانت ملكهم مقسمة الى ولايات منها ولاية الروم وولاية ايتاليا وولاية اسبانيا وولاية الجول وولاية بروتانيا وغيرها مما على شاطئ نهر الطونة الامين ثم في سنة ٣٦٤ من الميلاد انقسمت تلك الدولة الى دولتين مشرقية ومغربية فكان يتبع الدولة المشرقية الروم وبعض جهات من اوروبا ولايات اسيا جميعها والجهة الشالية الشرقية من افريقيا ويتبع الدولة الغربية جميع ما بقي من افريقية من الشمال الغربي وما بقي من اوروبا

وبعد تلك الايام قامت الامم المتبريرة التي كانت متوطنة بالجهات الشالية من اوروبا واغارت على الجهات الجنوبية منها واستولوا عليها وابطلوا دولة الرومانيين الغربية وغيره ترتيب سياسة اوروبا وسموا الارض بغير اسمائها فلذلك تغيرت جغرافية هذا القسم

والذي استولى على جزيرة الاندلس من تلك الامم امة يقال لها الويزجوث وعلى ارض الجول امة منهم يقال لها الفرنج والذي استولى على ايتاليا الاستروجوث ثم اللومباردي وعلى جزائر الانكليز الانجل والسكس وعلى ارض جرمانيا السلاف اي الصقالية ولم يبق من دولة الروم المشرقية الا ارض الروم فقط

فازمانهم كانت فتنة وحروباً وسفك دماء واستمر ذلك الى سنة ثمانمائة ميلادية ثم قويت الفرنج واسست دولة المغرب وكانت

تشتمل على الجول وإيطاليا وجرمانيا الى نهر الطونة وخذت
سطوة الاقوام المتبررة وابتدأت جرمانيا في التمدن وسمع باسم
البغارين والبوهيم وغيرهم وظهرت دول صغيرة منها دينمرك
ونورويج وسويد وفينلند وظهر اسم الروس

ثم دخلت العرب اوروبا واستحوذت على الاندلس وانزعمتها
من الاوروباوين وادخلت جزائر الروم في ضمن اسيا

واستمر النزاع بينهم الى سنة ٨٤٢ ثم زالت دولة الفرنج
بالكلية وظهر بدلها ثلاث دول من الامم الثلاث التي كانت متركبة
منها وهي فراسا وإيطاليا والمانيا وفي القرن الحادي عشر انقسمت
اوروبا الى دول صغيرة فكان في الاندلس ثلاث دول وهي نوار
وليون وكاستيل

وفي الجول فراسا والدورين والبرونس وغيرها وفي جرمانيا
المانيا وبوهيم والهنجيري الدين هم الحبر والبولونيا اي اللاه ودينمرك
وسويد ونورويج وسكندياوة والروسية وغير ذلك وفي ايطاليا ايطاليا
وصقلية وغير ذلك وفي جزائر الانكليز ثلاث دول روتانيا
وايكوسا وارلاندة وبقيت مملكة الاسلام والروم خارجة عن
اوروبا ويتوالي الازمان وتقلب المحدثان تداخلت الدول بعضها
في بعض

ففي القرن السادس عشر تغلب بيت ملك انمسا على

اوروبا وغير ترتيبها فدخلت جزائر اليونان في مملكة الترك
وانعزلت عن اوروبا

وانقسمت ايطاليا الى سبع دول وانفصلت جزيرة الاندلس
من مملكة الاسلام وصارت اربع دول من ضمنها مملكة البرتغال
وانقسمت فرنسا الى اكثر من اثني عشرة دولة وجرمانيا الى
اربعة دول المانيا والمجر واللاه ودينمارك

وانقسم الروس الى امارتين امارة ليتاني وامارة مسكو وهذه
الاخيرة مركبة من خلق مبهولة احوالهم.

وانقسم السكدينوا الى مملكتين السويد ونرويج

وانقسم الانكليز الى ثلاث ممالك بروتانيا وايكوس وارلانده
وكانت نيران الحرب في تلك المدة مشتعلة ليتخلص من قهر ملك
النمسا من كان تحته من الامم فاستمر ذلك مائة وخمسين عاما ثم
اغلب ملك النمسا وخرج كثير من ملكه الذي كان مشتملا على
بجيش جزيرة الاندلس وایتاليا والبلاد الواطية (هولاندة) وعملت
بين الدول شروط تعرف في التاريخ بشروط ويستفالي وعلى
مقتضاها ترتبت اوروبا ترتيبا جديدا استمرول عليه الى سنة
١٧٨٩ فكانت حينئذ بلاد الروم في قبضة الترك وایتاليا كانت
منقسمة كما كانت في القرن السادس عشر وجزيرة الاندلس
كانت منقسمة الى دولتين اسبانيا والبرتغال والمجول الى عدة
دول صغيرة وجرمانيا الى المانيا وبروسيا ودينمارك واللاه والمجر

والى دولة مركبة من عدة جهات وصار الروس دولة واحدة
وبقيت السكديناوة على ما كانت عليه وصارت جزائر الانكليز
دولة واحدة

وكذا الحروب التي حدثت عن قيام فرنسا غيرت هيئة
اوروبا تغييراً كبيراً ففي سنة ١٧٩٧ كان لفرنسا حدودها الطبيعية
ما عدا سويسرة ثم زالت دولة ونديك اي البندقانيين وقسمت
دولة اللاه بين البروسيا والروسية والتمسا وفي سنة ١٨٠٢
انضمت ولاية البيومتي الى فرنسا وزالت دولة المانيا وفي سنة
١٨٠٦ عوّضت دولة النمسا وتكونت من ولايات باويرا
وويرتانبيرج وسكس وولايات اخرى ودولة المانيا المعاهدة وانفصل
من ايطاليا جهاتها الشمالية واستقلت وملكت فرنسا عدة ولايات
اضافتها لملكها وفي سنة ١٨٠٧ خرج كثير من الولايات الداخلة
في البروسيا من قبضتها وصارت ممالك مستقلة منها ولاية
الويستفالي وخرجت ايضاً عنها ولاية اللاه واستقلت باسم
لارسووي

وفي سنة ١٨٢١ اتسعت دولة فراسا وخرجت عن حدها
الاصلي بادخال هولاندة وسواحل البحر الشمالي وضمت لها التوسكاني
ولولايات الكنيسة الرومانية وكانت تحكم على ولايات نهر الرين
وجزائر الروم وايطاليا ونابلي واسبانيا والبرتغال وغير ذلك
وكان من جملة الشروط التي ترتبت عليها اوروبا المنعقدة

سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ان يكون جزء من جزائر الروم تحت حكم الترك وان يكون الباقي منها على الاستقلال هو مملكة الروم وصارت ايتاليا عبارة عن اماره صقلية و اماره الكنيسة و اماره توسكانا و امارات اخرى صغيرة وصارت حكومة الجول عبارة عن مملكة و جزء منها صار هو مملكة هولانده و جزء اخر اعطي للبروسيا وغير ذلك و انقسمت جرمانيا الى تسع وثلاثين ولاية متعاهدة اكبرها النمسا و بروسيا وان يكون جميع شمال اوروبا و اسكنديناو في تصرف الروسيا وكانت منقسمة الى ولايتين تحت تصرف ملك واحد وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة و يوجد في هولاء القوم اني الان اتار عوائدهم و لغاتهم الاصلية فالروم اغلب اهلها من اليبلاستك و لغتهم من لغة الروم القديمة و اغلب ايتاليا من الامة القديمة و دخل معهم الجرمانيون في الجهة الشمالية و دخل في الجنوبية العرب و لغتهم صارت من الرومية و بقي في جزيرة الاندلس ما قل من الامة الاصلية و اغلبها من الرومانيين و الويزيجوث و العرب و لسانهم من اللغة الرومانية و في الجول قليل من سكانها الاول و اكثرها اخلاط من الرومانيين و الجرمانيين و لسانهم مأخوذ من الرومانيين و اغلب سكان جرمانيا من النسل القديم و السلاو و لسانهم هو لسان ابائهم الاول من غير تغير و الروس عبارة عن سلاو و فينوا و لسانهم اللسان القديم و اهل السكنديناو و التوتونيون و لسانهم هو القديم ايضا و نصف اهل جزائر الانكليز من الامة

الاصلية والنصف الثاني من الجرمانيين والرومانيين ولسانهم مشتق من لسان التوتون مع اللسان الروماني او الفرنساوي وفي جهة الشمال يوجد بعض يتكلم بلسان السلت التاروهم الامة الاصلية وبعض اخر اترك وجراكسة وباوروبا في هذه الحالة ثلاثة انواع من سكانها الاصليين ففي جهة الجنوب الطائفة اليونانية الرومانية وهم ينقسمون الى اروام وتليانيين واندلسيين وفرنساوية وعددهم نحو سبعين مليوناً

وفي الوسط والغرب نوع التوتون وينقسم الى المانيين وسكنديناوة وانكليز وعددهم نحو ستين مليوناً وفي الشمال والشرق عائلة السلاو أي الصقالبة وتنقسم الى الروس والسلاف وعددهم سبعون مليوناً وإلى الفينوى والترك واليهود وغيرهم ويقربون من عشرين مليوناً وغالب اهل اوروبا يتدينون بدين النصرانية وهناك قليل من المسلمين واليهود وفي بعض بقاع صغيرة في جهتها الشمالية عباد اوثان واهل الجهة الجنوبية يبلغ عددهم نحو مائة مليون والروم بالجهة الشرقية وعددهم ستون مليوناً والبروتستان بالجهة الشمالية وعددهم خمسون مليوناً والمسلمون واليهود وغيرهم نحو عشرة ملايين

وأما جيوش الدول الاوروباوية فعددهم يقرب من مليونين من المقاتلين في وقت السلم ويصرف عليهم في العام ما يقرب من خمسي ايراد ممالكها

ثم انه خشي طول المجلس فقال وهذا الذي ذكرته في هذه الساعة انما هو على وجه الاجمال والاختصار وان شاء الله تعالى في مرة اخرى ابين لكما كل دولة على حدها فقال ابن الشيخ كنت اود ان توقفني على البحر المتبهد وكيفيته وهل يستطيع احد ان يقرب منه فقال الشيخ نجعل الكلام في ذلك بالعربية ثم قاموا وركبوا

المحاضرة (١٠١)

برهة في باريس

قال الشيخ اني ما خرجت مرة بهذه البلدة الا وعجبت من كبرها وكثرة اهلها وتتابع حركتهم ليلا ونهاراً وكان الشيخ يتضرر من سكناه داخل البلد لما يرى ويسمع دائماً من الحركات القوية والاصوات الانسانية والحوانية فان العربات ليلاً ونهاراً تمر وتكر فيكون لعجلاتها اصوات في تصادمها بالاحجار المفروشة في الطرقات

ولشبابك الدور والتصور والخوانيت ارتجاج من الارياح والفتح
والغلق وللسكاري واصحاب الالعاب والمحظوظ اصوات والحان
وذهاب واياب وكل ذلك يورث القلق وتشويش البال وتعطيل
الاشغال فقال ليعقوب لو سكنا خارج البلد لكان بنا اوفق وصحة
جسمنا اتقى وارفق فقال يعقوب رأي الشيخ في محله فان الخواجا
ايضاً متضرر من الاقامة بهذا المحل ولكن الذي الحجا الى الاقامة
به قربه من محل شغله واصحابه وقد وصف لي محلاً اوسع من هذا
يطل على حديقة وبينه وبين الشارع مسافة ولو كان عند الخواجا
خبر بتضرركم من هذا المحل لبادر الى القفلة وما تاخر فائني الشيخ
عليها ثم قال ان مدينة باريز لمن اعجب مدن الدنيا بما حوته من
الحاسن والزخارف والتحف واللطائف وثروة اهلها وحس
بنائها واظن ان عيشة الفقراء بها ضنكة لكثرة اهلها

فقال يعقوب ربما كان حال الفقير بها احسن منه بغيرها
فان اصحاب المال كما يعملون الاعمال العظيمة ليرجوا كثيراً
كذلك الفقراء لهم طرق متنوعة يصلون بها الى اقواتهم وتلذذاتهم
على حسب حالهم وفقراء كل مدينة على حسبها وكل ما كبرت
المدينة وزاد بها زهو الاغنيا كثر بها طرق معاش الفقراء
فانهم مع انتشارهم في الخدم والوظائف يتبعون اموراً كثيرة لا
يعلمها الا من دقق النظر اليهم مثلاً البواب لا يقتصر على وظيفته
بل يرى هو وعياله مشغولين بما يجلب لهم سعة المعاش فالرجل

يخسف النعال والمداسات والمرأة تخطط الثياب والبنت تغني
وتتعلم الغنا والولد يسحق اجزاء الملونات واذا تأملت تجد بالدروب
اناساً فقراء يجمعون من التراب والطين قطع حديد ومسامير ورجالاً
واطفالاً يمسحون مراكب الناس واخرين يقصون شعر الكلاب
واخرين يبيعون الكبريت والحلاوة او المشروبات للاطفال ومنهم
من ينادي على الملابس العتيقة ومن يبيع الرياحين واوراق
الحوادث والاعلانات وقطع اللعب داخل التيارات وهذه الامور
وان كانت في الظاهر قليلة الفائدة لكن كثيراً ما وصل بها
الفقراء الى ملك عقار ومال حتى عدوا من وجوه الناس واطن
انك رايت اناساً بالليل يجمعون الورق الملقى بالطرق والعظام
فقال نعم قال هذه امور يتعيش منها خلق كثيرون ويكسبون
منها قوت عيالهم وهناك طوائف كثيرة عيشتهم من التملق
والكذب والتجسس والخيانة ونحو ذلك مما يوجد في المدن
الكبيرة

فقال ابن الشيخ بالقاهرة كثير من الناس يجمعون فضلات
السجارات التي ترمي وياخذون منها الدخان وبيعهونه بالاسواق
ويقتاتون بثمرتها واخرون يجمعون قطع الزجاج وبيعهونها لمن
يصنعها اساور لفقراء النساء ونحو ذلك

فقال الشيخ ان الله سبحانه وتعالى يسر لعباده طرق الارزاق
وهو في الحقيقة الرزاق فجعل لكل مخلوق وجهاً يصل اليه منه

رزقه الذي تقوم به حياته فسبحان مسبب الاسباب وهو المعطي
 الوهاب فقال يعقوب مدينة باريز فضلاً عن كونها مركزاً للهو
 واللعب والحظ والطرب هي ايضاً مركز تجارة واسعة ترد اليها من
 جميع اطراف دولتها ومن جميع اقطار الدنيا وتصدر منها الى
 البقاع كافة فلا بقعة في الارض الا وترد اليها منها بضاعة نجدها
 مرغوبة لجميع الناس لاحكام صنعتها وحسن روثها وبهجتها فكل
 اهل اوروبا يرغبون فيها ولا يستغنون عنها وكذا اسيا وافريقيا
 وامريكا وجزائر الاوقيانوس فلذلك تعلق الباريزيون بالاشتغال
 بالصنائع واكثروا من الورش والمعامل فاتسعت دائرة تجارتهم
 فتراها بذلك منبع الصنائع اللطيفة والتحف المنيفة فليست تحت دولتها
 فقط بل تحت دول الكرة بتمامها

ثم قال ايها الشيخ قد صرنا خارج البلد فينبغي ان نصرف
 هذه الساعة في التروح والتنزه وان شاء الله تعالى ابين لك ما
 اشتملت عليه باريز من الصنائع وما فيها من الورش والمعامل
 وبيوت الاعمال فنظر الشيخ يمينا وشمالاً وقال ما الطف هذا النسيم
 شتان ما بينه وبين ما في داخل البلد فما هنا من مورث الصحة
 بسبب صفاء الهواء بقدر ما هناك من موجب المرض بسبب
 كدورة الهواء والعفونات فلنعم انت من انسان حيث جئت بنا
 الى هذا المكان ثم صار بكرر الالتفات يمينا وشمالاً نحو القصور
 فيجد بعضها بحافة الطريق والبعض بعيداً عنها وكل منها داخل

حديقة حسنة الشكل منظمة الوضع فيها من كل انواع الاشجار
 والازهار وكان يرى اودية بين القصور فيها البقول والخضراوات
 وتارة يجد ارضا متسعة كلها اشجار ملتفة وازهار مؤتلفة الا ان
 بعضها مرتفع وبعضها منخفض وفي بعض اماكن جبالا وهضبات
 مرتفعة متراكمة بعضها فوق بعض كطبقات الثوب وما نظر الى
 جهة الا رأى الشمس قد رسمت على سطحها صوراً مختلفة من
 ظل الصخور والاشجار التي بها فكانت الرياح بها تخفق والاعضان
 ببعضها تصفق وتخيل للشيخ في ذلك الوقت ان هناك موسيقى
 تضرب لما يسمعه من حفيف الاشجار وتغريد الاطيار وصياح
 البلابل وترنم العنادل وتارة كان يمتزج حفيف الشجر بخير
 الجداول والانهار وتغريد القماري والاطيار فتفكر الشيخ في محكم
 هذا الصنع وقال من تأمل لحركات هذه الاشجار قال انها منتهمة
 بالحياة في هذه الدار ولها شهوات كما للحيوانات فترى البعض
 يخضع ويتضع والبعض يعلو ويرتفع والبعض يتمايل وينعطف
 على غيره والبعض مطرب اضطراب المتعادين واخر
 ينضم انضمام المتحابين فكان الاعلقة والتحاب والتنافر والاجتناب كما
 يكون بين نوع الانسان يكون بين الطيور والاعضان فترى
 البعض كمن ذهب وقاره او اذاه جاره والبعض كمن افتقر بعد
 الغنا او فارقه خلاه حتى آل الى الغنا فيها المجدد عن اوراقه
 والمجروح باحنكائه الاخر فيه رخالي الجوف من طول معيشته

وخصوصاً اذا كان مجاوراً للقائم على ساقه المزدحم بغصونه واوراقه
ومنها كالمظهر للدلال يميل مع الريح حيث مال

وفيهما ما يحيط به شيء من جنسه وغير جنسه فهذا كمن
نال درج العز في هذه الدنيا فما من كبير او صغير الا ويدل على
عظمة الخالق اللطيف الخبير

وبينا هم كذلك اذ وصلوا الى عين ماء فنزلوا جميعاً ثم
قال يعقوب للفرنجي خذ هذه الدراهم وتوجه الى تلك اللوكاندة
وهي انا طعاماً فتوجه وفي الحال احضر لهم الطعام فقالوا به نحو
العين فاكلوا

ثم قال الشيخ ان النفس بهذا المكان قد انسبطت والابدان
من وخامة البلد قد نشطت وصار الذهن صافياً والوقت موافياً
فان تفضلت علينا وتلوت باقي قصتك كان حسناً

المسامرة (١٠٢)

نقمة. - كاتبة يعقوب وإخيه

فقال يعقوب نعم اني كنت ذكرت لحضرتكم اني بعد حضورى الى لوندرة وتمام ما كان من امر الدراهم التي كنت اودعتها عند زوجة القبطان قصدت البلد لانظر ماذا حصل لاختي في تلك المدة التي قضيتها في الاسر فدخلت قبل غروب الشمس فتوجهت الى منزل الست التي كنت انا واختي عندها فوجدت احوالها متغيرة ولم اجد احداً بالمنزل ممن كنت اعرفهم بل كلهم مستخدمون فسألتهم عن اختي فلم يفدني احد منهم شيئاً انما اخبرت بان صاحبة المنزل ماتت منذ ثلاث سنوات وقد باع زوجها منزلها وتوجه مع اخيه واولاده الى بلاد الهند فخرجت الى حانوث الجزمي معلمي فلما وقع نظره عليّ قام وعانقني واجلسني بجانبه ثم دار بيتنا الحديث

فسألني عما جرى فقصصت عليه قصتي بالاختصار ثم سأله عن اختي فقال هي وحدها في المكان الفلاني أخذته منذ سنة وصار يتأسف على ما نابني ويلومني على مخالفتي له ثم استأذنته في التوجه الى اختي فقام معي واخذ بيدي وسرنا حتى وصلنا البيت فسالنا زوجة البواب عن ثمة مسكنها فدللتني فصعدنا حتى وصلنا المكان وطرقت الباب ففتحت فلما وقع بصرها عليّ تعانقا والمعلم ينظر الينا ثم جلسنا وجلس المعلم معنا قليلاً ثم ودعنا وانصرف فقضينا غالب الليل نتحدث فيما وقع لنا من الحوادث فكان مما حدثني به ان قالت انها لما انقطع خبري عنها حزنت حزناً شديداً وكانت الست لمحبتها لها تصبرها وتسليها حتى البستها ثوب الصبر ولكن كانت تعزل الناس احياناً وتبكي عليّ واستمرت كذلك الى ان ماتت الست فخرجت من البيت ولم ترضَ بخدمة غيرها واخذت هذا المسكن وكانت ثقتان من صنعة الخياطة ولها مهارة فيها وكانت حلوة اللسان فألفها كثير من الناس وقدموها على غيرها من الخياطات فاتخذت لها حانوتاً جمعت فيه عدة من البنات وكانت تصرف عليهنّ فاكنتسبت من ذلك نحو ثلثائة جيه فقلت لما يا اختي لو جمعنا ما تحصلنا عليه لعشنا سوية في ارغد عيش وفرحت بذلك وبجئت على محل واسع واستاجرته لنا وصرنا معا فكنك اخرج معها بعد تمام اشغالنا نحو الغابات حول البلد وتارة نحو البلاد المجاورة واخرى في ارض الزراعة او في حارات البلد

فكنت اسمع منها عبارات حسنة عند ذكرها ما راته من الحوادث
وما عاتته من المشاق مدة الافتراق وفي الخلوات كانت تملأ قلبي
سروراً بانغام لطيفة تسمعني اياها ولكنها كانت اذا ذكرت مارات
من الحوادث وما قاست من الشدائد والم الفراق تدمع عينها
فاطيب خاطرها واسلها وكثيراً ما ارى على وجهها التغيير فاسالها
فلا تفيدني شيئاً وكانت في بعض الاوقات تذكر الترهيب وتمدحه
وتمدح العزلة عن الخلق وكثيراً ما قالت لي انت السبب في
حيي للبقاء في الدنيا فاسمع كلامها ولا افكر في معناه لكن لما تكررت
منها هذه العبارة في كثير من الاحيان خطر ببالي انها تخفي
عني بعض احوالها فكنت اكثر الاستفهام منها فلا تفيدني ومضى
علينا احد عشر شهراً ونحن على هذه الحال ثم بعد ان كانت تظهر
السرور احيانا اكثر من البكاء فكنت ادخل عليها بغتة فاجدها
تبكي بكاء شديداً فاذا راتني سكنت فداخلي الوسواس وضاق
صدري وزاد همي وفقدت راحتي حتى تمنيت الموت وعلى قدر
ما كنت ارغب في معرفة السبب كانت تجتهد في اخفائه عليّ
فصرت بهذه الاسباب اقضي غالب الايام سياحة في البلاد وفي
الغابات فكنت اغيب اسبوعين او اكثر واعود فلا اجدها تحولت
عن حالها حتى اعتراها الخمول وزاد مرضها فاستاذنتها في التوجه
الى لوندرة لافرج عن نفسي فتوجهت واقمت هناك
نحو اسبوعين ثم عدت فلم اجدها بالمنزل وسالت

عنها فقيل لي انها خرجت وما عادت فضت ذرعا من ذلك
 حتى كدت اقتل نفسي وتراكت علي مصائب الدهر ورايتني
 وحيداً كما كنت في بلاد الغربية فخطر ببالي الاخلط بالناس
 عسى ان تزول عني افكاري وتهون علي احزائي فلما اخلطت
 بهم تحققت خطاء ظني لما كنت اعانيه عند مخالطتهم من فساد
 افكارهم لاني كنت اذا تكلمت لا يسمعون مني وان اصغيت لقولهم
 فلا استفيد منهم شيئاً وجاهدت نفسي على ان اعودها الائتلاف
 بهم فلم يمكن فاحترت حيرة شديدة وضافت علي الارض بما رحبت
 واحببت ان اسكن جهة من البلد غير مطروقة واعيش فيها
 وحيداً عن الناس بعيداً وكانت تظهر لي ابتداء لذة العزلة عن
 الناس واذا اجتمعت بهم كاني في فلاة خالية منهم فلا التفت لما
 يفعلون ولا اصغي لما يتولون وكانت اكثر اوقات النهار تمضي وانا
 بالكيسة متفكراً في حوادث الدهر وكنت ارى فيها بعض نساء
 خاضعة خاشعة من خشية الله تعالى واخر يطلمن غفر ذنوبهن
 وبعد خروجهن يرى علي وجوههن السرور فكانت الشهوات
 البشرية تتلاطم امواجها خارج المعبد وتفتد في داخله ففي تلك
 اللحظات كنت اطلب الخلاص من احوال الدنيا بالموت ليطمئن
 قلبي وفي الغروب اتوجه نحو مسكني فاكثر النظر للشمس حين
 الغروب وللانجزة المتصاعدة باشعتها من المدينة فكانت تظهر لي
 كأنها تتأرجح في مائع من ذهب وفي الليل كنت امر من وسط

الحارات وانظر فيما حواليّ وانفكر في وجودي ببلدة مثل هذه كبيرة
ولا صاحب لي بها ولا حبيب ومن مبدأ عمري وانا في الفوان
الى هذا الان وبعد ما ظننت ان المهموم انقضت باجتماعي باختي
ساء في الدهر بفرقتها من خير ان تعلمني بمسئرها وما دريت ماذا
حسن لها ذلك مع علمها ان لا محب لها شيخي فكان ذلك بهيج
اشجاني ويزيد احزاني فحل بجسمي السم وزاد الألم فكنت بسبب ذلك
امضي الايام متفكراً ومن هذه الامور متخيلاً ثم طرأ عليّ في يوم ان
اذهب نحو النباتات واعتزل عن المخلوقات مدة الدهر الى انقضاء
العرف فذهبت الى ما اردت فوضعت عليّ العذاب امثلاً وزاد
البدن اضحلالاً وزاد بي الفكر واشتد عليّ الامر وقضيت مدة
طويلة على هذه الحال فكنت اقيم في النابتة تارة واسبح فوق رؤوس
الجبال اخرى لا اري غير السحاب ولا اسمع غير الرعد وكنت اري
الفرى على بعد كأنها تنقط سود حولها دخان وانفكر في الرعاة
والزراع حين رؤيتني لم على بعد فاقبل ما من احد منهم الا وله
الف يترقب توده وقلب يحن له حين يجتمع به فكل منهم له امر يهمه
وانت يا يعتري حكم عليك التاهر بالذلة وكيف تطلب الراحة
بها مع انك لم تجدها فيها وماذا عليك اذا اقتديت بغيرك ورجعت
الى العمران واخترت من النساء امرأة تنضي زمك معها وتشغل
بامر تعيش منه وربما رزقت باولاد تفرح بهم وتزول بهم عنك هذه
المهموم فكنت ارتاح بتلك الافكار ثم بعد قليل اقول اي انسان

يرضى باعطائك ابنته ولا حسب لك ولا نسب لا سباً وهم يعرفون
اصلك ومحل تربيتك وعلى فرض وجود من يرضى بك فمن
يكفل لك دوام المعاشرة واستمرار المودة وكيف اطمن الى معاشره
الناس مع ان ما حصل من اختي شقيقتي شاهد بعدم بقاء المودة
بيني وبينهم وهل احد اقرب الي من اختي ثم تكرر علي الافكار المحزنة
بجوشها حتى اقول ان كانت الحياة هكذا فالموت احسن من الحياة
وجمع الاموال بمقاساة الاهوال فكنت متردداً غريباً في بजार الافكار
لا اقف عند رأي ارتضيه واذا وقفت تغير لوقته فصرت كسفينة
في لجة تسير مع كل هواء هب وموج دب وكلما تأملت احوال
المخلوق سئمت عشرتهم وانقضت الفتهم وفي بعض الاحيان كنت
الوم نفسي واقول ما من احد الا وله امر يهيمه ولا بد من
مرور هموم الدنيا على كل احد فلا صغير ولا كبير ولا حقير ولا
امير الا ويلقته امور تذكره فيلزمه ان يستعد لها ويصبر عند نزولها
وعلى العاقل ان يسير مع الناس في طباعهم واخلاقهم وليس له ان
يحكم على الناس بطبعه فينبغي لك ان تلتزم بالخطأ في امورك وتنزع
ثياب العزلة والحزن عنك فكنت ارجع الى البلد واخالط الناس
مجتهداً في موافقتهم والسير حسب طباعهم فعزم عليّ معلمي بالاقامة
عنده لما بلغه خبر اختي قتلت له ان ضعف قرّني وشغل فكري
يمنعان من ذلك ووعده اني ان اقيمت في البلد لا اجعل اقامتي الا
معك فكنت اتردد عليه احياناً وهو يوادني ومضى نحو اربعة اشهر

على ذلك وأنا غير مشغول بامر وفي تلك المدة ما تركت بلدة الا
ذهبت اليها لاستخبر عن اختي وبسبب انها كانت تخبرني بحب
الرهبانية ظننت انها تكون في احد الديورة فطفت على جميعها فلم
اقف لها على خبر ولم اشتر لها باثر والعجب اني ما سمعت بخبرها من
احد من اهل البلد وكانها قد ابتلعتها النبراء او اخطفها النسور
الى السماء ثم دخلت المسكن ذات يوم بعد عودي من لوندرة وكنت
فارقه من مدة خمسة عشر يوماً فوجدت على الطاولة مظروفا
ففضضته فوجدته من اختي فطار لي وخفقت بلابل قلبي فقراته
فاذا فيه

أخي وعزيزي وقرة عيني الله يشهد على ما بقلبي من حيي لك
ولو ملكك بذل روعي لتكون زيادة في عمرك لفعلت وارغب ان
اصرف جميع طيباتي في جلب السرور لك ولكي حتمرة ذليلة وقد
قاسيت من ذهري ما لا يقاس به غيري وهذا سبب فراقتي لك واخيارني
الرهبانية والعزلة ما دمت حية فارجوك الصغ عما حصل مني في
خروحي عنك وانفصالي منك بدون علمك ربما بعثني على ذلك
الا خوف منعك لي عما سينج بفكري مع تصميحي عليه وطيران قلبي
اليه وانت تعلم ببيلي للرهبانية ونعلم اني ليس لي راحة في سواها فعذري
قائم لديك وحالي لا يخفى عليك وقد علمت ببيلي للرهبانية ومن
وقت خروحي من عندك الى الان وانا في الدبر الفلاني وقد اخترته
على غيره لما فيه من الراحة لي لحسن موقعه وكثرة مزاياه ولي خلوة

اتعبد فيها متى دخلتها كان البحر تحت نظري وامواجه توائس
 وحشتي وتذهب الم وحدني وموقع هذا الدير فوق الجبل بعيد
 عن كل طريق والنباتات محيطة به يذكرني الايام التي مضت علينا
 في الاجتماع مع الهناء والسرور فافرج بذلك كرتي ويكنيك مني
 معرفتك قدر حيي لك واني ما اخترت العزلة الالراحتك ولو عرفت
 فائدة في معرفتك الاسباب الموجبة لذلك لعرفتك اناها ولكن
 معرفتها لا تزيدك الا كربا على كربك وهما على هلك وقد حررت
 لك كتابي هذا بدموع عيني فارحوك قرآته بعين الرضى عني فهي
 عن كل عيب كليلة ومع كل هذا فلاحيلة في حكم القادر فارحوك
 ان تصفح عني الصفع الجميل وتقبل عذري ولا تنيب ظني فبارحوت
 فقلب اخذك بالدين اكنوى وازداد به الم الجوى وارجوك ان
 لا تتعزل عن الناس وان تتزوج لك امرأة تقوم بشأنك لتزول
 عنك الاكدار واذا تزوجت بامرأة فيرجى ان ترزق منها بالذرية
 التي بها يكون سرورك ثم اني ما اتممت قراءة هذا الكتاب الا
 وقلبي في خفتان واضطراب فقلت في نفسي ما هذا السر الذي
 تخفيه عني واوجب مفارقتها لذة الدنيا مع حداثة سننها ولاي شيء
 دفنت نفسها بالحياة فلا بد لذلك من شان عظيم وخطب
 جسيم ثم فتحت الكتاب وقرأته نائيا وقلت ربما يكون فاتني شيء
 منه اول مرة لم افهم معناه فلم افهم منه اكثر مما فهمت اولاً انما يلوح
 من الفاظه صورة محزنة فهمت منها انها ربما احبت انساناً وتغلى عنها

او تحققت عدم الوصول اليه بوجه حل اما نظراً لمخالها او حاله وقوي هذا عندي بامور تذكرتها كت اراها منها من ذلك انها كانت تكتب مكاتيب وترساها مجتمدة في اخفاءها عني وقد قوي عندي هذا الخن حتى حاولت صرعه فلم ينصرف فاخذت ورقة وسطرت فيها ما يتضمن استعطافها ورجاوي منها ان تسمع لي بشرح حقيقة امرها ولحمت لها بما خطر بفكري لكن بلطف وارسلته بالبوسطة فلم يرض غير قليل الا وورد منها افادة لم تغدني بها شيئاً غير نهيبها لي عن العزلة وتحريضي على الانس بالناس والمحت عليّ بالزواج فعند ذلك عزمتم على التوجه اليها وافعل ما يمكنني في نهيبها وردعها عما هي فيه لعلها تسمع مني فسرت اليها بعد جمع ما بقي من الدراهم فلما وصلت الى الدير سألت عنها فقيل لي انها لا تكلم احداً فكتبت لها مكتوباً فافادتني في رده انها اعدت نفسها لخدمة المسبح ولس معها وقت تشتغل فيه بامور الدنيا

ومن ضمن كتابها انها قالت ان كنت تعزني حقيقة وتحب لي الخير فلا تشغلني عن التوجه الى الرب والتجرد عن الاشغال بالمخات فان روءيتك لي تشغلني عن العبادة نعم ان رضيت ان تكون لي والدّاً يوم الاستراف كما هو الاوفق بمروءتك اذنت لك لك بالدخول عليّ فعميت من صدور تلك العبارات عنها مع علمها بما عندي من الحزن عليها وغرقت في بحر فكري فكنت تارة اقول ينبغي الرجوع حالا وتارة اقيم هنا حتي انظرها وتارة اقول

اقتل نفسي وقت دخولها الكنيسة مع الرهبان فاربح نفسي من
 تلك الاموال واحرق قلبها وانص عيشها كما احرق كبدي
 وكدرت صفوي ونصت علي عيشي حيث دفنت نفسها بالحياة
 وبيننا انا كذلك جآني خبر من رئيسة الدير بانها قد اعدت
 لنا دكة نجلس عليها يوم المحضر وهو اليوم القابل فاقمت بقية اليوم
 والليلة بتمامها كأني اقلب على جمر النضا حتى اسفر الفجر فقممت
 الى باب المعبد الذي هي فيه فوجدت هناك خلأ كثيرين فوقفت
 معهم فجاء رجل واخذ بيدي واجلسني على الدكة قريب المحراب
 فصرت اقلب نظري بيننا وشمالا ثم بعد برهة فتح باب صغير
 فخرجت منه اختي وعلمها من الجمال وثياب الزينة ما لا يوصف
 فسيت عند ذلك همومي واستراني من الخشوع وتعظيم الدين ما
 لم يكن من قبل وكنت انظر اليها بعين العتبة والتعظيم وهي
 تخطروا القسيسون حولها حتى اجلسوها تحت مظلة ثم تجرد احد
 القسيسين عن زيتته وابقى عليه ثوب كتان وصعد المنبر وخطب
 خطبة قصيرة ذكر فيها سعادة البكر التي حضرت ووهبت نفسها
 لخدمة المسيح وفي الحال نضوت الروائح الزكية من جميع جهات
 المعبد وكانت الناس تطلب النظر من القسيس اليها ومنها اليه
 ثم نزل من فوق المنبر ولبس ثيابه الرسمية وامر بتبني فأتنا
 باختي الى اخر درجة من المحراب فهناك جثت على ركبتيها ثم
 دتوني لأودي واجبات الابوة فتمثلت بين يدي القسيس

لاناولة المقص فرجع حيثئذ ما كنت ظننت زواله وعظم عندي
الكرب وظهر لي انها لم تمالك نفسها بل كادت ان ينشئ عليها
الا انها نظرت اليّ نظرة معذرة متباد فهدت وداخلني خشوع
ثم اجري المتص على راسها فزال شعرها الذي كان يسترها اذا
نشرتة ويلحق الارض اذا ارسلته ثم اتى لها بثوب من صوف
فلبسته وبخار فذات به راسها ووجهها وبرداء من كتان
فتردت به

وحيث كان خروجها من الدنيا وزهدها فيها لا يتم ولا
يكمل الا بصورة موتها ودفنها كالميت الحقيقي التت نفسها على
الرخام كالميت فكفونها ووضعوا حولها اربع شعات وقد اخذ
التسيس الكتاب وهو بلباسه الرسمية والرهبان مخفون به وكنت
حيثئذ قريباً منها حريصاً على معرفة جميع ما يحصل من الحركات
فسمعت صوتاً خفياً من داخل الكفن وصل الى اذني ولم يسمعه
غيري والفاظه يا اله العالمين رب السماوات والارضين ان
تجعل هذه اللحظة آخر عمري حتى لا اقوم من موضعي وان تصب
على اخي الذي لم يقاسمني فيما جنيت من الخطيئة الصبر فبطمن قلبه
ويعيش عيشة مرضية فلما سمعت منها ذلك اتراني اضطراب
فوقعت على اختي فقلت يا عروس المسيح يصغ الرب عنك حيث
تركني وحيداً اكابد تنغيص الايام فاضطرب من بالكنيسة ما
فعلت وصاحوا بي فاخذت مغشياً عليّ ولما افقت وجدت الامر قد

قضي وقد لحق اخني من الحمى ما لحقها وجعلوا يطلبون مني ان
لا ابحث عن لقاءها فعمّرت ذلك عليّ وخرجت لا ادري اين اتوجه
فدخلت غابة وصرت افكر فيها حصل لي ولها من الحوادث ثم قلت
في نفسي ليس لك الا مفارقة هذه الارض فانه لم يبق لك فيها ما
يوجب اقامتك بها وانما انتظرت شفاء اختي لاردعها فبقيت نحو خمسة
عشر يوماً استنشقت اخبارها فتارة كانت تبغني وتارة لا ثم بلغني
خبر موتها

قال راوي الحديث فعند ذلك هطلت عينا يعقوب بالدموع
واخذته حالة الملموع لما ذكر موت اخيه وشقيقة روحه
فقال له الشيخ

كل ابن انثى وان طالت سلامته

يوماً على آفةٍ حدياً محمول

ومعلوم ان ما جرى لكما يجري لشير كما فتزود الصر تفز بالاجر
وكيف تجزع وقد طفت البلاد واعطيت غنائاً وافراً فهل رأيت
حياً لا يموت واعلم ان الحوادث للرجال كالحمك للذهب وسترزق
راحة ينعم بها مالك وتحسن بها حالك

فقال يعقوب ان في صحيفتي لكم عرضاً من كل فائت فاني
منذ اجتمعت بحضرته هداً روعي فارجو ان لا يفرق الله بينا وان
يجعل اخر حياتي بين يدي حضرته وقد عزمتم على ان اقيم
بارض مصر

المسامرة (١٠٢)

البورصة

فقال الشيخ هذا ما يسرني وهي نية خير وتحقيقها سهل فعن قريب نعود وتكون معنا خصوصاً وحضرة الخوجا يعزك كثيراً وكان الوقت قد قرب فقال الشيخ نحن مدعوون الليلة عند صاحبنا النلياني ريلزينا الذهاب اليه وفي وقت اخر تم لنا اخبار حوادثك فقاموا وركبوا حتى دخلوا المدينة فلما وصلوا منزلهم وجدوا تذكرة كتبها الخوجا النلياني وتركها على الطاولة مضمونها اني حضرت لزيارتكم فلم اجدكم وعن قريب اعود وان حضرة الخوجا الانكليزي ارسل لنا تذكرة يعتذر فيها عن الحضور لامر منعه وساعد قبيل المغرب لاشرف بكم وتسبرون معي الى بيتي فاخبر الشيخ ينقوب وولده بذلك فاخذوا ينهيان للتوجه واذا بالرجل النلياني قد

حضر فقال إن جملة من الاحبآ دعوتهم مع حضرتكم وها انا قد حضرت حسب ما اخبرت جنابكم في الذكرة فقاموا جميعاً وركبوا عربة ثم ساروا فمروا بسرابة مشيدة البناء مزخرفة الارجاء حولها اناس كثيرون في حركة عظيمة

فقال الشيخ ما هذا المكان فقال الخواجا هذا المكان يسمى البورسة اي بيت المصارفة واعمال التجارة بين باريز وجميع جهات المملكة وبينها وبين جميع ممالك اوروبا والمشرق وامريكا فهو مكان تجتمع فيه الصيارفة الكبار والساسة وعطاء التجار وهومن ضمن العمارات العظيمة التي تتباهى بها باريز ويتبغى رؤيتها والنظر للجاري بين الناس فيها فقال الشيخ لعلنا ننظره في يوم غير هذا ان كان هناك اذن بالدخول فقال الخواجا ان دخوله مباح لجميع الناس وامر هذا المكان عيب واصطلاح اهله في تخاطبهم غريب فمن لم يعرف اصطلاحات الصيارفة المنفق عليها فيما بينهم يظن انهم ليسوا من اهل باريز لان لم لسانا خاصا بهم يتكلمون به فيما بينهم وبين علامتهم ولا يعرفه غيرهم وهناك ازدحام شديد وللانفاظ تصادم قوي ينشأ عنه دوي هائل بحيث يمنع الطارىء عن فهم معاني الالفاظ لاخلاطها وعدم تميزها

وما يزيد الانسان تعجبا انه لا يوجد هناك غير الكلام واما المبادلة وقبض الدراهم فشيء نادر ومن يتأمل في احوال اهله ويمعن النظر فيهم يرى البعض منهم مسروراً والبعض بالحزن

مغموراً والبعض يقرب من الحيرة كفيه ويتف شعراً لحيتته ومنهم
 المتفكر ومنهم من يضرب ويجمع ومنهم من لا يستقر في موضع
 بل يطوف وإلى ما بدا منه يرجع وإسناد ذلك كله حب الدرهم
 والدنار فانها يفعلان بالعقول ما لا تفعله الخمر فزهد ماله
 غاب عقله وساءت حاله ومن ربح تمت مآربه وصفت مشاريه
 فيلزم من يريد الدخول في زمرة ان يكون خيراً بمعاني الفاضل
 وكيفية معاملاتهم وعلى يقين من معارفهم وحيلهم وطرق حسابهم
 واصطلاحات ساستهم وعوائد خاصتهم وعامتهم والا فلا بد ان
 يقع في شباك مكائدهم وحبال مصائدهم

فقال الشيخ ان بالفاخرة مكاناً له شبه قليل بهذا يقال له
 حارة اليهود فيه كثير من الصيارفة والمرايين ففي بعض ايام السنة
 تزدهم عليهم الخلق الواردون من الارياك وغيرها اما للاقتراض
 او للتسديد او لتغيير المواعيد فهم يتجرون في غفلة العالم ويغتمون
 فرص الاحياج فيحملون الخلق انتقال الربا ومن حرصهم لا يقرضون
 الا برهن او ضمانة وبكثرة ما يطلبونه على كل مائة يرى كثير من
 الناس قد آل امره الى بيع مآرهنه ولحقته الفاقه وليس ثياب الابل
 بعد العزوف في بعض الاحيان يطالب الكفيل والمكفول معاً فكيف
 من متأوه من هذه الطائفة والعجب ان الرباء محرم في الشريعة
 الاسلامية ومع هذا لم يبق من الناس في هذا العصر فقير ولا غني
 الا وهو واقع فيه ومن كثرة التعمد عليه صار كأنه من الامور

الجائزة بل ربما يرى ذلك بعض الناس انه من فعل الخيرات
وازالة الضرورات ويرون الامتناع منه من المحرج والنضيق على
العباد وتعطيل الارزاق

فقال الخوجا التلياني ايها الاستاذ ان الجاري بهذا المكان ليس
كالجاري بمحارة اليهود بمصر لان المعاملة في هذا المكان خاصة
بالشركة التجارية ليس غير

واما المعاملة بالفائدة والمصارفة فمخصوصة بالبنوك ومن
ذلك حارة اليهود واما هنا فانه اذا فرض ان بعض الناس رغبوا
في الشركة في عمل شيء تبلغ تكاليفه زيادة عن قدرتهم استأذنوا
عنه الحكومة ومتى تحصلوا على الاذن عين المجلس قيمة السهم في
هذه الشركة ثم تعطى الاسهم لاحد مأموري الاعمال لان هناك
اشخاصاً معينين بامر الحكومة يقال لهم مأمورو الاستبدال فيثبتون
ينادون عليه فكل من رغب في قدر اخذه وربما حضر اقوام بعد
توزيع الاسهم يطلبون الاخذ بزيادة عن المتدار ظناً منهم رواج
الامر فيشترون بازيد وهذه الاسهم كالبيضائع التجارية تباع
وتشترى وتغلو وترخص حسب ما يعتبر الامر المشترك
فيه

واما الجاري بمحارة اليهود عندهم وعند الصيارفة على العموم
فهو مبادلة القود بغيرها فكل منهم تراه ينتهز الفرصة فيجعل القيمة
على حسب ما يراه من الاحتياج فاذا رأى مضطراً اطعمه وزاد

في اكرامه وسهل له امر الربح ليرغب في معاملته فان لم يتفطن
المضطر لمكره وقع في حبالته وكلما ازداد عليه الدين طمع فيه وازداد
في الربح واجتهد في الاستحواذ على حجب املاكه فاذا علم ان ما في
ذمته صار قريباً من ربع قيمة املاكه او ثلثها امتنع عن اعطائه
وسلك به طرق العسف فيشكوه ويترافع معه في مجال الحكومة
الى ان يؤل الحال الى الحكم عليه ببيع ملكه لسداد المطلوب منه
رأس مال وربحاً وقل ان يبقى للمدين شيء من ثمن ملكه فهذه
حالة فظيعة يجب البحث على الطرق المخلصة منها لاستدائها
خسارة كبيرة فان اقل الفرط عندكم اثني عشر في المائة كل عام
مع انه ضعف الفائدة ببلادنا اذا غلا سعر القود فان المعتاد
عندنا اربعة او خمسة او ستة في المائة وفي بلاد الانكليز من اثنين
الى ثلاثة واذا غلا السعر يبلغ اربعة على انهم يضجون اذا صارت
الاسعار هكذا او يعدون هذا الامر من اعظم الحوادث التي يكثر
فيها القبل والقال وقد سمعت ممن اثق به ان فرط المائة في
الشهر الواحد قد يبلغ بالقاهرة ثلاثة او اربعة اعني زيادة عما
يحصل بلوندره اثني عشر مرة بل اكثر ولا شك ان ذلك
من اعظم الضرر وتسديده في غاية العسر لان الفرط اذا كان
في كل شهر اربعة بالمائة يكون ثمانية واربعين في السنة فاذا اخذ
الحجاج مائة فانه يكتب عليه سنداً بضعفها تقريباً لانهم يعطونه من
المائة اثنين وخمسين ويقطعون منه الباقي وهو ثمانية واربعون

في نظير الفائدة ويكتبون عليه السند بالمائة بتمامها فاذا طلب مائتين فانه يتطع مائة واربعة فقط ويكتب عليه السند بمائتين وهكذا اذا طلب الفا واكثر فمن ابن يسهل السداد على المتترض سواء كان تاجرا او زراعاً فالصيارفة اذا ببلاد المشرق من اكبر المصائب ودوامهم على ذلك يوجب سلب نعمة الاهالي بل بعض التجار والصيارفة يستعملون طريقاً قبيحاً من علو امر الفرط وهو انهم يترقبون الوقت الذي هو قبل خرج المحصول فيسعون الارزاق بشمن بخس فيأتي المضطر فيأخذ منهم نقوداً بقدر معين من المحصول على حسب تسعيرهم وقد يسعون فنطار القطن مثلاً بجنهين فيأخذ الطالب مثلاً مائة جنيه فيكتبون عليه خمسين قنطاراً يومئذ بها بهذا السعر بعد شهر مثلاً فاءذا جاء الوقت طلبوه بها فيأخذون ما راج لهم منها ثم يكتبون ما يبقى عليه في سند جديد بقيمة وقت التسديد مع اضافة الفرط في نظير صبرهم الى العام التالي وهكذا يفعلون معه في كل عام بهذه الطريقة فيبقى الشخص دائماً مكبلاً في اغلال قيود الدين مطالباً بنفس المبلغ الاصلي بل باكثر منه وما دفعه من المحصول كأنه ربح المال وفي كل عام يفعل الصراف حسب ما يرغب فتارة يقلبه من صنف الى اخر وتارة يجعله نقدية في ذمته والفلاح لا يعارض في ذلك لاحتياجه وتراكم المطلوبات عليه للميري والاهالي والعيال وليس في امكانه التخلص لعدم اقتداره على التسديد فيبقى كالاجير عنده

بالأكل ليس غير وقد شاهدت ذلك بنفسي مذ كنت ببلاد الشام والترك ولا فرق بين التجاري هناك وعندكم ورأيت من العالم جميعاً الضيق من ذلك ويتنون زواله وانتظامه فعلى المحكام وولاة الأمور النظر في ذلك ومنعه والبحث عن أعمال الطرق التي يستقيم بها امر المعاملة بين الناس ونجح بها مساعيهم في زراعتهم وتجاراتهم

وفي الأزمان الماضية كان المرانون يفعلون ببلادنا كنعلم الان ببلادكم لكن الحكومة التفتت لهذا الامر وربطت فيه معينة للثغرة لا يتعدها احد وكل من تعدى عد مرايا وعوقب على مقتضى القانون فمحدث نيران اهل الربا الا انهم لم يتقطعوا بالكلية وبقي السفهاء والمسرغون يترددون عليهم لكن لا يقع ذلك ببلادنا الا سرا اما التجارة والسلف العامة فجميعه في البرصة فيقف الانسان على سعر كل يوم بل كل وقت بسبب الاخبار والحوادث التي ترد بالتلفراف يوميا فلا يحصل ضرر ولا غدر كما يحصل اذا كان الامر منه للصراف في حانوته او بيته بدون معرفة بالحوادث اليومية ولم تظهر البرصة بباريز الا سنة ١٥٦٢ ميلادية بامر الملك شارل التاسع فكان اول مجلس عند للنظر في حال التجارة في سرية الحثانية ولكن في سنة ١٧٢٠ تعين مكان مخصوص صنع من خشب موقفاً باحدى زوايا جنيئة سرية سواسون التي محيت وكانت معدة لسكن افراد من العائلة الملوكية وصار الناس يعاملون باوراق

الحكومة وكان في تلك الايام لا يفتح هذا المكان للمعاملة الا ثلاث ساعات قبل الزوال وساعتين بعده ما عدا ايام الاعياد والمواسم وترتبت بوسطة عسكرية للمحافظة عليه وضبطه ولما كثرت حركة العالم اليه وتوجيه همهم نحوه واخذت تظهر به مشاجرات استوجب ذلك مداخلة العساكر فيه لفصل ما يحدث به من المشكلات ثم صار يزداد فامرت الحكومة بابطاله ومنع تجمع الناس بالطرق لهذا الشأن ورتبت قصاصاً على من يخالف الامر ويقع ذلك الطريق للمني عنه فجعلت جزاء التغريم الجسيم فضلاً عن السجن الطويل وعينت ستين حرافاً يتوزعون في نواحي البلد بلا حرج عليهم وانما المخرج والجزاء على غيرهم في الاوامر بان من تجرأ غرم تغريباً عظيماً ومع هذا فكانت الناس تتجرأ على هذا خفية فعوقب منهم كثيرون

ولما انثر الناس الشكوى للحكومة وطلبوا فتح البصرة فتحت سنة ١٧٣٤ وعينت لوكندة تسمى لوكندة مزران وشيدوها وزينوا واجهتها سنة ١٧٨٤ فكانت الميمنة والسامرة يقيمون بدورها الارضي ومدة بونابرت الاول نقلت الى احدى الكنائس ثم نقلت منها الى السراية المملوكية وعادت الكنيسة الى اصلها وفي سنة ١٨١٧ بنيت هذه السراية التي رأتها وخصصت لذلك وبنائها على متسع من الارض قدره ثلاثة الاف وخمسمائة متر وطولها اثنان وسبعون متراً وعرضها خمسون متراً والدور الارضي به المحاصيل ومحال

المشروبات وبها ديوان متسع طوله اثنان وثلاثون متراً وعرضه ثمانية عشر وفي اخره فسحة عظيمة تسع من التجار الفا يتعاطون الامور التجارية وبالديوان شباك من حديد والصيارفة تجتمع في محل بالدور الاول للمداولة في امر التجارة وغيرها وفيه اماكن معدة لديوان التجار ثم زاد هذا المكان اعتبارا وترى الان فيه زيادة عن امر الاقتراض المشاركة في عمل سكك الحديد واستخراج المعادن وفتح الورش الحسيمة ونحو ذلك من الامور النافعة التي تسع بها دائرة الثروة وفي سنة ١٨٥٢ جعل على كل من دخله فرنك واحد فتقص المترددون عليه واشتكى من ذلك البنوك والصيارفة والتزموا لمدينة باريز مبلغ سبعمائة وخمسين الف فرنك على ابطال ذلك فلم يقبل منهم

وقد احصى عدد من يدخل البُرصة كل يوم فوجد من ثلاثة الاف الى اربعة الاف وتحصل منه سنة ١٨٥٧ مليون ومائة الف فرنك

وبالجملة ففوائد هذا المكان كثيرة جداً وبيان الجاري فيه يحتاج لمعرفة امور شتى لكن لا وقت لذلك فانا وصلنا المنزل ولا بد ان اذهب مع حضرتكم بكرة غدٍ واطلعكم على احواله

المسامرة (١٠٤)

بيت الكتب

ثم وقفت العربية فنزلوا ومضى بهم الخواجا الى البيت فصعدوا على درج حتى وصلوا الدور الاعلى فوجدوا فسحة متسعة وبها صاحبة المنزل ققامت وقابلت الشيخ وكان رئيس الجمعية المشرقية هناك فقام له واستقبله ثم قال ان التلامذة يثنون بكل لسان على الشيخ بما حصل لهم من الفائدة وقد تمنيت على حضرتكم مجلساً يعقد كل يوم اثنين حيث تكون الساعة الثانية بعد الظهر فقال الشيخ لا مانع ثم جاء المدعوون واحداً اثر واحد وجماعة عقب جماعة حتى تكاملوا وتعرف الكثير منهم بالشيخ وصاروا يحبونه ويظهرون السرور به فسر الشيخ بذلك سروراً عظيماً واستأنس بهم كانه بيت احد اصحابه بمصر فان جميعهم كانوا محدقين به يتذاكرون معه في فنون العربية على اختلافها فكان هذا يساله عن معان لغوية وهذا يسأله عن قواعد نحوية وهذا عن حادثة

تاريخية وآخر يطلب منه معنى بيت شعر وهو يحبهم ويزيد لهم في
 الفوائد وبيناهم يتفكحون وفي فنون العلم يتنقلون اذ دعوا للطعام
 فقاموا جميعا الى الاكل فتعاطى كل بحسب طاقته وكان في الطعام
 بعض الفواكه فقال بعض الحاضرين أنبدا بالفاكهة ام نؤخرها
 فقال الشيخ ان للشيخ الاجهوري في ذلك نظماً جميلاً بين فيه
 ما يقدم على الطعام من الفاكهة وما يتاخر وما يكون وسطاً
 حيث قال

قدم على الطعام توناخوخا .

ومشمشاً والتين والبطيخا

وبعده الاجاص كمثرى عنب

كذلك تفاح ومثله الرطب

ومعه الخيار والجميز

قنا ورمان كذاك الجوز

فتلقوا منه تلك الابيات بالتبول وكانوا يسرعون لحفظ
 ما يقول وتم بينهم مجلس الاكل في تلك المحادثة ثم عادوا الى
 الديوان الذي كانوا به فجلس الشيخ وولده ورئيس الجمعية
 بجانبه ومن رغب في المشي تمشى مع صاحبه او صاحبه فجاءهم
 صاحب البيت وجلس معهم ثم بعد ان دار الحديث بينهم قال
 اني منذ كنت بمرسيليا وعدت حضرة الاستاذ ان اريه خزانة كتيبي
 واطلعه علي ما احتوت عليه

فقال الشيخ ونحن لذلك متظرون وللوفاء بالوعد
متشوقون فقال تفضلوا بنا ان شئتم ثم قام ومعه الشيخ والرئيس
فادخلهم من باب في وسط الديوان الى مكان متناسب الابعاد
يقرب من التربع وفي جميع جهاته غير الباب دواليب محكمة
الصناعة من خشب جوز الهند الاسود وعلى ابوابها رسوم من
النحاس لطيفة مختلفة الاوضاع والاشكال وفي تلك الدواليب
كتب محبوبة مرصوفة صفوفا متناسقة كل صنف على حدته
مع النظافة للمكان بما فيه والرونق الذي يسر الناظر وارضه مفروشة
ببساط فحمي اللون وسقفه منقوش بابدع النقش وفيه من عجب الصور
ما يدهش الفكر ويسر النظر وفي وسط مكان الكتب طاولة
من جنس خشب الدواليب وعليها كل ما يلزم من ادوات
الكتابة مع بعض كتب فاعجب الشيخ ذلك النظام وما بتلك
الكتبخانة من المحسن مع الاحكام فقال يندر وجود مثل هذه في
بلاد المشرق وانها لشبه كتبخانات الملوك فقال الخواجا كيف
لو رأيت خزنة الرئيس فان بها قدر ما في هذه مرتين او اكثر
واما هذه فارى ما بها ليس الا ثلاثة الاف ومائتي كتاب فقال
الرئيس خزنتي وان كانت اكبر لكن ليس لها من الرونق
والاثقان ما لهذه واغلبها ورثته عن ابي وجدي فقال صاحب البيت
بل هي اجمل واجل لان بها من الكتب ما لا يوجد في غيرها
فقال الشيخ اذا لا بد انها لا تخلو من كتب غريبة فقال نعم ثم

التفت نحو الجهة الشرقية من الكتبخانة وقال جميع ما في هذه
الدوايب كتب مشرقية وهي كما ترى ثلاثة اقسام فهذا للكتب
العربية وهو اكبرها وهذا للفارسية وهذا للتركية وقد رتبته خزائني
هذه حسب النسخة الاصلية فالجانب الغربي فيه من الكتب ما
يتعلق باوروبا والجانب الجنوبي فيه ما يتعلق بامريكا وجزائر
المحيط والشمالي فيه ما تيسر جمعه من الكتب التاريخية والفنون
الادبية حسب اقتداري وجعلت كل فرع على حدته ورتبته كما
ترى على حروف الهجاء فاذا اردت اي كتاب اطلعت على الدفتر
فعرفت نمرة وحرفته فقال الشيخ ما الذي فيها من الكتب العربية
فاخذ الدفتر وقرأ له اولاً كتب التفسير فاذا فيها تفسير ابن
عباس وتفسير ابن عبد السلام وتفسير ابن جريج وتفسير ابن
المجوزي وتفسير ابن بركان وتفسير ابن ابي شيبه وتفسير ابي
النضيا وتفسير ابن جرير وتفسير ابن ابي حاتم وتفسير ابن فورك
وتفسير ابن ماجه وتفسير ابن المنذر وتفسير ابي الحسن وتفسير
ابي ذرّ وتفسير ابي طالب الكرمانى وتفسير ابن مردويه وتفسير
الاخوين وطوالع الانوار وتفسير الاردبيلي وتفسير الاسفراييني
وتفسير اكمل الدين وتفسير البقاعي المسمى بنظم الدرر في تناسب
الآي والسور وتفسير ابن النقيب وتفسير ابن عبدوس وتفسير
الحامى وتفسير حجة الافاضل وتفسير ابن جماعة
ومن الحديث كتاب فمح الباري شرح البخاري والعيني شرح

البخاري والسندي شرح مسلم الحلية لابي نعيم والفردوس للدلي
والسنن لابن ماجه ومسانيد الائمة ومشكاة المصابيح للملا علي قاري
ومشارك الانوار للصاغاني

ومن التوحيد كتاب اباكار الافكار واحلى المواهب وتبصرة
الادلة والتسديد شرح التمهيد وتأسيس التقديس ورموز الكوز
وزبدة الكلام وعمدة النظر والفوز بالسعادة ومفتاح الغرر
ومدارك العلوم ومشارك النور ونهاية المنقول وهداية الهادي
ومن الفتاوي في مذهب ابي حنيفة فتاوي ركن الدين
الكرماني وفتاوي احمد بن عبدالله البلخي وفتاوي امين الدين محمد
بن المتعالي المصري وفتاوي بدع الدين وفتاوي حسام الدين وفتاوي
الحنفية لسعد الدين التفتازاني

ومن الفتاوي في مذهب الشافعي فتاوي ابن ابي عصرون
فقيه الشام وفتاوي الحداد وفتاوي ابن رزين وفتاوي ابن الصلاح
وفتاوي ابن عبد السلام وفتاوي ابن القاص وجملة من فتاوي
المالكية وكذلك الحنابلة

ثم قرأ في اسماء كتب اللغة منها كتاب قاضي الحق لابي العلا
المعري وقاعدة البيان وضابطة اللسان لابي جعفر احمد بن الحسن
المالقي وكتاب الكامل للمبرد النحوي وكتاب الاساس وكتاب
لسان العرب وتاج العروس وشرح القاموس وغير ذلك من كتب
اللغة التي لا توجد مجتمعة في كتبية في احدى بلاد الاسلام ثم قرأه

اسماء غريبة المثال عزيزة المثال في النجوم والمعاني والبيان والبدیع
 ككتاب سیبویه وغیره وکتاب دلائل الإعجاز فی البلاغة وإسرار
 البلاغة والمفتاح وغیر ذلك
 وفی المنطق غرائب المؤلفات وكذلك كتب علم الاصول
 وغیر ذلك

ومن التاريخ كتاب اخبار الزمان وكتاب ابي الفدا
 وكتاب ابن خلدون وتاريخ ابن الاثير وغیره من كتبه
 الغريبة ثم بعد ذلك اخذ الدفتر ووضع مكانه واتى بمصحف
 مجلد مظرف فی داخل كيس من الديباج الاخضر ففتح
 الشيخ فوجده مكتوباً بالخط الكوفي فی رق الغزال ثم جلس وصار
 يقرأ ثم قال التلياني يا حضرة الاستاذ الحمد لله الذي جمعني بك
 فاني منذ زمان متوقف فی بعض اشياء فی القرآن ولكوني لا اعرف
 علوم اللغة العربية على ما هي عليه لم تزل وقفاني ولم اجتمع باحد
 فی بلادنا من علماء العرب يفهمني حقيقة الحال فقال له الشيخ ما
 وقفائك فقال ان فی القرآن قوله تعالى فيومئذ لا يسئلك عن ذنبه
 انس ولا جان وقوله ولا يسئلك عن ذنوبهم المجرمون مع ان فيه
 فوربك لنسئلكم اجمعين عما كانوا يعملون وفيه فلنسئلكم الذين
 ارسل اليهم ولنسئلكم المرسلين فبين الايتين الاولين والاخيرتين
 على ما يظهر لي تناقض فقال له الشيخ هذه من وقفات العلماء ولكن
 شرط التناقض ان يتعد الزمان والمكان والغرض فقال ايها الشيخ

ليس ذلك كله يوم القيامة قال بلى ولكن يوم القيامة كما اخبر الله
 مقداره خمسون الف سنة وعرف بالاخبار انه يكون مشتملاً على
 مقامات مختلفة فلا مانع من ان يكون السؤال في وقت من
 اوقات يوم القيامة ولا يكون في وقت اخر وفي مقام من مقاماته
 ولا يكون في مقام اخر وحيث لا تعارض في الايات ولا تناقض
 فاطرق رأسه برهة ثم اقبل على الشيخ وقال له والله انك عالم باسرار
 لغتك فقد ازلت عني كثيراً من الوقفات فاني كنت اري بين قوله
 تعالى لا تخصموا لديّ وقد قدمت اليكم بالوعيد وبين قوله
 تعالى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون تناقضاً وبين قوله
 تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وبين قوله هذا يوم
 لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون تناقضاً وبين قوله تعالى
 فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتسألون وبين قوله واقبل بعضهم
 على بعض يتسألون كذلك وبذلك الجواب ازيلت تلك
 الوقفات والله المنة والشكر الجميل حيث جمعنا بحضرتكم نقبس
 من انواركم ولقد كنت اول امري متحاشياً عن السؤال مهابة
 فالان لما زال عني من غياهب الشك بسبب سوال واحد ارجو
 من جنابكم الاذن لي في السؤال فقال الشيخ نحن لا يطيب لنا
 عيش الا بالمذاكرة في العلوم فانه حياة ارواحنا فسل ما
 شئت فذلك غاية مرغوبي فقال الحمد لله اني صرت من الان
 فصاعداً جريئاً على ان اسأل حضرتكم لانكم ابصر الناس بتلك

العلوم فقال هذا من كمالك وحسن ظنك بي اني بالنسبة لعلماء
تلك الصناعة لا أعدّ فقال كيف ذلك وانت لها كالأصل منه
يُستمدّ ثم قال ايها الشيخ ان القرآن معجز بنظمه وان نظمه غير
مقدور للبشر وان الجن والانس ان اجتمعوا على ان يأتوا بمثله لا
يمكن لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا
بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وقد
ورد ان اهل زمان النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الغاية
في الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الاتيان بمثله ثم تحداهم بعشر
سور فعجزوا ثم تحداهم بسورة واحدة على الاطلاق فلم يقدرُوا ايضاً
وفي السور (انا اعطيناك الكوثر) قصيرة جداً فلو انهم قدرُوا على
مقدارها وهو ثلاث آيات لكانوا قد اتوا بالمتحدى به فكيف ذلك
مع ان نظم القرآن يشهد ان نظم ثلاث آيات بل ثلاثين آية بل
الأكثر لا يعوز الفصح فضلاً عن ان يعوز الافصح ولو كان وحده
فضلاً عن ان يظاھرهُ الانس والجن

فقال الشيخ ومن اين تؤخذ هذه الشهادة من القرآن
قال ان فيه حكاية موسى (واخي هارون هو افصح مني لساناً)
ثم فيه عن موسى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري
الى قوله انك كنت بنا بصيراً وهذه احدى عشر آية عندكم فاذا
قدر فصيح واحد وهو موسى على احدى عشر آية في موضع واحد
أفلا يكون الافصح اقدر وان كان واحداً على اكثر فكيف اذا

ظاهره في ذلك الانس والجن

فقال الشيخ اما وقفانك فوقفات من رسخت في العلم قدمه ولكن هل اذا عبرت على لسان صاحبك بكلام على نسق مخصوص واذا سمعته يقول كنت اربدان اقول هكذا وما كان يتيسر لي ينزل ذلك منزلة القول قال لا فقال الشيخ اذا لا يقال ان موسى قدر على نظم احدى عشر آية لانها حكاية عن معنى كان يريد ولا يتيسر له ان يعبر عنه كما في الايات فقال لله درك قد ازلت عني ما كنت اظن انه لا يزول ولكن عندي وقفة اكبر من هذه لعل كشف القناع عنها يكون على يد حضرتكم فقال الشيخ بتيسير الله تعالى فقال يا حضرة الشيخ أفني كون القرآن من عند الله شك قال لا قال كيف وهو ينادي بانه من عند غير الله قال الشيخ كيف ذلك وتغير وجهه فقال لا تغير ان السؤال اقتضى ان يكون الكلام هكذا فقال الشيخ بم ينادي ذلك فقال او ليس في القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا

قال الشيخ نعم وما ينتج من ذلك قال ان فيه من الاختلافات اكثر من اثني عشر ألفًا كما تسمع اصحاب الترات ينقلونها اليك وهل عدد مثل ذلك لا يكتر

قال الشيخ مهلاً قد هالني أول سوءالك فاسمع ما اقول تجد القرآن منادياً بانه ليس من عند غير الله وذلك انه ليس المراد بالاختلاف اختلاف الروايات كما فهمت بل المراد التناقض في

الاخبار والتفاوت في مراتب البلاغة فانك اذا استقرت ما ينسب
 الى كل واحد من البلغاء اشعاراً كانت او خطباً او رسائل لم
 تكذب قصيدة من المطلع الى المقطع او خطبة او رسالة على
 درجة واحدة في علو الشأن فضلاً عن وجود جميع المنسوب الى
 صاحبها على تلك الدرجة بل لا بد ان تجد اختلافات كثيرة في
 كلام المتكلم الواحد فتري البعض فوق سماء السما علواً والبعض
 تحت سمك الارض نزولاً وما ذلك بخاف على ذي بصيرة أليس
 الامر كذلك قال بلي قال اتجد القرآن على اختلاف رواياته مختلفاً
 في البلاغة قال لا قال الشيخ ايكفيك ذلك في الجواب عن
 سؤالك فقال يكفي ثم يكفي ولك الشكر والمنة ثم اثنى عليه
 وازداد قدره لديه وقال ايها الشيخ بقي في ذهني حاجة اريد ان لا
 اخفيها عنك قال الشيخ وما هي وتبسم ضاحكاً فقال ان القرآن
 لا شك كلام الله وقد علمه محمد عليه الصلاة والسلام بلا شك
 وفيه وما علمناه الشعر وما ينبغي له فقال الشيخ نعم قال وهذا
 يستدعي ان لا يكون فيه شعر مع ان فيه من جميع بحور الشعرفان
 فيه من بحر الطويل من صحيحته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
 وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن مخزومه منها خلقناكم
 وفيها نعيدكم وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن بحر المديد
 واصنع الفلك باعيننا ووحينا ومن بحر الوافر ويجزهم وينصرم عليهم
 (و) يشف صدور قوم مؤمنين ومن بحر الكامل والله يهدي من

يشاء الى صراط مستقيم ومن بحر الهزج من مخرومه نال الله لقد اترك
الله علينا ونظيره القوي على وجه ابي يأت بصيرا ومن بحر الرجز
ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ومن بحر الرمل وجفان
كلجواب وقدور راسيات ونظيره ووضعنا عنك وزرك الذي
انقض ظهرك ومن بحر السريع قال فما خطبك ياسامري ونظيره
نقذف بالحق على الباطل ومنه او كالذي مر على قرية
ومن بحر المنسرح انا خلقنا الانسان من نطفة ومن بحر الخفيف
ارأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ومنه لا
يكادون يفقهون حديثاً وكذا قال يا قوم هؤلاء بنائي ومن بحر
المضارع المخروم يوم التناد يوم تولون مدبرين ومن بحر المقتضب
في قلوبهم مرض ومن بحر المبحث مطوعين من المؤمنين في الصدقات
ومن بحر المتقارب واملي لم ان كيدي متين

فقال الشيخ سبجان الله ألم تعلم ان الشعر اشترطوا فيه ان
يكون مقصوداً فقالوا هو الكلام الموزون قصداً فقال نعم قال
الشيخ ما اوردت من هذه الايات ونحوها ليس مقصوداً موازنته
لتفاعيل الشعر ولم تقصد فيه اسباب ولا اوتاد ولا فاصلة صغرى
ولا كبرى فليس شعراً اصلاً وعلى تسليم ان ذلك من الشعر أليس
يصح بحكم التغليب ان لا تلتفت الى ما اوردت لكونه قليلاً نادراً
والنادر لا حكم له فيحكم على مجموع القراء ان انه ليس بشعر فيقال
بناءً على مقتضى البلاغة وما علمناه الشعر

فقال ايها الشيخ لقد اجدت فيما اجبت وقد شئيت مني الغليل
 وازلت شبهاً ما كنت اجد لها من مزيل فانت الرجل علماً وادباً
 وعملاً وكماً لا ليتني لا افارقك ابداً ثم خرجا من الكتبية وصارا
 يتحدثان في امور شتى حتى ازف الليل فاستاذن الشيخ للقيام فصحبه
 الرئيس وصاحب البيت ونعّض المحاضرين تعظيماً له حتى ركب
 عربته وسار ومعه ولده ويعقوب الى منزلهم

المسامرة (١٠٥)

قصة

وفي صبيحة تلك الليلة دخل يعقوب على الشيخ فسلم عليه
 وعلى ولده ثم قال رايت باوراق الحوادث امس ان احد الاشقياء
 الشائع ذكرهم بنواحي باريز قد ضبط منذ ايام وفي هذا اليوم
 يكون بت الحكم عليه في مجلس الحكم وارغب الحضور هناك لانظر

بماذا بيت عليه فهل تاذن لحضرة نجلك في التوجه معي فقال الشيخ
 لأبأس إنما لا بد ان تكونا ههنا قبل الزوال فان حضر الخوaja
 توجهنا معه حسب ما يحصل عليه الاتفاق وان لم يحضر ذهبنا
 نحو العين التي كنا بها امس فقد انشرح صدري من روعيتها فقال
 يعقوباً سمعاً وطاعة واخذ بيد ابن الشيخ وسارا راجلين يتحدثان
 الى ان وصلا الى المحكمة فوجدنا اناساً كثيرين هناك وببابها طائفة
 من العسكر يمنعون البعض من الدخول فتقدم يعقوب للضابط
 وعرفه انها غريبان ويريدان الدخول فابى ان يدخلها فجمعلا
 يتحيلان عليه بانواع الحيلة فلم يجد ذلك شيئاً وبيناهما كذلك اذا
 بالخوaja التلياني الذي كانا عنده بالامس قد اقبل فعرفها وسلم
 عليها وتكلم مع ابن الشيخ بالعربية وكلم الضابط كلاماً عرفه
 الحقيقة ثم ادخلها فوجدا خلفا كثيرين محيطين بحاجز من حديد
 بداخله محل الحكم الذي هو صدر المكان وفيه جميع الاعضاء كل
 على حسب درجته والرئيس هناك على كرسي مرتفع وامام الجميع
 طاولة فلم يلبثا الا قليلاً وتم المجلس فامر الرئيس باحضار الجاني
 فاتي واجلس على كرسي من خشب وصاروا يسئلونه نحو الساعة
 ثم قام الرئيس وتلا خلاصة طويلة ثم هاجت الناس فرحاً وصار
 العسكر يخرجون الناس فمن الازدحام وكثرة اللفظ وعدم معرفة
 ابن الشيخ بلغتهم كما ينبغي لم يعرف الامر على ما هو عليه انما عرف
 انه قد حكم على الجاني بالقتل في يوم معين

ولما خرجا رغب ابن الشيخ ان يفهم قصة هذا المحكوم عليه فلما بعدا عن الازدحام سال يعقوب عن تفصيل القصة فقال يعقوب عرج بنا على احدى القهاوي لنستفيدها من اوراق الحوادث لاني لم اتحققها باطرافها فذهبا الى قهوة قريبة هناك وجلسا بخزنة صغيرة وطلب كل منهما ما يشتهي وصار يعقوب يقرأ اوراق الحوادث الى ان قضى ما اراد ثم رمى الورق وقال ان اصل هذا الشقي من قرية قريبة من مدينة اورليان تركه والده في المهد فربته امه ولما بلغ سنه عشرين عاما كان يساعد امه في المعيشة ولكن كان شقيا من ابتداء طلعه حتى عرف بذلك بين اقاربه وهو في المكث وكان البنات تكرهه لتحرئه على ما لا يليق مع انه قبيح المنظر وستيم البسم احد شفيه عاطل فكان اذا مشى يضحك منه من يراه ولا يألفه احد من النساء لدمايته ولسخافة عقله كان يجتهد في نيل ما لم يتمكن منه من النساء ولو بالقهر ومع كون شهواته كشهوات الحيوانات العجم تعشق بنتا بارعة في الجمال وهي لا تحبه ولا تميل اليه بل كان حبها وميلها لغيره وانما تظهر له المحبة وتلاعبه لسلب امواله وهو منكب عليها بكليته وقد وقع في قلبه ان كثرة الهدايا تعطف قلبها عليه لكونها فقيرة فصار ينفق عليها كل اكتساب والدته ومع ذلك فلم يبلغ اربه مع ارياد فقره سيما وهو يحب الراحة وليس له طريق الى الاكتساب ولا يرضى بان يشتغل باشغال الفلاحين فانه كان من غباوته وجود طبعه

يتصور عظم شأنه ورفعة قدره فيجمله ذلك على الترفع عن الخدمة مع ما هو عليه من الضعف والعجز فحصل له حيرة شديدة ولم يجد سبيلاً به يتحصل على مرغوبه ثم استحسن طريق الصيد فسلك هذا المسلك مع ان القوانين كانت مانعة من الاصطياد من ارض الغير وكان يقرب بلده غابة فصار يذهب اليها ويصطاد منها وما يتحصل عليه ياتي به الى محبوبته فظهرت الميل اليه واثرت على سائر احبتها فاغناظوا وضجروا وفيهم رجل من خفراء الغيطان فاخذ يبحث عن احوال هذين المتحابين حتى وقف على الحقيقة وحيث انه يعلم القوانين المانعة للصيد من ارض الغير وان من تجراء على ذلك جزاؤه الحبس ترقبه حتى قبض عليه فاخذ، واوقعه في يد الحكومة فصرف جميع ما عنده حتى تخلص وترك الصيد فانتقطعت العلاقات بينه وبين البنت لعدم ما يواصلها به واستبدلته بخصمه وجاهرت بذلك فاضرمت نار العداوة بقلبه فاراد الانتقام من الخفير فلم يقدر لشدة فقره وضيق الحال عليه فترك البلدة واقام ببلدة اخرى قريبة منها وجعل يصطاد خفية وبينما هو في صيده مرة غافلاً عن عدوه اذ احيط به وقبض عليه باعراء غريمه الاول فاخذ وحكم عليه بالسجن عاماً كاملاً

فكان في تلك المدة تنوفيه سورة الغضب ونفوى ارادة الانتقام حتى مضى الحول وعاد الى منبته فاول شيء اشتغل به البحث عن محبوبته ولكن لقمع منظر ورثاته حاله كانت اذا راته

تفر منه ولا تميل اليه فضاقي من ذلك ذرعاً واشتد به حال
الفقر فافتاد وذل وطلب الخدمة لتحصيل المعيشة ومع ذلك لم يقبله
احد من عظماء بلده إلا ارباب الفلاحة لضعفه عن الخدمة فاشتد
كربه واستحال حاله وخابت اماله

ثم اخبر رعي الاغنام، فابت اربابها من تمكينه منها لعلمهم
بسوابقه وسوء سيرته فلما لم يجد للمعاش سبيلاً عاد لما عوقب
عليه مرتين واتخذ حرفة ثالث مرة لكنه صحا من سكرته واستيقظ
من غفلته فتدجج بالسلاح في الغدو والرواح فكان لا يغفل عن
عدوه طرفة عين ولا ينسى القبض عليه مرتين وصار بالمرصاد لعدوه
في جميع حالاته ملاحظاً لجميع حركاته وسكناته ولكن لسوء تدبيره
وحذق عدوه وقع في شرك الحكومة ثالث مرة بدلالة عدوه عليه
فاخذ وسجن وحكم عليه هذه المرة بالسجن والاشغال الشاقة ثلاث
سنين بعد وسمه بالنار على ظهره كالحبوان البهيمي فامضي تلك
المدة في عذاب اليم كانه في نار النجيم وبعد مضي المدة خرج من
القلعة التي كان محبوساً بها متغيرة جميع احواله هكذا اخبر القسيس
الذي اعترف له بذنبه

فقال ابن الشيخ ثم ماذا حصل قال يعقوب اخبر القسيس
عنه ايضاً انه قال اني قبل دخول سجن هذه القلعة كنت احسن
حالاً من حالي بعد ذلك فانه ما زادني السجن الا شقاء وحباً
للغدر والفساد وذلك اني قبل سجنني كنت طائشاً صغير العقل

حتى جرتني ذلك الى ما وقعت فيه واني وان كنت قبل السجن
اميل الى الفساد لكن كان يمنعني عنه خشية العار او خوف العقاب
فلما ادخلوني السجن بزعمهم انه يريني ويحسن احوالي وجدت به
من الاشقياء المحكوم عليهم نحو عشرين شقياً اثنان قاتلان والباقيون
ما بين لصوص وقطاع طريق فكنت اذا ذكرت اسم الله يهزأون
بي ويقولون ما لا يسعني النفوس به من سب المسيح والتفاخر بالقتل
وسلب الاموال وهتك الاعراض ونحو ذلك من حكايات تجبها
الاسماع وتنفر من سماعها الطباع فاذا اردت اجنبائهم لم اجد غيرهم
فاضطرت الى العود الى مجالستهم ومجانستهم فلما طالت عشتري
بهم لم اجد بداً من موافقتهم حتى صرت واحداً منهم وضاع ما
عندي من حسن العقيدة وتعودت الامور الذميمة وألفت الكبائر
حتى فقت على اقراي في الشقاوة والفساد ولقد صدق وبالحق نطق
من قال مشيراً الى هذه الحال

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولطول عشتري لم واضطاري للامتزاج بهم لم اعمل بقوله
في البيت الاخر

فان كان ذا شر فجاببه سرعة

وان كان ذا خير فقارنه تهندي

بل تهت في اودية الضلال وغرقت في رديء الخصال وكنت

ارى في نفسي العداوة لجمع بني ادم لما قاسيت من الشدائد وسوء
الحال وهم في امن وثروة ورخاء فكنت اذا ابصرت الشمس
طالعة من وراء الجبل الذي عليه القلعة او سمعت صفير ربح
او صوت عصفور هاجت شجائي وثمت احزاني وارقدت نفوادي
نار ارادة الانتقام فكانت كراهي لابناء جنسي دائماً في ازدياد فلما
استوفيت المكتوب وخرجت من السجن لم يكن لي هم الا الرجوع
الى بلدي لا حباً فيه ولا للتعيش به بل لتعقد الانتقام من الذين
كانوا سبياً في شتاءي وطول عتائي فصرت اهدول واعدو
عدوا شديدا وفي قلبي شيء يحملني على الجري كالسائق العنيف
واذا رأيت من بعد ناقوس الكنيسة هاج ضميري وثارَت فكرة ما
مر عليّ من الشدائد وكبرت في نفسي جرائم اعداي ففتحت عليّ
جراحي وكبرت شهوة الانتقام عندي وصرت اعدد اعداي واصوّر
في نفسي ما يحصل لهم من الرعب والخوف عند رؤيتهم اباي على
حين غفلة فتهون عليّ الالام وهكذا حتى وصلت الى البلدة وما
كنت انظر اليها بالعين التي كنت انظرها بها من قبل وكان
دخولي في ضحوة النهار فوجدت اناساً ذاهبين الى الكنيسة يعرفونني
واعرفهم فنظروا اليّ وتجاهلوني فاعرضت عنهم وذهبت الى السوق
فرايت به طفلاً جميلاً الصورة وكنت قديماً احب الاطفال فاعطيته
صلدياً كان معي فاخذه مني وجعل ينظر اليّ ثم رمى به وفرّ
كالخائف فعميت من ذلك ثم قلت في نفسي لعله انما فر مني لما

رأى من تشوه هيئتي فان لي مدة ما تعهدت لحبتي فشعثها ضرورة
يزيد في شناعة صورتي ثم خطر ببالي احتمال اخر لفراره مني وهو
انه ربما كان كغيره يعرف امري وما انا عليه من الطرد والابعاد
ففرمني وعند ذلك بكيت بكاء لم يسبق لي مثله واعتاني من الحزن
اضعاف ما عانيته في السجن وقلت قد فر هذا الطفل مني كما يفر
من الحيوان المفترس فهل عندي شبه بوحوش الجبال ام هل
رأى في وجهي علامة الفزع او انه ضاع جميع شبيهي بالادميين
من شدة عدواني لهم ثم انزويت في ركن تجاه باب الكنيسة من غير
قصد مني ولا شعور ثم قمت من هذا المكان كاسف البال لما
رأيت ان جميع معارفي واصحابي مروا بي ورأوني ولم يسلموا عليّ
كانهم لا يعرفوني ثم عدت الى قهوة فرأيت في طريقي امرأة عليها
اثر الذل والمسكنة فتأملتها فاذا هي التي كانت سبباً في جميع ما
حل بي وقد صارت في حالة يرثى لها فعرفتني ودنت مني ونادتني
باسمي وقالت الحمد لله الذي اعادك وعلى وجهها كآبة تشهد على
اعمالها السابقة واللاحقة ورأيت ان لها اخلاطاً بجماعة من العسكر
فعرفت طريق تعيشها فصرفت وجهي عنها وحصل لي نوع من
الراحة لاني رأيت من هو ادنى درجة مني

ثم سألت عن والدتي فاخبرت انها قد ماتت وبيعت تركتها
في ديون كانت عليها فعرفت اني صرت مجرداً من المال والاهل
وقد كنت سابقاً اتوقى ملامة الناس واخشى على نفسي العار

فاصبحت كافي مزقت جلباب الحياء عن وجهي وصرت اتلذذ
 باقامتي بينهم مع نفورهم مني وباعدتهم عني لاني كنت ارى في ذلك
 عذاباً اليماً عليهم على اني ما كنت املك شيئاً اخشى عليه او احرص
 على حفظه. وكان دابي العدول عن كسب الطيبات لانها كانت
 مطبوعة في اذهانهم وكان المطبوع في ذهني حب مخالفتهم فيما
 يحبونه وكنت اعرف من نفسي اني لو رحلت عن بلدهم الى بلد
 اخر فلربما كنت اتحلى بفعل الحميل والحصال الحميدة ولكن تشفياً
 منهم ابيت الا الاقامة بينهم لان تذكري لما قاسيت من الاهوال
 والالام اذهلني عن الصواب وعن كل ما يقال له شرف او فضل
 وتماديت على ما انا فيه من الرذائل ومع هذا فكنت مضطرباً في
 احوالي غير قاصد امراً معيناً افعله انما كنت اتصور ان القوانين
 وضعت للجري على سننها والعمل بمقتضاها فخالفتها عمداً لما نابني
 بسببها من التوازل والمصائب الفائقة الحد وان كانت مخالفتي
 لها اولاً جهلاً وطيشاً ثم رجعت الى الصيد مع اصراري في الباطن
 على اضرار السوء فصرت اصطاد كلها وقع بصري عليه وكانت هذه
 الصنعة عندي شهوة لذينة وكل حين كان يزداد تطبعي عليها
 خصوصاً ولم ارَ غيرها انتقلت منه وازداد عندي حب مخالفة
 القوانين السياسية وذهب عني الخوف الذي كان يلحمني قبل ذلك
 وصرت مزمنة على تسكين الرصاص في قلب من يقرب مني وكنت
 اصطاد لتصد الاتلاف ولا ابيع منه الا القليل على قدر شراء

القوت والرصاص والبارود واقمت بالغابات على اسواء الاحوال
 عدة اشهر حتى تنوسي امري وصاروا لا ينسبون اليّ شيئاً ما يحصل
 من الاتلافات ولا يدرون اني في البرية مصر على الغدر وفي
 ذات يوم رأيت حيواناً فعدوت خلفه اريد صيده فلم ادركه الاّ
 بعد ساعتين فحرّرت البندقية عليه لارميّه فلاححت مني التفاتة
 فرأيت رجلاً قد صوب بندقته الى هذا الحيوان فامعنت النظر
 فيه فاذا هو الخفيّر الذي كان السبب في جميع ما لحقني من الهوان
 فهاج جسمي واشتعلت نيران قلبي وقلت هذا اكبر اعدائي الذي
 انا هائم في الغابات لاجله هذا الغرض الذي انا قاصده هذا وقت
 انتهاز الفرصة في حرمانه من الحياة ثكلتني امي ان تركته يعيش برهة
 من الزمن وارتعدت فرائصي ونضاربت اسناني واضطرب نفسي
 حتى اني لم اشعر بتحول البندقية فضربته فنفذت الرصاصة في
 احشائه فانكب على وجهه يتشخط في دمه كأنه من هدايا مكة
 ففي الحال خمدت نيران قلبي وبرد غليلي وشفيّ عليلي وقلت اني
 قد اخذت بثاري وكان لسان حالي يقول
 ولست ابالي اذ أرحت حشاشتي

بقتل عدوي ان اعذب بالنار

ولست ارى شيئاً يلذ حديثه

وافرح منه مثل اخذي بالنار

وقلت ما اوقع هذا الغي في شبكة صيدي الا نسيانه لذنوبه

وعدم فرضه وجودي وكأنه لم يقف على قول القائل

احذر عداوة من ينامر وجهه

باك يقلب طرفه نحو السما

يرمي سهاماً ما لها غرض سوى

الاحشاء منك فربما ولعلما

وبينا انا انشفي فيه اذ تغيرت حالي وداخلني الخوف وتنبهت
لنفسي وصرت كنائم استيقظ من رقدته او نشوان صحا من سكرته
وحق في المثل راحت السكون وجاءت الفكرن ولما سقط في يدي
رايت اني قد هلكت فحيثنذر رجعت على نفسي باللوم والتقريع
ودهشت ما حصل مني ووقعت البندقة من يدي ورايت قواي
قد بطلت ونفسي قد همدت وقلت الان صرت قاتل نفس وقد
يئست من الحياة بذلك الفعل الشنيع الذي استحق عليه القتل
وصرت وانا في الغابة كاني في مقبرة مملئة بالاموات
لكثرة فكري في الموت وكان السكون حولي من كل جهة وكأني
اسمع نفسي تقول لي يا فاتل ثم دنوت منه فوجدته في اخر نفس
فيهت وجعلت انظر اليه مدة ثم رايتني اضحك بقمرة واتكلم مع
الرمة واقول الان لا تكلم ثم داخلني الشاغل ثانياً وقلت لنفسي
ان ما قاسيته من الهموم والمشاق من مدة سنتين هو عقاب ما
جنيته فيما مضى حتى رايت من الباساء والضراء ما كنت اظن انه
لا يوجد مثله لمخلوق غيري والان قد جنيت جناية كبيرة تستحق

الموت في الدنيا وعقاب الله في الآخرة وصغرت عندي حالتي الأولى بالنسبة لما صرت فيه لاني صرت من تخيل القتل والصلب والمشقة وحبالها وتصورت لي صورة شئق امرأة كانت قتلت ولدها وكنت نظرت اليها مشنوقة وأنا صغير في المكتب ورايت ان حياتي من يومئذ حارت من حق القصاص وصرت اتمنى حياة المقتول لا تخلص من هذه الورطة ثم انتقلت فكرتي الى تعداد سيئاته مع طول حياته لاهوّن على نفسي وجعلت اربط افعاله السيئة بعضها ببعض فلم يساء لي تصويري وغلبت عليّ المخاوف وغاب عني ما كان قبل ذلك برقع ساعة مشعلاً نار الغضب في احشائي حتى اوقعني في حد القتل وبينما انا في هذه الافكار اذ سمعت عن بعد صوت فرقلة وفرقة عربية تسير خارج الغابة وكان محل القتل قريباً من الطريق بنحو ربع ساعة فانتبهت من دهشتي من شدة الخوف فاخذت في اسباب الاختفاء ودخلت وسط الغابة هائماً على وجهي لا ادري اين اتوجه ثم خطر ببالي ان مع القتل ساعة فعزمت على العود اليه لآخذها فاستعين بشئها ولم يكن معي شيء من النقود اصلاً فلم اجد لي جسارة على القرب منه وتجاوزني خوف عقاب الله تعالى واغواء الشيطان فصرت اقدم رجلاً واؤخر اخرى واتردد بين الاقدام والاحجام ثم غلب جانب الاقدام فوصلت اليه وانا في وجل شديد وخوف عظيم فاخذت الساعة ووجدت معه ايضاً نقوداً تقرب من ريال فاخذتها ثم

أردت ان اصر ذلك في جي فلم استطع وكأن شيئاً مسك
بيدي ثم ترجع عندي ان اترك الساعة ولا اخذ الا الدراهم فرميتها
ولم يكن سبب ذلك خوف تعظيم كبير القتل بكبيرة السرقة بل
الحامل لي على رميها الانفة والتعاضم عن اخذها لانه قد خطر
بالي انهم لو قبضوا عليّ وهي معي لقالوا ما قتلنا الا لاخذ ما
معه فينسبونني الى قله المروءة مع اني ما قتلته الا تشفياً فيه ومكافاة
له على فعله معي ثم مضيت في الغابة وكنت اعرف انها تمتد في
الشمال نحو اربعة فراسخ فتنتهي الى حدود البلاد المجاورة لها
فاخذت اهرول واعدو عدوا شديدا الى قرب الظهر ومن
كثرة الجري ضاع عني بعض افكاري ثم صرت كلما قلت في
الجري قوتي كثر ففكرتي وزاد اضطرابي حتي كنت ارى
خيالات مهولة محيطة بي من كل جهة كل واحد منها اكبر
هولاً من الآخر وكأن تلك الخيالات تضربني بالسلحة حداد
توءم صميم قلبي فكنت في عذاب اليم وخوف مستمر حتي كنت
اهم بقتل نفسي لاستريح من القبض عليّ والحكم بقتلي وكلما هممت
بضرب نفسي اجد عندي جبناً عن ذلك وتعز عليّ مفارقة الحياة
مع اني في رعب شديد من البقاء وبقيت حيران لا يهنا لي حياة
ولا موت وحل بي خوف عذاب الله في الآخرة واستمرت بي هذه
الحالة الى الساعة السادسة من ابتداء هروبي ومرّ على فكري جميع
انواع العذاب الدنيوي والآخروي ثم اني اقللت العدو ومشيت

الهويناء وإدخلت البرنيطة الى اخرها في رأسى حتى نزلت على
 عيني وسترته وجهي لاني كنت اريد ان اخفي نفسي عن كل شيء
 حتى عن الاشياء غير الناطقة وسلكت طريقاً ضيقاً لا ادري اين
 يوصلني فاوصلاني الى مضيق مظلم في داخل الغابه فازدردت خوفاً
 على خوف وبينا انا اسير اذا بصوت مرتفع يقول قف مكانك
 يا هذا فرفعت البرنيطة قليلاً فرأيت رجلاً في هيئة هائلة قد
 دهمني ومعه نبوت كانه حزم نخلة وهو مصفر اللون مع سواد
 خفيف وفي عينيه بياض شديد مع حول وعلى وسطه حبل طويل
 قد اداره مرتين فوق سلطنة خضراء وفي حزامه سكينه عريضة
 وطبخة ذات طلقتين وعند قوله قف هنا نزلت على كفي يد ثقيلة
 كالطرقة فخفت اولاً منه ولما تحققت انه من قطاع الطريق ذهب
 خوفي منه لاني حينئذ كنت لا اخاف الا من يخاف الله دون
 مرتكب المعاصي ثم قال لي من تكون انت فقلت مثلك ان
 كنت كما اظن فقال ليست الطريق من ههنا فما انى بك
 ههنا فقلت له وانت ما أنى بك ههنا ولأى شيء تسألني
 وانت مثلي فلما رأى مني عدم الخوف منه تأمل فيّ وفيما
 انا عليه وقال انت تتكلم كالشحاذين ثم بهت كانه تحير في
 امري فقلت ربما كنت كذلك بالامر فضحك من ذلك وقال
 ستعلم لنا حقيقتك ويظهر لنا مقصدك فقلت اتركني اسير في طريقي
 فقال نسير سوياً صاحبي فلا تعجل فسكت قليلاً ثم نظمت

بكلام لم اشعر به فقلت اتركني فالحياة قصيرة وعذاب الله طويل
فصعد نظري في وقال يظهر انك قريب من الشنق وان لم يكن
كذلك فلا علم لي بصنعتي فقلت ان لم يكن ذلك حاصلاً
فسيحصل اتركني اسير لحالي فوضع يده في يدي واخرج زجاجة من
شنطة معلقة في ابطه فيها شراب فعزم علي ان اشرب معه وكنت
في ذلك اليوم المشوؤوم لم اتناول شيئاً من الطعام ولا الشراب من
والتعب فشربت معه فحصل لي انتعاش وخفت عني
متاعبي وهومي وتعلقت بحبل الحياة وأنساني الشراب شقاوتي وتخيّلت
السعادة حيث اجتمعت بمن هو مثلي فاني كنت مجرداً عن الانيس
والاليف وزال عني اضطراب القلب والمتاعب ثم ان الرجل
اضطجع على الحشيش فاضطجعت بجانبه وقلت له ان شرابك اراحني
فيلزمننا المواخاة والصحبة وكان معه شبق فملاه دخاناً وقدح الزند
وولع منه الدخان وتكيف ثم قلت له هل مضى عليك زمان طويل
في الكار فنظر الي ثم قال اي كار تريد فوضعت يدي علي سكبته
وقلت له هل قنلت كثيراً وسفكت الدما فعبس في وحيي وقال
من انت يا هذا ووضع السكينة على الارض وجعل ينظر الي فقلت
اني مثلك قاتل لكبي مبتدىء في الكار فسكت قليلاً وقال انت
لست من هذه البلاد فقلت اني من بلد قريب بينك وبينه ثلاثة
فراسخ وذكرت له اسمي وقلت لعله قد وصلك بعض اخباري فعند
اذك نهض قائماً وعانقني وقال طال ما تمنيت لقائك وصحبتك

وقد ساقبتك المقادير فلا فرقة بيننا الا بهادم اللذات الذي يستوي
عنده الجليل والمحخير

ثم قال هل من العدل ان يعذبوك هذا العذاب ويسجنوك
وبحرموك من اصحابك واحبابك وبلدك بنحزيرين صدتها من
الغيطان لا قيمة لها ولا كلفة في موونتها وهل من الانصاف ان
تهان تلك الاهانة ويفعل بك ما فعل حتى آل بك الامر الى
تناسي الملة وابتنى على ذلك ضياع حقوقك المالية والمالية جميعاً وصرت
بجمال يرثي لها بحيث لا يقر لك قرار ولا تستطيع الاقامة في موطن
فهل ليس للانسان قيمة تساوي قيمة الارنب

ثم سكت ملياً وقال وماذا فعلت حين اقاموا عليك النكير
بقتل الخنازير فقلت لم احد لي حيلة الا قول القائل
اذا لم يكن الا الاسة مركباً

فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكنت كثيراً ما اتمثل قول القائل

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

وكان الشراب قد اخذ مني اكثر مما اخذ منه فقصصت عليه
القصة بتمامها ثم سألته عن حاله فلم يرد عليّ جواباً واخذ بيدي
وقال لي نخوت وبلغت ما رجوت فسر بنا الى اخواننا لتعرفهم
ويعرفوك فسرت معه نحو نصف فرسخ فدخلنا ارضا كثيرة الشجر

فصر الرجل بفيه فجأوه آخر من بطن الأرض وإذا بطابق قد
انفتح وبه سلم ينزل عليه إلى جوف الأرض فنزل فيه وقال حتى
اربط عنك الكلب ونادى الكلب فجاءه فربطه بضم الطابق ثم غب
عن بصري فذا كان خوف شديد وخطر بيالي أرض أخذ السلم
وأفرّبه ثم نظرت إلى فم الطابق فرأيت دخاناً يتصاعد كأنه طاقة
من طاقات جهنم وإن أحد الزبانية جاءني في صفة هذا الرجل
ليريني ما انزجر به عن الأفعال القبيحة فسمعت قائلاً يقول إن
كان قائلاً أو يناه أو كان مظلوماً نصرناه ثم جاء الرجل وقال لي
انزل فنزلت فوجدت غاراً مستطيلاً وبه مساكن صغيرة ونساء
ورجال محدقون بنار اضرموها فلما قربت منهم قاموا جميعاً وسلموا
عليّ وحيوني واجلسوني وجلسوا محيطين بي وأخذوا يسامروني
مسامرة ترفع عني الأوهام والخاوف ويشنون على بساوتي ويمداحون
شجاعتي فانصرف عني الجزع والخوف حتى رأيت نفسي قد داخلها
العجب والكبر ثم أمروا بالطعام فاكلت معهم ثم دارت علينا أكووس
الشراب فشربنا وطربنا وكنت وقت الأكل بين امرأتين حداهما
قد ناهزت العشرين وهي بكر وكانت فصيحة طليقة اللسان حاضرة
الجنان سريعة الجواب خفيفة الروح والأخرى أصغر منها إلا أنها
متزوجة ناشزة من زوجها لسوء عشرته معها وكانت أقوم من
الكبيرة قدّاً واحسن شكلاً وارق مبنياً واخف معنىً نحيفة مألوفة
فهويتها وإن كانت الكبيرة تسارقني النظر وتمازحني طويلاً لكن

لمبي علق بالصغيرة أكثر لمعنى فيها جذبني اليها فجعلت انزه طرفي
 ذات اليمين وذات الشمال فقال لي صاحبي كيف رأيت مجلسنا
 قلت مجلس انس وفيه كل ما تشتهي النفس فقال نحن هكذا كل
 يوم ناء كل الذ الماكل ونشرب اعذب المشارب ونتمتع بالنظر الى
 الحسان فان رضيت الاقامة معنا ورغبت في عشرتنا آثرناك على
 انفسنا ورفعناك فوق رؤسنا وجعلناك رئيساً علينا وكان قد دب
 في الشراب فلما سمعت هذا الكلام فرحت به وتذكرت اني كنت
 طريد النوع البشري والان تحصلت على ماري من التمتع بجميع
 الملاذ اكلاً وشرباً وظفرت بمن كنت اهواه من الحسان ربات
 الجمال وصرت آمناً ما اخاف فلم لا ارضى بما عرض عليّ اختياراً
 منهم لا سيما وقد رايت من الجماعة الاجماع على ذلك فلم اربدّ من
 القبول للحصول على المامول لكن رايت ان اشترط على الرئيس
 اخذ الفتاة التي علقتها فاجابني الى ذلك وقال لي وان احببت
 جعلتك رئيساً على هؤلاء الرجال ثم قبض على يدي وقال قد
 نزلت لك عن الرئاسة فقبلتها واخصصت بصغرى البنتين ولم
 ينازعني احد من القوم ولا عاني وصرت صاحب امرأة عاهر
 ورئيس قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر واخذت من حينئذ
 افسد في الارض وارتع في اساليب البغي والعدوان فهابني جميع
 الناس وراهم امري وقد كنت اشيع بين المغفلين من الفلاحين
 اني مصاحب جنية فزاد ذلك في هيبي لديهم وعاد عليّ من غفلتهم

ما لم يعد عليّ من شجاعتي

ولما وصل خبري الى الحكومة اهتمت في ضبطي وجعلت لمن
يدل عليّ او يضبطني جعلاً عظيماً ومع ذلك لم يتوصلوا مني على
شيء وبقيت حولاً كاملاً بين هؤلاء القوم ثم كرهت عشرتهم
والاقامة بينهم لتغير قلوبهم عليّ فاجتمع عليّ امران نفور الجماعة مني
ومحبة الحكومة عني فكنت احترس على نفسي ليلاً ونهاراً من
سطوة الحكام ومن خيانة هؤلاء البغاة الطغاة وبعد ان كنت افرح
بعمل السوء والسعي في طريق الفساد تبدل فرحي غماً وسروري
هماً وتمتعت بمفارقة هذا الغرور والعدول عن تلك الشرور وندمت
على ما فرط مني من الكبائر والتفريط في جنب الله وصرت ابكي
واتحجب واقول لعلي اذا تركت هذه الطائفة واحوالها وتخلصت من
احوالها اتخلص من الرذائل واتحلى بالفضائل ثم صممت على مفارقة
نلك الارض لاعيش بين قوم لا يعرفونني واتوب الى الله تعالى
عسى ان يقبلني انه تواب رحيم

وبينا انا افكر في ترفعي عن دركات الشقاوة الى اول
درجات السعادة اذ اشيع خبر قيام الحرب في جهة ايتاليا وان
الملك محمّد في تجهيز العساكر لذلك فشدتني نفسي ان اكتب الى
الملك خطاباً يتضمن طلب العفو عني وادراجي في سلك المجاهدين
فكثبت اليه ما صورته

اذا كان رضاكم في عدم احتقار النزول الى درجة مثلي وان

الاشقياء مثلي لم يطردوا عن باب مرحمتكم ارجو التعطف عليّ
ومسامحتي ومّا اعرضه على مسامعكم العالية اني كنت جنيت كبيرة
القتل والسرقة ومعلوم اني بذلك استحق القتل فانا مستعد لان
اسلم نفسي للقصاص لكن اقدم لاثابكم الكريمة رجاء غريباً وهو اني
ولو اني لا اخاف من الموت لكن احب ان اموت بعد ان اؤدي
واجبات الحياة فقصدي ان اعيش مدة اعوض فيها ما مضى مني
من السيئات لاستحق العفو من الجمعية البشرية التي خرقت ببيع
افعالى ناموسها فان عقابي اليوم لا يكون مثلاً لغيري ولا يكون
لي براءة من ذنوبي يوم القيامة فارجو البقاء لاتمكن من خدمة
الوطن بدلاً عما عرفت به من ضرر وطني فيما مضى من عمري واني
اعلم ان هذا الذي اطلبه شيء غريب لان حياتي ليست الان من
حقوقى حتى اشترط شروطاً على الشريعة الا اني الان متمتع بحياتي
وحررتي ولم اكن مأخوذاً ولا مكثف الايدي ولا اخاف من القبض
عليّ فانه ابعد شيء مني ومع ذلك فاني اطلب العفو الذي هو
شمّ مراحمكم العلية وليس لي حق في طلبه ولو فرض فلست طالباً
له مع انه يحق لي ان اقول لمن ينظر في امري ان اسباب شقائي
ودخولي في زمرة المفسدين انما هو الامر الذي صدر بجرماني من
جميع ما يتمتع به اولاد وطني واخراجي من زمرة اهل الخير الذين
كنت منهم مع ان اصل ذلك اسباب واهية لا يستحق بها الطرد
الذي تسبب عنه اني صرت قاتلاً فلو كان من حكم عليّ بذلك

قد نظر بعين الشفقة والمرحمة في قضيتي ما كنت دخلت الان في الزمرة المذمومة وما كنت الان احتاج الى طلب العفو ومع كل ذلك فاني وان لم يكن في القوانين رخصة في العفو عني فلي في واسع الحلم امل في ذلك ولئن شملتني مراحمكم لاجعلنّ ما بقي من عمري خدمة للركاب العالي فان كان رجائي مقبولا فليصدر الامر بدرجه في الجرائيل لآتمند على امركم الملوكي واحضر في الحال الى المدينة ولا فلتجبر الحكومة محجراها واما انا فاحرم على عيني المدينة ان تراها . أه .

فلما ارسلته ابطاء عليّ خبره فاتبعته باخر ثم اخر وطلبت فيه ان ادخل في الخيالة المتوجهين الى الحرب فلما لم يظهر له اثر يبلغني عنه خبر صرفت النظر عنه وآيست من العفو عني وعزمت على الهرب الى ايطاليا لادخل في عسكرهم فتحايلت حتى فررت من بين تلك العصابة وسلكت طريقا غير معروف ومررت بمدينة فاردت المبيت بها وكانت الاوامر صادرة بالبحث عني في اوراق المسافرين فلما قريت من باب المدينة وجدت المأمور جالسا على كرسي فجعل يتأمل فيّ ثم طلب مني تذكرة المرور فناولته تذكرة كنت اخذتها من رجل كنت نهيت ماله فلم يكتف بها بل قام وامرني باتباعه فاتبعته حتى وصلنا الى الضابط فوجدت عنده رجلا نحيف الجسم طويل الثامة فلما رآني ذلك الرجل قال أأنت الرجل الذي خرج عليّ يوم كذا في مكان كذا وكان معك اثنان ولولا

اني تركت لكم فرسي ما نجوت بنفسي فما اتم كلامه الا واحد الخفراء
يقول ان الفرس التي معي هي فرس هذا الرجل بعينها فلما سمع
الضابط ذلك امر بجبسي فسجنوني بحبس الدم قال يعقوب وقد
حكم على ذلك الرجل بالقتل بعد ثمانية ايام

فقال ابن الشيخ من يتأمل في هذه الحادثة يحكم بخطاء من
تسبب له في ارتكابه الجرائم ويحكم على هذا الشقي بانه قد بحث على
حنفه بظلمه حتى اخذ رغم انفه واصل ذلك سخطاته الدنيئة وشهواته
البهيمية ولقد احسن من قال

كل الحوادث مبدأها من النظر

ومعظم النار من مستصغر الشرر
ومن ينظر الى ظاهر حاله يراه مسكيناً ضعيفاً ولا يتوهم فيه
هذه الفعال وانه لا قدرة له على ما ارتكبه من هذه الالهوال ولعل
قولهم الظاهر عنوان الباطن قاعدة اغلبية

المسامرة (١٠٦)

البانكات واوراق المعاملة

ثم قاما وتوجها الى الشيخ فسألها عما رأياه من الحوادث او سمعاه فاخبره ولده بقصة الرجل ثم جاء الخواجا التلياني ولم يحضر الانكليزي

فقال الشيخ ليعقوب اظن ان الخواجا لا يحضر الا اخر النهار فقم بنا الى المحل الذي كنا به بالامس لنطلع على البرصة فركبوا جميعاً وساروا اليها فلما دخلوها صار اهلها ينظرون اليهم ويعرضون انفسهم لخدمتهم وسمعهم الشيخ يذكرون مدنا شهيرة واسماء كثيرة فبعد خروجهم سأل التلياني عن سبب ذكر هذه البلاد واسماء العباد فقال ان الدول في اعمالها العامة الكلية كاحاد الرعية في اعمالها الخاصة المجزئية فاذا ارادت دولة من الدول اقتراضاً او انشاء امور جسيمة كالترع والقناطر والسكك الحديدية وما اشبه ذلك

من الاعمال النافعة وكانت لا ترغب عمله على ذمتها فترتب لذلك متعبدين بعد ان تقدر قيمة العمل فيأخذونه على شروط يعقدونها ويجعلونه اسهماً بربح معلوم وتلك الاسهم تباع وتشتري في البرصة على يد السماسرة فيتداولها الناس كل على حسب اقتداره فمنهم من يأخذ سهماً ومنهم من يأخذ سهمين وهكذا فكل من دفع شيئاً كان له في الشركة حصة بقدر ما دفعه فاذا اراد احد بيع حصته او مات واراد ورثته ذلك اتوا الى هذا المحل فتكون السهام فيه كاللبضائع في الاسواق وحيث كانت الدول لا تثبت على حال بل تتغير على حسب ما يعرض للزمن من الاحوال كانت القيم ايضاً لا تثبت على حال فلا تكون في حالة السلم كما تكون في حالة الحرب لان درجة الامنية تتبع سياسة الحكومة فتعظم اذا استقامت الاحوال وتقل بعكس ذلك وفي كل حال من هذه الاحوال تتغير قيمة الاسهم فتارة تغلو وتارة ترخص كاللبضائع فقال الشيخ اريد ان استفهم منك عن امرين كثيراً ما حاك في صدري ذكرهما ولا افهم معناها الاول سمعت مراراً كلمة بنك ولم افهم معناها والثاني رايت غالب المعاملة بالورق ولم افهم تفاصيل ذلك فقال الخواجا اما البنك فهو محل من اهم محلات التجارة له رجال يدبرونه بطريقة يحصل بها النفع العام ورئيس البنك يسمى البنكير

واعمال البنك الاصلية تكون بالنقد فتارة تسلم اليه نقود

ليحفظها ويشغلها وثارة يقرض او يقترض على حسب الاحوال وثارة يطلق لفظ بنك على اماكن تجارية تشتغل ببيع الاوراق التجارية وشراؤها وتلك الاوراق مثل الاسهم في بعض شركات او اوراق الحوالات او الرجوع المالية او السندات ويكون ذلك لانفسهم او لغيرهم فحينئذ هي نوعان عمومية وخصوصية وكثير من الاعمال تجري بالاوراق بدل النقود بل قد يرغب في كثير من الامور في المعاملة بالاوراق اكثر من المعاملة بالنقود وعلى كل حال فالبنك عبارة عن الصندوق الذي تحفظ فيه اربال النقدية او التي في الاوراق

والبنكير شخص يتولى النقود التي ترد اليه ليحفظها ويسدد منها مبالغ مطلوبة لاربائها وللبنك اسمال متعددة منها ان التجار يكون لهم وعليهم فاذا ارادوا الاستراحة من العد والنقد سلموا ما عندهم من النقود الى بعض البنوك وكلما طلب منهم او لهم شيء احواله على البنكير ليستلم او يسلم ويكتب عنده فيستريح التاجر بذلك من العد والنقد والتسليم والتسلم ويستغني عن الخدمة والدفاتر التي تكثر وتقل بحسب كثرة الاموال وقلتها وقد يجتمع جملة من التجار في بنك واحد فتخف المؤنة عليهم مثلاً لو فرض ان لزيد على عمرو الف قرش وبنكيرا واحد فيكتفي زيد بان يسلم السند الذي له على عمرو للبنكير فيضيف البنكير على المطلوب لزيد الف قرش ويخصم من المطلوب لعمرو نظيرها او يكتبه عليه وهكذا بغير عد

او نقد بل بالكتابة فقط ولو بلغ المتعاملون ما بلغوا متى كان
بنكيرهم واحداً ولو فرض ان المدين لا يعلم سند المبلغ اللازم تسديده
في وقت معين تحت يد من هو فلا يلزمه حينئذٍ الا ان ياخذ من
البنكير عميله قبل الميعاد بيوم مثلاً المبلغ المطلوب منه اللازم
تسديده وبهذه الطريقة يكتفي مؤونة حفظه زمناً طويلاً ويكفي
شر غوائل كثيرة ظاهرة

وحيث كانت حركة النقدية في الدخول والخروج لا تنقطع
فلو اقتصر البنكير على حفظ ما يرد اليه وتسديد ما يلزم تسديده
بدون اعمال اخرى ربما ترتب على ذلك بقاء مبالغ جسيمة في صندوقه
بغير تربح ولهذا تجدد جميع البنوك تجديداً للنقد صنفاً بصنف
بربح قليل او كثير كما تفعل الصيارفة او يتجرون في سبائك الذهب
والفضة فيتحصلون من ذلك على بعض فوائد تضاف على المجعل
لهم من طرف عملائهم في نظير ما يجرون لهم من الاعمال التجارية
وتجارتهم في الذهب والفضة لا تضر برأس مالهم ولا باعمالهم مع
عملائهم لان هذين الصنفين مأمونان وكنهما نقود في صندوق
البنكير ولا يعسر عليه ابدالها او ضربها بل متى اراد فانه يبدلها
بنقود لقضاء الشغل ويضربها نقوداً على حسب ما يرى وزيادة
على ذلك يفعلون ما يقال له الاسكت لما يرون فيه من زيادة الربح
مثلاً لو فرض ان من ضمن عملائه جماعة لهم اعمال جسيمة
ودائماً يطلب منهم مبالغ في اوقات متقاربة لا يمكنهم اداؤها في اوقاتها

فيقدم لهم النقود بفائض معين بايام قليلة ولا بأس عليه بذلك لان ما خرج من صندوقه سيعود له في ميعاده ولكن متى رأى ان مطلوب عملائه اخذ في الريادة فلا يخرج بالاسكنت مبالغ مستحقة لحين امكان الحركة وانما يلزمه لاجل زيادة امنه في اجراء عملية الاسكنت ان يعلم ان المقترض قادر على الدفع في الوقت المعين ويكتفي في تحفظه علمه بان المقترض باع صنف بضاعته لآخر مقتدر واعطى سند الاعتراف بالتسديد في ميعاد معين فباعطاء السند المذكور للبنكير وضمانه يكتفي البنكير بذلك في الاعتماد ويسلم النقود للمقترض بعد حجز الاسكنت اي الفائدة بالنسبة للزمن المعين في السند فاذا باع زيد لعمر و بضاعة بالف غرش وشرط عمرو على نفسه ان يؤدى المبلغ بعد شهر فلو فرض ان زيدا احتاج الى دراهم وليس له مبالغ عند البنكير فانه يسلمه السند وياخذ منه الف غرش بتقص قيمة فائضها مدة شهر او شهرين على قدر ميعاد السداد الذي في السند ويحفظ عنده السند فيكون زيد وعمر ضامين للبنكير المبلغ المذكور فاذا بيعت البضاعة وحصل ربح فذاك والا ضمن كل منهما للبنكير قدر خسارته

وحيث كان الاسكنت يستلزم استعمال اموال جسيمة والبنكير يجد فيه ربحاً عظيماً فانه يجتهد في ازدياد المبالغ في صندوقه وفي طرق تشغيلها

وحيث ان بعض التجار يلزم له مبالغ دائماً لادارة حركته

التجارية والبعض ترد اليه تقود زيادة عما يلزم له ولا تسمح نفسه بتعطيلها فله فيها طريقتان، اما ان يقيمها في البنك زمناً غير معين لكن لا يكون له اخذها الا بعد نصف شهر فاكثر وفائدتها اقل من الاسكتت واما ان البنكيير يسلم اوراقاً تجارية باسكتت اقل من الاسكتت الذي استولاه

وكما ان البنك يقوم مقام شخص او أكثر من اهل البلد الذي هو به او القريب منه كذلك يمكنه ان يجري تلك الاعمال بالنسبة للبلاد والمدن البعيدة عنه بواسطة اوراق حوالة من بنك على بنك اخر بمعنى انه باشتراك البنوك بعضها مع بعض تسهل اعمال التجار الموجودين في بلاد متباعدة فاذا كان لزيد او على عمرو مبلغ وكل منهما قاطن ببلد غير بلد الآخر ويريد زيد تسديد ما عليه فانه يأمر بنكييره بتسديد المبلغ لعمرو فحينئذ ياذن ذلك البنكيير للبنكيير الذي ببلد عمرو بالتسديد فيسدد لانها شريكان او انه يسدد المبلغ لاحد بأكيرة بلده ممن يكون لهم معاملة مع البنكيير المقيم ببلد صاحب المبلغ هذه هي الاعمال الاساسية للبنوك ولهم اعمال اخر اقل اهمية من ذلك مثل تقديم مبالغ على رهن من ذهب او فضة او حجب املاك او عقارات او اوراق شركات او اوراق اسهم او اوراق بضائع ففي كل ذلك يلتزم المقرض بتسديد المبلغ في الميعاد المحدد بحيث لو تجاوزه كان للبنكيير ان يبيع الرهن فهذه العملية تشبه عملية الاسكتت انما تُغير قيمة الرهن ولذلك ربما حصل للبنكيير

خسارة ثم ان البنكير في كثير من الاحوال يفوض للسمسار فيبيع بالنيابة عن اخرين أوراقا تجارية مثل اوراق الايرادات المقررة على الحكومة لبعض الاهالي واوراق اسهم الشركات والاقتراضات المبررة وفي بعض الاحوال لا تكفي المبالغ المسلمة اليه فيخرج اوراق نقود يتعهد باستبدالها بنقود لمن هي في يده حين تقديمها له وبهذه العملية تنضاعف نقوده التجارية بين التجار ولا تضر باحد لان لكل انسان حق تبديلها بنقود متى اراد بلا نقص وبذلك تكون مثل النقود سواء بسواء فاذا حصل مبادلة جانب منها كل يوم بنقود يبقى جانب اخر منها يتعامل به وذلك يزيد في رأس ماله ويفيده ارباحا حقيقية

واعتماد ورق النقدية مؤسس على ائتمان البنكير لعملائه واعتماد الناس على صداقته واقتداره فاذا حصل ما يخل بشيء من ذلك اخنل نظام جميع اعمال البنك

وحيث ان الائتمان لا يكون واحداً في جميع الاماكن ولا سند كل احد وله اسباب حقيقية يقوى بثوتها ويضعف بضعفها كان الربح ايضاً مختلفاً ومتفاوتاً بحسب ذلك فاما كانت المعاملة بين طائفة منها مؤسدة على الائتمان ولهم عليه محافظة بحيث لا يتطرق اليهم ما يهدم شيئاً من اركانها كانت الارباح كثيرة وانجاح حاصل واذا تداعت اركان الائتمان تداءى لها النحاح واضعبل وهكذا فلذا كانت الجهات التي لا ائتمان بها اصلاً لا تتعامل تجارها الا

بالنقود فوراً وإن كثرت بها البنوكه

ويعلم ما ذكرانه يلزم أن يكون للبنك في مال البنك جزء
بخصه وذلك لزيادة الائتمان فانه يكون شبه كفيل وايضا هو نافع
للبنك في استعوانه ما عسى أن تقع للبنك من الخسران في بعض
الاعمال بسبب خطأ يقع في بعض الصرافات ويتفجع به عوضا عن
المبالغ التي تداخر عن اوقاتها لسبب من الاسباب وايضا هذا المبلغ
يزيد في اعماله وارباحه

واما امر اوراق النقدية فمخصوص بالحكومة فهي التي تامر
بنشره لبنك الحكومة ففي فرنسا يكون للبنك الفرنسي وفي
الانكليز للبنك الانكليزي وهكذا كل دولة من دول اوربا لها
بنك مخصوص هو الذي يخرج ورق النقدية ولا تخرج الحكومة
من ذلك الا قدراً معيناً بالنسبة لحال التجارة ولوازم الامال
واعتبار تلك الاوراق كاعتبار النقود في التعامل بين الناس
سواء بسواء كما تقدم لكون البنك متعمداً باستبدالها بنقد متى
اراد حاملها صرفها بدون توقف في اي مكان من امكة الولاية
فيأخذونها للمعاملة في البيع والشراء والاجارات ونحو ذلك
ويسددون بها الديون والتقاسيط الميرية المالية وفي الالتزامات
وكما وجد الناس عدم التوقف في استبدال الاوراق بالنقود
ووثقوا بذلك بقيت فيها الرغبة وحفظت قيمتها والا فلا يكفي
في الائتمان اعتراف الحكومة بتلك الاوراق فان من يده الاوراق

اذا كان لا يمكنه استبدالها بنقود او باشياء اخر نفي بقيمتها فلا يلتفت الى هذا الاعتراف فان الورقة المسطوره بها الف غرش مثلاً لا تساوي في ذاتها تلك القيمة وحيثئذٍ فلا فائدة في هذا الاعتراف اذ لا يؤثر ذلك زيادة في قيمتها فان قيمتها انما هي باعتبار المزية القائمة بها النافعة في نحو شراء ما يلزم شراؤه بالمبلغ المعين فيها كما يكون مشتراه بنقود من ذهب او فضة فما دامت بهذه المزية كانت كالذهب والفضة سواءً بسواءٍ وتزيد وتنقص قيمتها بحسب زيادة الرغبة فيها وفلتها كما يحصل ذلك في سكك النقود فان من المعلوم لكل متأمل ان قيم الاشياء التي تجعل ثمنًا للسلع انما هي منسوبة لمقادير ما تجعل ثمنًا له فان جعلت ثمنًا لسلعة جيدة ذات قيمة كثيرة كانت قيمتها كثيرة والمكس بالعكس لا فرق بين النقود وغيرها

فلو فرضنا ان ما يلزم للفرنساوية من النقود لمشتري جميع ما يلزم لهم ملياران من الافرنك يمكننا ان نعتبر ان هذا المبلغ ثابت لا يتغير الا اذا تغير اللزوم لهم من الاشياء فلو فرض تكثير النقدية الى ان تصير اربعة مليارات اي ضعف المفروض مع بقاء ما يلزم من الاشياء ثابتاً على اصله ففي الحال تنقص قيمة النقدية وما كان يشتري بفرنك يشتري باثنين فانه لم تكن الزيادة مقدار المفروض اولاً بل كانت اقل فلا شك ان قيمة الفرنك تناقص بنسبة تلك الزيادة وحيثئذٍ يمكن فرض زيادة بها تكون قيمه

الفرنك اقل من قيمة سبيكة من الفضة وزنها وزنه ففي هذه الحالة لا يتعامل بالفرنك بل يتعامل بالسبائك وساحب الفريكات لا يتعامل بها في صورة النقود بل في صورة السبائك فتضيع قيمة النقود وتضطر الحكومة لاختها من ايدي الناس فتسبكها وهذا هو السبب في انه لا يصح نقص قيمة وحدة المعاملة عن قيمة وزنها من السبائك بخلاف العكس

فلو فرض ان مبلغ النقود قد اخذ في النقص والتلة مع بقاء البضائع والسلع على حالها. مستلزما زيادة قيمة وحدة النقود مع بقاء الاشياء اللازم مشتراها على حالها لزدت قيمة وحدة المعاملة فتكون قيمة الدرهم مثلاً من نوع المعاملة اكثر من قيمة وزنه سبيكة خالصة فترجح الحكومة فيما تضربه من النقود وقد ترغب الناس في ضرب السبائك وتكثر المعاملة بها من جهة اخرى

وبعض الحكام لا يرغب في ضرب النقود زيادة عن طلب الدولة والبعض يحب ان يرجح ربحاً قليلاً واخر يضربها بالخسارة فكما كثر المضروب منها نقصت قيمتها فتوءخذ وتسبك ومن كل ذلك علم ان وحدة المعاملة لا يلزم ان تكون اقل ولا اكثر من قيمة ما يعادها من السبائك وقد صار معلوماً لحضرتكم ان النقص الذي يعتري النقود لا يمكن ان يصل الى ان يكون اقل من قيمة وزنه سبيكة لانه في هذه الحالة يسبك ما يلزم منها حتى تقل كمية الموجود منها وترفع القيمة الى ان تعادل مع السبيكة

او تزيد عنها وهذا لا يمكن اجراءه على ورق النقدية اذا كثرت
الحكام منها حتى يتعدى مجيوسها مندار اللازم وحينئذ يعتري
المبالغ المقررة فيها ما يعتري المعاملة من الرواج وعدمه وانما اضرب
لك مثلاً يزيد المسئلة وضوحاً وكفاً

وهو انه في مدة الحرب التي كانت بين الانكليز وفرنسا اقترضت
الحكومة الانكليزية من البنك الانكليزي مبالغ جسيمة فاوّل
اقتراض استوفى جميع المودع عند البنك من اموال العملاء وكان
اثني عشر مليوناً من الجنيه تقريباً فلم ينشأ منه ضرر للبنك وانما
نشأ الضرر لما اضطرّت الحكومة الى الاقتراض مرة اخرى وطلبت
مبلغاً من البنك يقرب من احد عشر مليوناً من ورق النقدية ولم
تدفع في نظير ذلك شيئاً الا الاستراف به وفرضت على نفسها فايضاً
تدفعه كل سنة وصارت تصرف من الورق ماهية المستخدمين
واثمان المشتريات وغيرها مما يلزم حتى زاد مقدار مبلغ النقدية
فنقصت القيمة وبسبب ان نوعي الذهب والفضة حافظان لقيمتها
دائماً لم يقع النقص الا في معاملة الورق

ومن ذاك العهد صار بين الناس نوعان من المعاملة اسمها
واحد بقيمتها مختلفة كما يقولون عندكم معاملة بالتعريفة ومعاملة
بالصاغ فهرع كل من بيده اوراق في الحال الى البنك لتغير اوراقه
فاشكل الامر على البنك وطلب اربابه من الحكومة حل هذا
المشكل لان البنك لا قدرة له على الوفاء بما وعد به الخلق

ولما كانت الحكومة قد تصرّفت في القيمة قدمت القضية للعباس فصدر الاذن للبك بان يتوقف عن استبدال الاوراق بالنقود ورخص في تسديد الديون بتلك الاوراق وحيث انه لا يصعب جعل نقود من الورق لعدم الكلفة في ذلك شر من تلك الاوراق مبالغ حسيمة فكبرت اسما مبالغ العملة التجارية في البلد وزادت عن الحد فنزل سعر الورق بسبب ذلك نزولاً فاحشاً وسببه انا لو فرضنا ان اللازم لدولة الانكليز ثلاثون مليوناً من صنف الجنيه يقضون بها ما يلزم لهم وفرض زيادة المبلغ الى اربعين مليوناً فلا تكون قيمة ذلك الا ثلاثين مليوناً بمعنى ان القيمة تنقص قدر الربع ولما اكثرت الانكليز في تلك المدة من نشر ورق التقديّة ترتب على ذلك ان صارت الورقة التي تقابل جيبها لا تساوي غير ثلاثة ارباعه تقديّة ففي ذلك الوقت اخذت قيمة الذهب والفضة في الزيادة لفظاً فاقوة الفضة التي كان ثمنها قبل توقيف صرف قيمة الورق خمسة من الشلبن واثنين من البنس صارت بعد التوقيف تساوي سبعة من الشلبن واربعة من البنس وغلا سعر اقوات الاهالي وضرورات معائشهم بنسبة ذلك

وحيث كان مصرف الحكومة دائماً في ازدياد اكثرت من الاقتراضات وازدياد اليكون المطلوب منها من دون ان يزيد المطالبون لها من قبل لان الفوائض المقررة انما هي ارباح لمبالغ قديمة قيمة وحدتها عالية ولما تيقظت الحكومة لهذا الامر الفظيع

وارادت حسبه لم تجد لذلك الا احد طريقين الاول ان تجعل
 قيمة جنيه الذهب قدر القيمة التي صار اليها جنيه الورق
 وحيث ان الجنيه الورق كان في سنة ألف وثمانمائة واربعة
 عشر لا يشتري به الا مائة حبة وثمانى حبات من الذهب الخالص
 والجنيه الذهب القديم كان يشتري به مائة وثمان واربعون حبة
 فحيث كان يكفي ان يحمل قيمة الجنيه الذهب مائة وثمانى حبات
 وضرر هذا الطريق ان الذين لهم على الحكومة ديون من قبل
 يستولون بقيته اقل من النقود التي دفعوها وهذا ضرر عظيم
 على الناس مع ان الامر المهم هو اجراء الطرق الموحجة لتخفيف
 انتقال الاهالي بحيث لا يدفعون لمن اقرضوا الحكومة مدة النقص
 دراهم قيمتها على ما اخذ منهم

والطريق الثاني ان تقص مبالغ الورق بقدر ما يلزم لرد
 قيمة الجنيه الذهب الحقيقية اليه بحيث ان الجنيه الورق يشتري
 به مائة وثمان واربعون حبة ذهباً خالصاً وهذا الطريق هو الذي
 اتبع وجرى العمل به ثم بعد الصلح نقصت مصاريف الحكومة وصار
 توقيف ضرب معاملة الورق وصدرت الاوامر لبك الانكليز بجمع
 كثير من الاوراق واستبداله بنقود فاخذ الجنيه الورق الزيادة
 حتى رجعت قيمته لاصلها ولكن بعد خسارات كبيرة على الحكومة
 لان دين الحكومة ازداد زيادة فاحشة بسبب قلة قيمة نقود الدين
 الذي عليها عن قيمة النقود التي دفعتها في التسديد وكذلك

المستأجرون خسروا ايضا في اجاراتهم لانهم استاجروا بالمعاملة
النازلة وسددوا بالمعاملة العالية

ولما اخذت قيمة الاشياء في التنازل ثانيا بعد هذه الحركة
كان المستأجرون يدفعون خراج الارض بزيادة وبيعون باقل
وزاد الخراج ايضا بقدر الثلث لانه مقدر بالصف ولا مدخل
للقيمة فيه فحسر ارباب الزرع خسارات جسيمة

كل ذلك والشيخ مصغ كدلام الخواجا لما فيه من بيان علوم
لم يكن يعلمها

وبينا ها كذلك اذا برجل اقل فكلم الخواجا سرا فنهض قائما
وقال للشيخ لا تواخذني فان هذا الرجل اخبرني بان الحكيم
قد حضر بالمنزل فلزمني التوجه اليه فقال الشيخ لعله خير قال ان
ولدي متغير المزاج منذ ابام ولكم بخير ثم انصرف

فقام الشيخ وركب العربة ومعه ابوه ويعتوب فلما استقاموا
في الطريق قال الشيخ لاشك ان امور اوروبا كلها عجيبة ولهم
افكار واختراعات نافعة غريبة وانظر كيف اسلوا النكر في تحسين
امور الدنيا واختروا لها طرقا بها اتسعت دائرة التجارة بيدهم فان
ما ذكره حضرة الخواجا من طرق النيسر والسهولة التي سلكوها
واستعملتها ارباب البوكة قد هوّن امر المتجر على كل انسان
وتيسر لكل شخص صادق حسن الادارة فيها يتجرب به من التدية
ولكن لا ادري هل هذه البوكة من ابداع الكور بازين ام هي

امر قديم اخذه الاور وباويون عن سبهم
فقال يعقوب ان معلوماتي بالنسبة لذلك غير كثيرة ومع هذا
اخبر حضرتكم بما اعلمه في هذا الشأن

وهو ان الكنعانيين في المدة الماضية كانوا يستعملون
البنوكة في امر التجارة ولكن لم يصلنا عن ذلك خبر شاف يوثق به
والذي اتحققه ان الاثنيين كانوا يعرفونه ويتعاملون به وكان
عناهم هم الذين يتولونه وبذلك كانوا يتصلون على اموال جسيمة
ويبلغون درجات عالية بسبب كثرة النقود وكان تعاملهم بالتقد
فقط فكانوا ياخذونها برمج معلوم ويقرضونها برمج غيره على رهن
وضمانات كما تفعل البنوكة الان فيتمصلون على ارباح كثيرة

واما البنوكة التجارية فلم تظهر الا في القرن الثاني عشر من
الميلاد ببلاد الناديك وسبب ظهورها جماعة من التجار كان لهم
مبالغ عظيمة على الحكومة فانفقوا على ان يجمعوا سندات تلك
المبالغ ويتعاملون بها في تجارتهم كما لو كانت الحكومة صرفتها
وحيث كانت الحكومة تدفع فائضا لمبلغ الدين كان ذلك
الفائض يتقل مع الدين من تاجر الى اخر تبعاً لحوال التجارة
ومن لا اخذه ولا عطاء ياخذ فائض مبلغه من البك بدون
استئذان الحكومة

ثم ان تلك الطريقة انبعثت في اغلب البنوكة التي ظهرت
فيما بعد وجري بها السهل في بعض البلاد مثل بلجيكا وهولانده

ونحوها والغالب ان المعاملة كانت اولاً بالقود ليس الا واول ظهور ورق النقد كان ببلاد الانكليز في بسكها الذي ظهر سنة الف وستائة واربعة وتسعين ولم يتحقق استعمالها قبل ذلك وفي تلك المدة كان المعلوم ان جميع الاختراعات اياً كانت انما هي حق الحكومة سيما ما يتعلق بامر التجارة وسبب انشاء البنك الانكليزي هو ان الحكومة رغبت في اقتراض مليون والف جنيهه انكليزي فانشأت البنك المذكور وخصت من يدخل في الاقتراض بمزايا للترغيب منها انها جعلت لهم فائضاً في كل مائة ثمانية كل سنة ومنها انها رخصت لهم في الاستيلاء على مبالغ من يرغب تنمية ماله عندهم ومنها ان لها ان تقرض من شاءت وتجري الاسكت في اوراق التجارة كالسندات وورق الحوالات ومنها ان لها ان تخرج ورق نقدية تدفع مبلغه نقدا حين عرضه عليها ومنها انها تحول عليها اموراً ميرة في مقابلة ربح معلوم وقد جعل في الاصل مياعدها ١٢ سنة لكن لما ظهر للحكومة من ذلك فوائد صارت كلما انتهى الميعاد تجددته حتى كانت سنة الف وسبعمائة وثمانية فثبتت على ما هي عليه الى الان وكانت البنوك كلها تجددت المواعيد تتصل على مزايا جديدة بمرور المبالغ اليها بكثرة حتى صار البنك تقريباً هو القائم باحوال التجارة والحكومة ووصل راس ماله قريباً من خمسة عشر مليوناً من الجنيه الانكليزي وهذا القدر كان دائماً ديناً على الحكومة وكان ذلك اشبه بالضمان للبنك

وزيادة قوة في اعتماد الناس واثمانهم له وبهذا السبب كانت
البنوك كأنها مشاركة للحكومة في امورها حتى كان كل اضطراب
وتقلب يحصل حساساً كان او قبيحاً اذا تأثرت منه الحكومة يتأثر منه
البنك ايضاً

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وتسعين لما حصل توقف في
دفع قيمة الورق للبنك نقوداً حصل له اضطراب عظيم وصارت
البنوك تشبه فوريقة ورق لانها كانت تنشر ورق النقدية بحسب
احتياج الحكومة ولذلك حصل في قيمته نقص كما ذكر لكم حضرة
الخوaja واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة واثنين وعشرين
والمنافع التي عادت على الحكومة في تلك المدة لا يمكن حصرها
ومتوسط ما اقترضته الحكومة من البنك يقرب من خمسة وثلاثين
مليوناً من الجنيه الانكليزي ومع هذا لم تقف حركة التجارة وكان
الاسكت جاريّاً انما نزلت قيمة ورق النقد قريباً من خمسة
وعشرين في المائة وقد حصل الاذن من الحكومة للبنك الانكليزي
في اخراج اوراق نقدية تقدر اربعة عشر مليوناً من الجنيه فقط واذا
زاد مبلغ الورق عن ذلك يلزم ان يكون له مقابل من النقد
العين او من السبائك في صندوق البنك

وفي سنة الف وثمانمائة واربع واربعين انقسم البنك الانكليزي
بمقتضى الاوامر الملكية الى بنكين الاول استلم الصنف الموجود في
البنك والسندات التجارية المتضمنة للاربعه عشر مليوناً من الجنيه

منها ما يقرب من اثني عشر مليوناً على الحكومة وجعل لها ان يخرج ورق نقد بقدر الاربعة عشر مليوناً سندات مضافا عليها قدر الصنف وللناس ان يشتروا منه ورق النقد ويدخلونه بصنف عين فالواقية من الذهب الذي عياره اثنان وعشرون قيراطا بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وتسعة ديناريو والواقية من الذهب السبيكة الذي عياره كالسابق بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وعشرة ديناريو ونصف والقسم الثاني يأخذ من الاول بمبادلة الذهب باوراق النقد اسوة لاهالي سواء بسواء

ومن ابتداء هذا التاريخ صار منع البنوك من اخراج ورق نقدية مطلقاً واذا اجتمع بنكان صغيران فلا يتعدى ما ينشرانه من الورق قدر ما كان ينشره واحد منهما قبل صدور الامر ويمكن البنك الانكليزي ان يزيد في تكثير البنوك التابعة له على حسب رغبته في تكثيرها في جميع الجهات بدون تغيير قدر مبلغ الورق المخصص له واذا ابطال البنك الكبير احد البنوك الصغيرة فله باذن من الحكومة ان يضيف الى نفسه ثلثي ما كان بطل منه

وعدد البنوك التي في المديرية التابعة للبنك المذكور ستة الف وثمانمائة وثلاثة وخمسين احد عشر بنكا عمومية غير مائة وسبعة وستين بنكا خصوصية توجد ببلاد الانكليز وبلاد الغال من ضمنها خمسة وستون بنكا لها الاذن باستعمال ورق النقد ولها بنوك بجميع

الاقطار الانكليزية متفرعة عنها عددها ثلثائة وواحد واربعون
بنكا

اول بنك حدث ببلاد فرانس انشاء رجل انكليزي سنة
الف وسبعائة وستة عشر وفي اول الامر حصل له رواج ولكن
من تسلط الحكومة عليه وعدم انقطاع طلباتها فسد حاله وبطل
وبقي الامر على ذلك نحو ستين عاما ثم صار تنظيم صندوق
الاسكت وكان رأس ماله خمسة عشر مليوناً ليوراً تورنوا منها
عشرة ملايين اخذتها الحكومة قرضية بشرط دفعها على تقاسيط
سنوية ولكن بسبب قلة الائتمان وعدم الصدق في كلام الحكومة
لم يحصل نجاح هذا الامر الا بعد صرف نظرها عن اقتراض هذا
المبلغ من الصندوق المذكور

وعلى مقتضى الامر الصادر سنة الف وسبعائة وتسعة وسبعين
جعل رأس المال اثني عشر مليوناً وربع في المائة اربعة في السنة
في حال السلم واربعة ونصف في حال الحرب

وفي سنة الف وسبعائة واثنين وثمانين كسد حال التجارة
فتأثر من ذلك صندوق الاسكت ولكن دفعت الحكومة له ما
كان عليها نقداً فانصلح حاله واستمر على هذا الامر مدة ثلاث
سنين حتى حصل لكل سهم في السنة خمسة عشر ونصف

وفي سنة الف وسبعائة وسبعة وثمانين صدرت اوامر يجعل
رأس ماله سبعين مليوناً ورخص له في شراء ورق النقد والتجارة

ومدوا لذلك ميعاداً ثلاثين عاماً واقتضت منه الحكومة سبعين مليوناً فحصل من ذلك وقف المال بسبب عدم امكان الصرف لارباب الورق لوقته

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية وثمانين صدر امر بعدم صرف نقدية في مقابلة اوراق واستبدالها باوراق تجارية من عنده ولكن من كثرة طلبات الحكومة وازدياد كمية ورق النقد حصل اضطراب عظيم نشأ منه توقيف العمل والدفع واستمر ذلك الى قيام حرب الفرنسية وبعدها ظهرت بنوكة تعاملت في بعض الامور التجارية واول مظهر صندوق الحساب الجاري سنة الف وسبعمائة وستة وتسعين وبعده سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين صندوق التجار وترتب على ذلك نزول سعر النقدية من تسعة في المائة الى ستة وراج امرهم رواجاً عظيماً ورجحوا من دون ان يسمع بما يخل بامانهم وما ذاك الا لكونهم غير مرتبطين بالحكومة ولكن لما ظهر للحكومة ان من الضرر ري وجود بنك تستمد منه شرع بونابرت الاول ايام قصصاته في تشكيل بنك سماه بنك فرنسا على نسق بنك الانكليز وجمع له جملة من البنائين المشهورين ولاجل ان ياتئهم الناس دفعت له الحكومة خمسة ملايين فرنك قيمة خمسة الاف سهم فدارت حركة البنك وجرى فيه الاخذ والعطاء وكان هناك بنك باسم صندوق الحساب الجاري وكان التجار والناس يعتمدونه فجمعت الحكومة الاثنين وجعلتها بنكاً واحداً وكان ذلك في سنة

الف وثمانمائة ثقبوا في اول سنة كان عددها اخذ من الاسهم سبعة الاف وخمسمائة ثم ارداد حتى بلغ خمسة عشر الفا ومبلغ ما صار اسكنته مائة وواحد وعشرون مليوناً في نظرف سبعة اشهر ونصف وفي السنة الثانية بلغ مائتي مليون وخمسة وفي السنة التي بعدها بلغ اربعمائة مليون وثلاثة واربعين مليوناً وكن كل بنك بنشرا وراق النقدية ولم يحصل من ذلك ما يجمل بالاخذ والاعطاء انما في سنة الف وثمانمائة وثلاثة صدرت اوامر الحكومة بجعل ذلك مخصوصا بالبنك الفرنسي فحصل الحق بعض البنوك به وكانت مدة الرخصة خمسة عشر عاماً ومبلغ رأس المال خمسة واربعين مليوناً والربح في المائة ستة في السنة وما زاد من الربح يحفظ في البنك

وحيث كانت الحكومة دائماً تتداخل في امور البنك كان سير البنوك غير مستقيم فكان في بعض الاوقات يحصل الكساد ويقل الامن واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة وستة ثم بين بونايرت رئيساً للبنوك جعل معه وكيلين وحدد لها حداً تسير عليه وجعل رأس مالها تسعين مليوناً وحدد الميعاد الى خمس وعشرين سنة ورخص في احداث بنوك في المدن تبعاً لهذا البنك ولكن بسبب ما ظهر للحكومة من عدم الثبات مع الخوف الذي كان يعتري الناس لم يحتمل رواج وتعطلت البنوك وخسرت وبقيت اكثر مبالغها بصناديقها بدون عمل وكان هذا

الاضطراب يكثر ويقل الى سنة الف وثمانمائة وثلاثة ثم تحصلت البنوك على حريتها واستقلالها بالنظر في امورها كما تشاء وسعد البنك الفرنسي من بين البنوك بنشر اوراق النقدية فصارت اغلب المعاملات واردة على هذا البنك في المدن وفي المديريات فحصل الضرر افيده من البنوك واستمر ذلك الى ان حصل التيام الذي كان سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين فصدر الاذن للبنوك الاخر بنشر ورق النقدية فكثر نشر الورق وحصل كساد عمومي فيه وتقصت قيمته فصدرت الاوامر ثانية باستئلال البنك الفرنسي به واستمر الحال على ذلك الى الان ومن ذاك الوقت انتظمت امور التجارة

وفي سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين صدرت اوامر بامتداد ميعاد الاوراق الى سنة الف وثمانمائة وسبعة وتسعين ورخص لهم في مبلغ واحد وتسعين الفا ومائتين وخمسين سهما مستبدة وبهذا زاد رأس المال عن اسله وسبب هذه الزيادة رغبت الحكومة في اقتراض مائة مليون وبقي ما كان لها من المزايا على اصله وزيادة على ذلك صار يمكنها تشكيل بنوكها في المديريات لكل بنك مجلس ومدير يتعين بمعرفة مجلس البنك ويكون مقبولا عند الحكومة وعدد اعضاء المجلس المذكور يختلف من ستة الى خمسة عشر ومن ثلاثة مفتشين منتخبين بمعرفة مجلس البنك الفرنسي واما الاعضاء فتعينهم بمعرفة الحكومة ايضاً من خمسين منتخبين

من كبراء ارباب الاسهم الذين في الجهة التي بها البنك ويقدم
المجلس اسماءهم للحكومة في عريضة فتنخب منهم من يصلح
ويوجد ايضا بنكان شهيران غير البنك الفرنسي وفروعه
احدهما لتسهيل امر القرض على مرهونات العقار والاراضي والاخر
لتسهيل الاعمال المهمة مثل انشاء ورش او معامل او سكك حديدية
وما اشبه ذلك

وبينا هم في هذا الحديث اذ وصلت بهم العربية قريبا من
العين فنزلوا ومشوا الى ان وصلوا الى المعين فقال ابن الشيخ اني
من الامس الى هذا الوقت لم اسمع الا الالاف المؤلفة من الجنيهات
الانكليزية وكذلك لا نرى في بلادنا الا دراهم مضروبة بالبلاد
الاوروباية واغلب معاملة بلادنا بالجنيه الانكليزي والبتو والريال
اي مدفع والبي طيره والسينكو وكلها مضروبة باوروبا
ولم يضرب ببلادنا غير الجنيه والريال المصريين والمحيدبين
مع سزة وجودها وقلة المماثلة بهما فمل اخرجت الارض كموزها
للاوروبايين ام تحولت اليهم كنوز كسرى التي كان حازها ام
عثرنا على ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد
فقال يعقوب الكلام في هذه المسألة متوقف على مراجعة رسالة
كنت جمعتها فاذا رجعنا اطلعنكم عليها وفيها بيان ما استخراج من
المعادن في القرون الخالية وما استخراج منها في القرون التالية ما وحدته
في كتب المؤرخين ودفاتر الاحصاء المحفوظة في دفتر خانة الحكومة

المسامرة (١٠٧)

الموام والدواب



فاستحسن الشيخ منه ذلك ثم انهم وصلوا الى الغابة فدخلوها
وطافوا في ارجائها وكان الجو صاحياً والوقت معتدلاً وظل الاشجار
قد رسم على الارض رسوما يضيء ما بينهما من نور اشمس كبساط
مكمل بالجواهر وعلى حسب شكل الارض من انبساط او تكور
مع تقارب الاشجار تباعدها يظهر للظل ضوء حسن وصور اشكال
مختلفة بتغير الواعف في وصفها وكان النسيم يحرك اغصان الاشجار
فياخذ من رطوبتها ويسير على وجه الارض فتنتعش به الارواح

وينشا عنه الانبساط والاهتساح وبسبب ذلك كان مشبههم على الارض هوناً هيناً وكانوا اذا تعبوا جلسوا على بساط الارض ١: خضر وتوسدوا احجاراً ملمساء تشبه المرمر فكان الشيخ يعجب من اتساعها وتنوع اشجارها وكان لا يعرف اكثرها ويقف عند كل شجرة تعجبه ويسأل عنها يعقوب فيذكر له ما يعلمه وكثيراً ما كان لا يقدر على وصف اشجار لا يعرف اسمها وكان يحجل من ذلك ويعتذر للشيخ ويقول ايها الاستاذ ارجوك ان تغفر لي ذنب جهلي فان معرفة جميع النبات والاشجار واسماؤها ومافعها وخواصها علم كالبحر بلا ساحل وله رجال مضت اعمارهم في تدوين كتبه وانا لا اشك في ان اللخوجا بهذا العلم معرفة تامة فان هذا الفن من ضمن ما يقرأ بالمدارس واما انا فلم ادرسه والذي عرفته منه انما استفدته من المطالعة فقط فكان قليلاً جداً والفضل في ذلك للسائح الذي عطف الله قلبه عليّ فاني بعد دخول اخي الدير رجعت الى لوندره فاقمت عنده مدة وسافرت معه اسفاراً في جهات شتى وكان لي بمنزلة الوالد ولعلمه الرغبة مني في حب الاستفادة كان يعلمني من معلوماته فحسن امري وانطلق لساني وانزته منزلة ابي بل اعظم فمضى عليّ خمس السنوات التي اقمتهامعه كأنها ساعة من نهار لحسن معاشرته وكنت اود ان اكون بقية عمري في خدمته ولكن الدهر حال بيني وبينه وبعد ان كنت مؤملاً ان لا افارقه قطع املي وهدم من معيشتنا لذاتها

ففاجأه هادم اللذات ومفرق الجماعات ففارقني انسي وباليبت
 غض الدهر عنا طرفه ولم يتخذ التفريق بين الاحبة حرفة ومذ
 حكم الله عليه بالموت وهو بائباليا تجددت احزاني وهاجت اشبابي
 ولعبت بي ايدي المحادثات وعرضت لي آفات البليات فانخذت
 صنعة الملاحة وجبت من البجار كل ساحة وطفت جميع البلدان
 لاخبر من فيها من السكان فلم اجد بعده دلاً اركن اليه واعول
 في مهائي عليه فاسال الله ان يغمر في رحماته ويتجاوز عن سيئاته
 ثم هطلت عنباه بالدموع فاخذ الشيخ يهون عليه حتى هدأت
 عبراته ثم قال ايها الاستاذ اني لما تذكرت من كان محسناً الي لم
 اتمالك من البكاء عليه حيث حرمت من النظر اليه
 فقال له الشيخ هذا بعض ما يجب لصاحب المعروف على الحر
 البر العطوف

ثم ان يعقوب خشي ان يضل عن الطريق فعاد راجعاً الى
 مبدئه فوجدوا ربوة مظلمة بالاشجار مُعشوشة فجلس الشيخ فيها
 ليستريح فجعل ابنه يتأمل في جميع اشجارها ويعجب من عظم كل
 شجرة ووقف عند شجرة من شجر البلوط قد اخذت غاية الارتفاع
 وبجانبها شجرة صغيرة لا ورق بغصونها وعليها دواب صغار
 لا تحصى فتأملها فوجدها تاكل من الاغصان جلدها والتفت
 فوجد من جنسها فوق اغصان اشجار اخرى ووجد بعض تلك
 الدواب يمشي على الارض الى اشجار فيصعد عليها فقال ان في

مصر بعض دواب تأكل الزرع الأخضر واخرى تأكل ورق
الشجر وفي بعض السنوات تكثر على شجر الكه فتضرها ضرراً
عظيماً ولكن لاشبه بينها وبين هذا الدواب

فقال يعقوب ان لهوام المصرة بالاشجار لا تحص عددًا وتختلف
انواعها باختلاف انواع الشجر والبقاع وفي بعض النين تتجاوز
الحد في الكثرة ببعض الجهات وتقل في جهة اخرى فمن يدخل
احدى غابات امانيا يسمع لتلك الدواب صوتًا منتظمًا يحصل من
قصرها غصون الاشجار واورقها فيخرج غالب الناس اليها
وينتشرون في ارجاء الغابة ويقسمونها بينهم ويضربونها من كل جهة
ولكل فرقة من الناس رئيس ومعهم مزاريق وعصي طوال كانتهم
خارجون لمقاتلة الاعداء وفي بعض الجهات يشتغل كثير من
الناس بحفر خنادق عميقة في محاذة الطرق والمحدود بمدونها الى
مسافة بعيدة للفصل بين اجزاء الغابة او بينها وبين ما يجاورها
لمنع الدواب عن الاشجار المخالفة منها وبالليل يظهر نوع اخر
منها يعرف بمصر بابي الدقيق او الفراش اذا رأى النور اسرع اليه
حتى يحرق نفسه في النار فلاجل قتله يشعل الناس النار في
الاشجار فيرى من يطوف بالغابة في كل قسم شجرة او اكثر
مشتعلة بالنار لها لهب ودخان صاعد نحو السماء بحيث تضيء من
كل جهة والدخان متكوّن كالسحاب العظيم فوق الغابة وقرب
الاشجار انخاص لتقوية النار وايقاد غيرها اذا افضت الحال ذلك

فيكون حال مرج وبأسف من يراه على انلاف هذه الاشجار العظيمة وما فيها من الخيرات ولا يسعه الا التفويض لقدرة الحكيم جلّ وعلا فان الانسان لا يدرك الحكمة في تسلط هذه الهوام على اعمال الانسان وانلاف ما به منافع من هذه الاشجار وغيرها وعلى صغر هذه الهوام واحتقارها بالنسبة للانسان لا يمكنه التخلص من ضررها وفي بعض الاوقات تضطرب اهل البلاد ويخرجون جميعاً رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً ويتفرقون في ارجاء الغابات ومعهم عصي وحراش وشاميط لقتلها وتارة يحفرون خنادق فتقع هذه الدواب حين عبورها بالخنادق فتكون طبقة عظيمة سميكة فيهيلون عليها التراب

ثم قبض على دابة صغيرة مما على شجر البلوط وقال هذه تاكل خشب الشجر وتدخل فيه وتحفره خطوطاً حتى ينلف كله وتجعل هذه الخطوط التي حفرتها بيوتاً لها بين الخشب والتشر تبيض فيها وتفقس ويقال ان الانثى تبيض من خمسين بيضة الى مائة

واغلب هذه الدوبيات يكثر ظهورها في فصل الخريف وفي بعض الاوقات يتكون في الجو منها طبقات تمتد امتداداً عظيماً في هذه البلاد بحيث تكون كالجراد في بعض الجهات والخنازير تأكل هذه الديدان وتنكب عليها ولذلك هم يستعينون بها على انلافها يأتون بالخنازير في شهر اغسطس الذي تنزل فيه الديدان

من فوق الاشجار لنسكن جوف الارض او تحت الحشائش فيوزعونها
في داخل الغابات فكما نزل دود من فوق الشجر التقطته واكلته
ومن هذه الهوام صنف صغير الحجم له جناحان عريضان
بالنسبة لجثته يطير بها في بعض الاحيان ويسمى بين الاهالي
بخرق الاذن ويزعمون انه يدخل في اذن الانسان ويخرقها ويسكن
في الخ كذلك ولكن هذا غير صحيح وانما سبب هذه التسمية انه
يوجد في محل الذيل لذلك الصنف شي كالآلة المستعملة في
خرق اذن البنات وهذا الصنف يكره الضوء ويقتات من الفواكه
والازهار كالورد وغيره والاثني منه تبيض وتجعل بيضا تحت
ورق الشجر مجتمعا وترقد عليه كما يفعل الدجاج واذا حصل له
تفرق بعث احد فيه مثلاً فانها تنقله الى محل اخر وتضم بعضه
الى بعض وترقد عليه الى ان يفقس فيكون اولاً ديداناً صغيرة
جداً لا تعجب ما وراءها فتحنو عليها الام بالشفقة والتربية الى ان
تأخذ لوناً اسمر فتبقى على هذا اللون وتستغني عن امها ومنها صنف
يكون عادة فوق غصون الاشجار ويقتات من صيد الدويبات
الصغيرة ولا يضر بالشجر ويتميز عن الجراد بطول جسمه وعظم
اجنحه وهو بطيء الحركة اخضر اللون مشرب بصفرة يشبه لون غصون
الاشجار التي يعلوها بحيث لا يفرق الناظر بينها وهذه الدواب كثيرة
التحيل فاذا ارادت اقتصد دويبة دنت منها مع السكينة والاحتباس
حتى اذا كان بها قدر مد ذراتها وثبت عليها وامسكتها

فتدخل في جسمها كثيراً من الشوك الذي يديها ورجليها فتهلكها
وتأكلها وتعرف بمصر بفرس النبي وتسمى أيضاً المقدسة لأنها ترى
في غالب الآراء رافعة نصفها الأعلى عن الأرض كهيئة المبتهل
وبعض الناس يقول أنها تهدي المسافر للطريق

ومن الدويبات التي تأكل أوراق الشجر دويبة طويلة
دقيقة ذات أرجل طوال جداً لا فرق بينها وبين أسود الورق
ولذا لا يميزها الناظر إذا كانت فوقها وهي بطيئة الحركة وإذا أدركتها
الشمر في سبرها وقفت ومادت ذراعها وسبب نخافتها تسميها
الاطفال العصا الماشية أو شجرة الشيطان

ومنها ما يكون له اجنحة يطير بها وتسميه الأهالي في بعض
الجهات الورقة الطائرة

وأشنع جمع هذه الدويبات الطاطة ذات الوثوب
التي منها جمع اجناس الجراد لها أيد وأرجل طويلة معظمها
وثوبها ولها صوت يسمع متى كانت الشمر فوق نصوص الأشجار
وتألف الشمر وحاف إذا كثر وهي نوع كثيرة وفي البلاد
الجبلية تجتمع بكثرة في المندق التي بها النيات والعشب ولها
نفات مخصوصة نمدطلة الذكر ثلاثة أو اثني للذكر عند
استغاثتها بذكرها من ذكر اجني يحاولها وتحدث هذه النفات من
حك أرحلها على ثوبها الذي فوق جسدها وبحسب اختلاف قوة
الاضكاك تختلف قوة النمر كما أرفدت الشمر فوق الأفق

قوي النغم وكلما مالت للغروب او قريت درجة البرد ضعف
وكثيراً ما تكون هذه الانغام غير مسموعة لنا وتكون مسموعة
لجنسها فقط والذي يكون منه - اذ انغم ظاهر بحيث نشعر به لا
يهوى الا البلاد الباردة وعكسه يهوى البلاد الحارة وكل من
نظر الى هذه الدويبات العجيبة الشكل استحسنها واعجبه شكلها
ولونها الاحمر والازرق وعادة تكون قليلة ولكن لاسباب لا
نعلمها مثلاً جوفها من المواء في بعض الاوقات وتساخر الى البلاد
الشاسعة ويحصل منها ضرر كبير وقد ملئت بذكر مضارها
الصحف في الازمان الماضية والمحاضرة وعرف الاقدمون منها نوعين
ينسب اليهما تلف اصناف المزروعات احدها وهو الاكبر يعرف
بالجراد السياح ويكون غالباً في السواحل الغربية من افريقية
وفي سواحل الصين واثانيها وهو الاصغر يظهر باوروبا لكنه قليل
وفي امريكا والاوسترا لي يظهر نوع من الجراد غير كثير الاذى ولا
يكثر نوعه كالبقية والذي بافريقية يتقلب من حين فقه الى كبره
في خمسة اطوار فالاول بعد خروجه من بيضه بخمسة ايام والثاني
بعد الاول بستة ايام والثالث بعد الثاني بثمانية ايام وفي هذه
الثلاثة يكون بدون اجنحة اصلاً ثم الرابعة بعد الثالثة بتسعة ايام
فتبدو الاجنحة صغيرة والخامسة بعد الرابعة بسبعة عشر يوماً تكون
تامة الاجنحة فتتكامل منها القموى بعد خروجه من البيضة بخمسة
واربعين يوماً

المسامرة (١٠٨)

الجراد

فقال الشيخ ان الجراد آفة واذا حل بجبهة اهلك المحرث والنسل وقد حل في بعض السنوات ببلادنا فانتلف اشياء كثيرة حتى ان الحكومة اخرجت الاهالي لجمعه وجعلت لم جعلاً على ذلك فجعلت على كل افة منه قرشاً

فقال يعقوب كتب التاريخ مشعونة بذكر الجراد وما حصل منه من المصائب وهو غالباً يظهر من صحراً بلاد العرب والشار فان الريح المشرقية تأتي به الى افريقية واوروبا وكثيراً ما تكون

سفن السياحين في البحر مغطاة به فيكون فوقها كالسحاب ويكون
ممتداً فوق البحر مسافة بعيدة وأكبر مساعد له على السير هو
الريج

وفي سنة الف وسبعائة وثمانية وأربعين وصلت جيوش
الحجراد بلاد الانكليز حتى تعطل جيش شارل الثاني عشر عن
السير بعد كسره في بلتاوا من بلاد البسارابي فمن كثافته كالسحابة
لم يتمكن الناس ولا الخيل من السير وقد تغير نور النهار بظلام
شديد

وقد رأى الناس في بلاد الهند وبلاد ميرات سحابة من الحجراد
طولها ثمانون ملقة وسمكها عدة اقدام وذكر بعض السياحين انه
يكثر ببعض جهات افريقية في بعض الاحيان حتى يكون سطح
الارض والانهر مكسواً به بحيث لا يتمكن الانسان من وضع
قدمه على الارض من كثرة الرم

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وثلاثين اخشب نور الشمس
والقمر عن ارض الصين بسبب سحابة منه حتى اهلك المزروع
ثم اهلك ما في المخازن وملبوسات الخلق داخل بيوتهم ولم يسع
الناس الا الفرار الى رؤوس الجبال

وفي سنة الف وسبعائة وثمانين نشاء منه فحط عظيم ببلاد
مراكش حتى اكل الاهالي اعواد النبات وجذوره وحب الشعير
الذي في ارواث البهائم وبعير الجمال

وفي آخر سنة الف وثمانمائة وأربعة وستين نزل ببلاد
السينيجال فاهلك جميع محصولها وشوهد منه في الجو سحابة طو لها
خمس عشرة ملقة

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وأربعين حصل بسببه قحط
ببلاد الجزائر وتبعه في عدة سنين قحط عظيم وفي سنة الف
وثمانمائة وأربعة وستين خرج من الصحراء وهجم على البلاد والجزائر
فاكل جميع المحصول حتى لم يبق شيئاً واستعملت جميع الطرق
للتخلص منه فتنفرت العساكر مع الأهالي لجمعه ومع ذلك فلم يجد
هذا شيئاً فاكل شجر العنب والتوت والزيتون وغير ذلك حتى
اكل شجرة الدخان ولم تمنعه مرارتها من أكلها ولم يترك جهة من
الأرض إلا وقد غطاها بأحيائه وامواته فكانت السحابة منه تمتد
نحو ثمانين ملقة وذلك في عموم جهات الولاية

ولاجل التخلص من وباله كان الناس يجتمعون ويصيدونه
بالشباك من الأرض وروؤوس الأشجار ثم يحرقونه بالنار واهل
السودان يطردونه بالصويت واهل هولاندة استعملت المدافع
في ازالته وفي الأزمان القديمة كان اليونان يجعلون على كل شخص
كيلاً مخصوصاً يأتي به منه

وفي سنة الف وثمانمائة وثلاثة عشر ببعض مديريات فرانسا
جعلت الحكومة لكل من يأتي بكيلو جرام من بيضه نصف فرنك
ولمن يأتي بهذا القدر من الحيوان ربع فرنك

وفي مديرية مرسيليا صرف في جمعه خمسة وعشرون ألف فرنك وكذا مديرية ارل صرفت مثل ذلك وفي الجزائر جعل ربع فرنك على جمع كيلو جرام فكانت الناس تأتي بأربعين أو خمسين جملاً ضمه منه

وفي بعض البلاد يوكل الجراد بأنواعه وقد جُوز موسى عليه السلام لقومه أكل اجناس أربعة منه واليونان كانت تبيعه بالاسواق وذكر استرابون الجغرافي ان الحبشة يأكلونه ويجعلونه من الاطعمة والمغاربة في الجزائر يأكلونه ويسمونه الجراد الغربي ويكتفون بقطع راسه وجناحيه وارجله الطويلة ثم يملحونه ويأكلونه والاولاد والنساء تجعله في خيوط وتبيعه في السوق وهناك بلاد تقيه بالزيت واهل هولاندة تأكله ايضاً وبعض الناس يزعم ان الذين يجعلون قوتهم منه لا تتعدى اعمارهم الأربعين وفي راس الاربعين يتلى جوفهم وجلدهم ديدانا صغيرة تهلكهم وكثير من الحكماء والسياحين يكذبون ذلك

• فقال الشيخ في شرعنا يحجز اكله مطلقاً فان الشارع نص على حرمة الميتة الا السمك والجراد وحرمة الدم الا الكبد والطحال فسبحان من در الاكوان واحسن صنعها فلله في تسليط بعض جنوده على بعض حكم واسرار لا يقف عندها علم البشر فعلى الانسان التسليم للحكيم العليم

فلله في خلقه حكمة تكل البصائر عن دركها

فسلم لربّ الورى حكمه كما تفعل الطير في أيكها



المحاضرة (١٠٩)

نور الغاز

وبينا هم يتجادلون اطراف الحديث اذا بالخواجا الانكليزي
اقبل فرآه ابن الشيخ على بعد فقام ليقابله فالتفت الشيخ فرآه
مقبلاً فقام له فلما جلس الخواجا قال ان بُعدي عنكم هذين اليومين
كغيباب عامين وحقكم ما تخلصت من صاحبي الا بعد ان اغذرت
له بمحضرتكم ووعدته بالعود اليه مع حضرتكم ولو رأيتم هذا الرجل
ومسكته لاتهمون عليكم مفارقتة فانه على طريق يبرّ منه خلق

كثير وحوله بستان عظيم في وسطه عين ماء نابعة من الصخر
وبقره بلدة لطيفة فيها كثير من الامراء والاعيان يجتمعون كل ليلة
عند احدهم وهم اناس ظرفاء لا يستوحش انيسهم ولا يملهم جلسهم
وهذا الرجل على غاية من الرقة واللف والادب وزوجه
خير منه

فقال الشيخ نحن ذهبنا عند حضرة الخواجا التلياني صاحبكم
وتوجهنا الى البرصة معه وفهنا ما يتعلق بهذه المصلحة من الامور
العامه وغيرها وبين لنا الايام التي تربت علينا في المدرسة المشرقية
وذكر لنا تشوقه لحضرتكم ورايتنا منه خلقا حسنا قل ان نرى مثله
فحصل لنا غاية الانس لولا غيابكم عنا فان يعقوب كان واقفاً بخدمتنا
فائماً بما فيه رغبتنا وراحنا لكن غيابكم عنا لكونه غير معتاد لنا اقلنا
فائتي عليه الخواجا وقال ما عندكم بعض ما عندي ثم قال اظن
ان الترحل قد اذف فان الليل قد اقبل ونريد الرجوع قبل
الظلام

فقال الشيخ نحن حضرنا ههنا بعد الظهر وتنزمتا في الغابة لكن
ما وصلنا الى اخرها لحوف يعقوب الضلال عن الطريق
فقال الخواجا احسن منتزه ههنا هو هذا المكان فانه مرتفع يرى
منه كثير من ضواحي باريز ولكي الناس لم يعتادوا التنزه فيه بل
اعتادوا التنزه في غابة بولونيا

فقال الشيخ قد أتيت الى هذا المكان مرتين هذه ومرة قبلها

وفي كل مرة يحدث لي في هذا المكان سرور وشاط لا أجده في غيره لاني متى كنت وسط هذه الاشجار يخيل لي انها تحدثني بجمادات الايام الماضية وحين ارى بها الاشجار المختلفة كالبلوط والصنوبر والحمور وغيرها يزداد قلبي تعظيماً للخالق جلّ وعلا واجد في نفسي انشراحاً جزيلاً

ثم رأيت في اثناء سيرنا اشجاراً كثيرة الانواع جداً لا ترى ببلادنا فسالت عنها يعقوب فلم يفدني الا عن بعضها فقال انحواجا انواع اشبهر والنبات لا تحصى ولكل نوع منها خواص وفوائد ومزايا ولكل نوع منها تربة من الارض تناسبه وتختلف طباعها ايضا في احتياجها الى الماء والهواء والحرارة فبعض الاشجار لا يصلح الا في جهة مخصوصة بهواء مخصوص مثلاً وبعضها يصلح في كل ارض وفي كل هواء فلذا تجد من الانواع ما هو عام في جميع البقاع وهناك انواع لا تنبت الا في الماء ولو انكشفت عنها ماتت وانواع لو مسها الماء هلكت ومنها ما يبقى زمناً طويلاً وما لا يبقى الا اياماً واني وان كنت درست التاريخ الطبيعي الا اني لصغرسني اذذاك وعدم اقتناري عليه لم اتحصل منه الا على بعض جمل والا فله رجال تفرغوا له وافنوا اعمارهم فيه حتى اطلعوا على اسراره فاظهروها للناس فانتفع بها الجحيم وتمتعوا التمتع الاعم ولم تسع دائرة هذا العلم الا في هذا الزمان فبهمة افاضل هذا الزمان استكشفت نباتات كثيرة واستعملت فوائدها في مصالح عمومية وسهل بذلك استنبات

كثير منها في بقاع لم تكن بها من قبل وبعد ان كان نفع نبات كل جهة مقصوراً عليها صار عاماً لها ولغيرها

وستتوجه غداً الى جنة النباتات ان لم يطرأ مانع وهناك نطلعكم على اجناسها المختلفة فقد اهتمت الحكومة الفرنسية بانشاء هذا البستان العظيم وجمعت فيه كل ما يحتاج اليه في تسهيل طرق التعليم والتعلم لمن اراد ليطبقوا العلم على العمل فاستحسن الشيخ هذا الاهتمام من الحكومة فقال الخواجا ولم تقتصر على ذلك بل جمعت ايضاً من كل نوع وجد على وجه الارض من الحواري والطير والوحش والحشرات وكذلك من جميع الاحجار والمعادن كل ذلك ليطبق مدرس التاريخ الطبيعي العلم على العمل فاطرب الشيخ هذا الصنع واشتدت رغبته في الخروج معه الى تلك الجهة وفرح ولده بذلك فرحاً شديداً وسأل عن هذا المحل هل هو داخل باريز ام خارجها فقال الخواجا هو في باريز بل قريب من دارنا وابوابه مفتحة لمن اراد الدخول ثم دخلوا من احد ابواب المدينة وكان دخولهم بعد الغروب فوجدوا جميع الطرق مضيئة بالمصابيح الموقدة بها فكان لها منظر حسن يسر الناظر وبشرح المخاطر بسبب انتظام الطرق واتساع الحارات واصطفاف المصابيح ووضعها على ابعاد متساوية وكلما انتقلوا الى موضع راوا صورة احسن من الاولى على حسب تقاطع الطرق والميادين وكثرة الانوار واختلاف الجهات كالاسواق ومحال التجارة فكان يظهر للشيخ ولده ان المدينة

مزية لاسباب وقنية لانهم رأوا العربات واصناف الخلق تقبل
وتدبر في جميع الطرقات التي مروا بها كما يحصل ذلك بالنهار
سواء بسواء ومن كثرة الضوء واتصاله بضوء النهار تذكر الشيخ
شطربيت فتتل به وهو

(وليل الكفر ليس له نهار)

فتبسم الخواجا وقال هذه الكلمة لرفاعه بك احد رجال
المدارس المصرية قالها في رحلته وقد وقع لي منها نسخة
فرأيت قد اكثر فيها من مدح باريز واهلها واطنب في وصف
نساءها ورجالها وطاف حول الدن الا انه لم يدندن ورتع حول
ذاك الحمى وحام وما رفع عن وجه ليلى اللثام واطنه لم ياتها من
ابوابها ولا كشف له عند وصفه لها عن تقابها ومع ذلك فجمع ما ذكره
ورآه قد تغير الان ومضى من وقته الى الان نحو ثلاثين سنة وفي
هذه المدة تقدمت العلوم والصنائع تقدماً زائداً وظهر في اعمال الخلق
النتائج المفيدة فصلح بذلك شأنها واتسعت دائرة ثروتها ففي وقت
رفاعه بك كان الغاز مثلاً مستعلاً الا ان الطرق التي كانت
جارية في استعماله واستخراجه لم تكن كما هي الان وما حصل من
التحسينات والاستكشافات ازال كثيراً من المضرات التي كانت
تحصل للناس من عدم صفائه اذ ذاك وهكذا كل شيء اخذ في
التقدم والتحسين

فقال ابن الشيخ كان بخطر ببالي ان هذه المصابيح من الزيت

فالعجب من شدة ضوءها وإتامل في خلال النور لعلي أرى فيلة
فلا أرى إلا ضوءاً يلمع ونوراً يسطع

فقال الخواجا ليس الأمر كما تظن لأن الغاز ليس زيتاً من
الزيوت بل هو مادة أخف من الهواء ولا لون له وهو عبارة عن
أدروجين وكربون ويسميه الكيمائيون بالادروجين المكرين وله
معامل يدبرونه فيها ولهم طرق لتوزيعه داخل البيوت وفي الطرقات
فيجعلون له وابوراً له مجاراً تحت الأرض من مواشير الرصاص
ونحوه فيوزع إلى الجهات بثن معين وتلك العمد التي تراها قائمة
على الطرق حجة وتجويفها متصل بالماسورة التي تحت الأرض في
محور الطريق وتلك الماسورة متصلة بذلك المحل الذي يدبر فيه
الغاز فإذا دخل الليل مرت الخدمة على تلك العمد وبايديهم
شعل من نار فيفتحون الحنفيات التي بأعلى العمد الحابسة للغاز
فيضعون الشعلة فوق الثقب الموجود في النهاية العليا لتجويف
العمود المغطى بالفانوس فحالا يلتهب الغاز ويضيء فإذا جاء النهار
قطعوا الوارد بقفل الحنفية فينقطع الضوء

فقال ابن الشيخ إن هذا الشيء عجاب ما كان يخطر ببال
أحد من أهل مصر وغاية ما يظن أن الغاز اسم لنوع من
الزيوت يستعمل استعمال الزيوت. وحيث أنه هواء أو شبيه بالهواء
فكيف عرفوا ذلك وانتفعوا به

فقال له الخواجا وكانوا قد قربوا من النزول سائين لك

بعض ما يتعلق بذلك فلما وصلوا الى محل اقامتهم دخل كل مكانه وامر يعقوب الخادم باحضار الاكل فاحضره وكان بالمائدة مصابيح في الحائط مغطاة بالبلور الموشى وعليه رسوم لطيفة وفي تلك المصابيح صور كالشمع الابيض النظيف فكان ابن الشيخ يمعن النظر اليها

فقال الخواجا لعلك تتعجب من عدم احتراق الشمع الذي تراه فقال نعم لاني من حين جلست الى الان وهو على حاله لم ينقص منه شيء فقال كيف ينقص وهو حجر ابيض من انواع الرخام والمرمر ثم قال ان الناس لما استعملوا الغاز داخل بيوتهم اخترعوا هذه الهئية تسمى للرونق وتليدا لما كانوا يألّفونه من قبل استعمال الشمع فهذه الشموع التي تراها احجار مجوفة والغاز يمر في تجويفها وخدمه البيوت يوقدونها كما توقد خدسة الحارات الفوانيس التي تراها وقبل الان بنحومائي سنة كانت جميع مدن الديار الاور وباوية كغيرها من مدن الدنيا مظلمة ليلاً من قلة المصابيح وغاية ما هناك انه كان يوجد بعض قناديل على ابواب بعض الحارات متباعدة وكان يقطع المرور من الطرق بعد نحو ساعتين من الليل فكانت المدن وقتئذ عرضة لامتداد ايدي اهل الخيانة اليها وكثيراً ما كان يقع بهما القتل والسلب

ثم في سنة الف وخمسة واربعه وعشرين ميلادية كثر الشر

واربائه وتعددت الحرائق بمدينة باريز فصدرت اوامر الحكومة بالزام
الاهالي تعليق قناديل على ابواب بيوتهم وعلى الشبابيك والطاقت
المطلّة على الشوارع واستمر ذلك الى سنة الف وخمسمائة واربعة
وتسعين فُجِعَ بدل القناديل في الحارات والشوارع قوائم من
خشب عليها فوانيس بشمع الدهن وصدر الامر بمنع المرور في
الشوارع ليلاً بغير فانوس

ثم في سنة الف وسبعمائة وثمانية وثلاثين حار تنوير الطرق من
الحكومة بعد ان كان على الاهالي وفي سنة الف وسبعمائة وتسعة
وثمانين جعل مكان شمع الدهن زيت ولم تزل بعض جهات من
اوروبا تستعمله الى الان وكان من المصاييح ما يوضع فيه فتيلة
واحدة ومنها ما يوضع فيه اكثر

وقد اخبر ما تحرقه الفتيلة الواحدة من الزيت في ظرف
ساعة فوجد ثمانية جرامات ونصف جرام وكان ما بين كل مصباحين
مائة متر فكان النور اذ ذاك قليلاً جداً ولم تحصل الفكرة في
الغاز والتكلم في شأنه الا في سنة الف وستمائة وست وثمانين ميلادية
وسببه ان رجلاً من اهل باريز ادعى ان الغاز المتحصل من المواد
النامية اذا تجمع في ظرف محكم وعرض للهب انتد واضاء واقام
على دعواه براهين ولكن لم يلتفت احد الى قوله الى ان جاء
ويولنا الانكليزي وشرح كيفية استعماله في الاستصباح عوضاً عن
الزيت وكان في سنة الف وسبعمائة وسبعة وسبعين من ذلك العهد

اشتغل الكيماويون وغيرهم بهذه المادة

وفي سنة ١٨٠١ ظهر عالم فرنساوي فاستخرجه من الخشب فضلاً عما يخرج من الخشب من قطران وغيره من المواد وهو الذي بين طريق استخراجه من الفحم الحجري ومن الزيوت والمواد الدسمة وفي سنة الف وثمانمائة وعشرة بمقتضى قرار من البرلمان الانكليزي اذن لجماعة نمساوية في الاستصباح في لوندرة بالغاز فاوقدوه فيها وارادت اهل هذه الشركة في سنة الف وثمانمائة وستة عشر ان تلتزم ايقاده في مدينة باريز فلم يجاؤا الى ذلك ولم يظهر وجوده فيها الا من ابتداء سنة ١٨٢٩

فقال الشيخ انا الى الان لم نسمع به ببلادنا بل المستعمل بها الى الان الزيوت والشمع في البيوت ويضع ارباب البيوت الشهيرة قناديل على ابوابهم ويندرو وجود قنديلين او ثلاثة بالحجارة الطويلة وكثيراً ما يحصل من الضبطية التنبيه بوضع قناديل على جميع البيوت فلا يسمع امرها وبهذا يقل المارون جداً بالليل وتخرج اللصوص والاشقياء من اوكارها

فقال الخواجا يوشك ان يستعمل الاستصباح بالغاز بمصر وبغيرها من بلاد المشرق كما هو باوروبا وما ذلك بعزيز انما يتوقف على تيقظ الحكومة له خصوصاً اذا علمت انه اقل من غيره مصرفاً وثناً واكثر منه نوراً ولعل بسببه تكثر الحركة وتوسع الثروة ويحصل الامان ونقل اللصوص والافساد

مقسمة الى طبقات بالواح من الصاج وفيها خروق صغيرة وفوقها جير قد طفي لاجل ان يمر الغاز منها ويتخلص من بعض الغازات المتزجة به وبمروره في حوض الماء الذي فوقه مخزن الغاز المعد للصرف يتخلص من باقي الغازات على قدر الامكان ويكون صالحاً للاستعمال ويسمون الفحم الذي اخذ غازه بالكوك وهو الذي يستعمله الحدادون

والمخزن المذكور عبارة عن نافوس او اصطوانة من الصاج ذات قعر سعته قدر سعة الحوض وتوضع فيه منكوسة بحيث يكون قعرها الى اعلى الحوض وفيها الى جهة قعره واذا كانت خالية من الغاز كانت مغموسة جميعها في الحوض ويكون قعرها مع سطحه مغطى بالماء وكلما دخل فيها الغاز ترتفع شيئاً فشيئاً ولكن بمقدار متوازن في الصعود والهبوط عند ازدياد الغاز وتقصه بواسطة ائقال بحيث تكون حركاته صعوداً وهبوطاً منتظمة في اتجاه رأسي لا تفارقه وعند مدخل انايب الايراد آلة يقال لها العداد يعرف بها مقدار الحاصل من الغاز كل لحظة وآلة مثلها في مبدأ انايب الصرف يعرف بها قدر المنصرف وبهذه الطريقة يمكن معرفة قدر الوارد والمنصرف والباقي في كل لحظة

وقد ذكرت لك فيما مر ان لم في توزيعه في طرفات البلد وشوارعها كيفية حسنة وهي وضع مواسير من الحديد الزهر محكمة تحت الارض على بعد متر فاكثر من ظاهرها وتلك المواسير متصلة

وحيث اخذت مصر في التقدم الان وسهل عليها جلب ما يلزم لذلك برّاً وبحراً فعن قريب يحصل ذلك حتى لا يكون بينها وبين البلاد الاوروباية فرق

فقال الشيخ هل يمكن كل انسان تحصيله اما باستخراج او شراء كالزيت والشمع قال الخواجا نعم كل انسان يمكنه ذلك اذا عرف طريق تحضيره وتحصل على ادواته ولااته ولكن في ذلك كلفة زائدة ولذا جرت العادة بان يكون ذلك لشركاء مقتدرين يتعهدون به مدة معلومة بامر من الحكومة وتجعل المحكومة لهم قدراً معلوماً على توزيعه في الطرق العامة والخاصة والبيوت وتشتري عليهم شروطاً منها ان يكون نقياً صالحاً للاستعمال وان لا ينشأ عنه ضرر بالصحة وجميع اوروبا تستخرجه من فحم الخبث فقط وان كان يمكن استخراجه من غيره كالخشب والدهن والزيت والمواد الراجحة كالصمغ وغير ذلك مما يسيل على بعض الاشجار وطرق تحضيره من الفحم الخبثي ان يوضع في اسطوانات من الحديد الزهر طول الواحدة نحو متر ونصف او مترين ولا تلاء الى اخرها بل يبقى منها جزء فارغ ليتجمع الغاز فيما بقي منها ثم تسد سداً محكماً ثم توضع في افران مخصوصة لها وتوقد عليها حتى تبلغ من الحرارة الدرجة المطلوبة فينفصل من الفحم بخار فيه الغاز المذكور ومعه غارات اخرى فيصعد في انابيب من الحديد مستديمة البرودة فيصفون المواد القطرانية الموجودة معه ثم يجعل في صناديق كبيرة

ببعضها وكلها متصلة بما سورة يقال لها الام منصلة بمخزن الغاز ويجعلون في المواسير الموجودة بالحارات امام كل فانوس او فرع خروفا يخرج منها مواسير رقيقة من الرصاص لتوزيع الغاز في كل حارة وهناك حنفيات تفتح وتغلق بحيث يمكن منع الغاز عن جهة مخصوصة او ايضاله اليها متى ارادوا

ففي الحقيقة ان استخراجهم يحتاج الى احتراسات وعمليات كثيرة ومصاريف واسعة ومع ذلك لا يصفو بالكلفة بل يبقى فيه رائحة كريهة وكثيراً ما يحصل في محل ارتباط المواسير المدفونة في الارض تنفس فيخرج الغاز وينتشر في الارض ويغوص فيها قدر ثلاثة امتار فيضر بحياة الاشجار والنبات ويفسد ماء العيون والابار القريبة واذا اريد احكام تلك المحلات يرى ان الارض اكتسبت من رائحته الكريهة وربما بقيت فيها مدة ثقل وتكثر على حسب حال الارض رطوبة ويؤسوسه احياناً يمر قريبا من مجاري المراحيض والسراديب الداخلة في البيوت فاذا تنفس ودخل فيها يستمر حتى يملأ البيوت من منافذ التصبات وغيرها ثم يصعد الى المساكن فيضر باهلها وكثيراً ما تكون احكام حنفيات توزيعه في داخل البيوت غير محكمة السد فلا يمنع منها التنفس ويتنشر في الغرف فيضر باهلها وقد دلت التجربة على ان القيلة الواحدة منه تحرق في الساعة الواحدة مائة وثمانية وخمسين ليتراً ويلزم لذلك احتراق مائتين واربعة وثلاثين ليتراً من الاكسوجين اللازم لتقويم حياة الانسان

ويحصل من ذلك مائة وثمانية وعشرون ليترا من حمض الكربون
المضر بالصحة فان كانت الفتيلة في مكان لا يصل اليه الهواء فلا
يمضي الا قليل وقد وصل اليها هواء ردي يحصل منه ما يحصل
من دخان الفحم من الاختناق والعلل والامراض الصدرية فلذلك
كان الاحسن ان لا يستعمل في داخل البيوت الضيقة ولا باماكن
الجلوس والنوم بل يستعمل في البساتين والاماكن الكثيرة الهواء
وقد استدلوا بالتجربة على انه متى اخلط الغاز بالهواء بنسبة
معلمة وكان في المكان جسم مذهب كشمعة او غيرها فلا بد ان
يحصل في الهواء التهاب ويكور له روي وفرقته شديدة يخشى
منه الضرر على من كان قريبا منه لكن محل حصول ذلك منه
اذا زاد الهواء عن الغاز اكثر من احدى عشر مرة ونصف فلو
فرض ان حجما من الغاز اخلط بقدره خمس مرات من الهواء او
سنا او سبعا الى احدى عشر مرة ونصف فلا يخشى منه ولا ينشاء
عنه هذا الالتهاب ومتى زاد عن ذلك ولو قليلا التهاب فالاقامة
في مثل هذا المكان خطيرة لان زيادة الهواء غير مأمونة فيكون
الضرر غير مأمون فيلزم الانسان اذا احس برائحته في غرفته
وكان بها قنديل او شمعة ان يطفئها كذلك الاجساء المتقدة كالمنقد
ونحوه وكذلك لا ينبغي الدخول في مكان احس برائحته فيه
ثم قال وكان عدد اللبات في مدينة باريز سنة الف وثمانمائة
وثمانية واربعين ثلاثة عشر الف وسبعائة واحدى وسبعين لبة

صرف عليها نحو أربعة وأربعين ألف جنيه

وفي سنة ألف وثمانمائة وخمسة وخمسين بلغ عدد الشركات المتعہدة في المدينة ثمانية ومقدار المنصرف في المعامل والآلات اعني رأس مال هذه الشركات قريباً من مائة وعشرين ألف جنيه وكان ثمن المتر المكعب سبعة عشر سنتياً بالنسبة لما تأخذه الحكومة وبالنسبة للاهالي ثلاثين ومدة الالتزام خمسون سنة وبلغ مقدار المحرق من الغاز في سنة ١٨٥٧ قريباً من ثلاثة وخمسين مليون متر مكعب واحترق فيها مليونان وستمائة ألف وكسور هيكولتر من فحم الحجر وبلغت قيمة ذلك ستة ملايين ومائة ألف فرنك فقال ابن الشيخ قد خرجت مع يعقوب منذ يومين فصادف وقت دخولنا ان البواب كان يتشاجر مع زوجته بسبب ان هربتھا قلبت زجاجة ففاحت منها رائحة كريهة فشمناها فسألت يعقوب فقال هي رائحة زيت معدني فلم افهم معنى هذه العبارة لاني لم اسمع بزيت معدني الا منه والذي اعرفه هو الزيت المستخرجة من النباتات والابزار والفواكه

فقال الخواجا استعمل بعض الناس من عهد قريب في المنازل والورش والفوريقات ونحوها زيوتاً اتخذوها من خلط الغاز بزيوت النباتات بكيفية وتدبير مخصوص واستعملوا ايضاً زيوتاً متخذة من الغاز والنفط

وحيث كانت هذه المواد كلها خارجة من جوف الارض من

بقاع معلومة سميت زيتاً معدنية والنبات والمسارج المستعملة لها ليست مثل المستعملة للزيوت النباتية بل تختلف في التركيب والقصد من ذلك كله تهم حرق الابخرة الحاصلة من تلك المواد ويوجد ايضا زيوت مدرة من خلط زيت الترابتين او النفط او الغاز بالكؤل او غيره مثل زيت الخشب او الغاز المائع ولها قناديل مخصوصة بحيث لا يستصعب به الا فيها ولكن لكون جميع هذه الزيوت سريعة التبخر والتطار وبادنى شرارة تلهب بسرعة كان استعمالها لا يخلو من الضرر وكثيراً ما حصل بسببها حرائق كبيرة ولها روائح كريهة لا تزول من الارض التي تصيبها الا بعد زمن طويل فبتلك الاسباب استدلو على ان استعمال هذه الزيوت كما هي من غير خلط اوفق واخترعوا للاستصباح بها قناديل جربوها فيها فوجدوها ممثلة للضرر المطلوب ومع ذلك فيلزم تمام التحفظ والاحتراز في نقل تلك المواد من مكان الى اخر وفي حال استعمالها

وبسبب رخص سعرها وشدة ضوئها صارت هي المستعملة الان سيما في جهة الارياض فاستعملها الغني والفقير حتى بلغ قدر المستخرج منه سنة الف وثمانمائة وثمانية وخمسين الف وخمسة وعشرين مليوناً من اللبترات وقد حفر ما عدا الآبار التي كان يستخرج منها مائتان وخمسون بئراً واذا نجحت التجارب في وقود الوابورات بها بدل الفحم الحجري عمت فائدتها واتسعت دائرتها

وانتشرت في جميع البقاع

وقد اخترعوا اليوم اختراعاً جديداً وهو انهم استعملوا قنديلاً لطيفاً مستوفياً لجميع اللوازم الا انه لا فتيلة فيه بل يكتفى عن الفتيلة بوضع جسم فيه ذي مسام كقطعة فحم او اسفنجة تفسخ في الغاز المعدني وتوضع فيه فبدلاً عن احتراق الزيت الذي يتصاعد منه الدخان والرائحة الكريهة يكون الاحتراق للغاز الحاصل من هذه الزيوت فانه يمرور الهواء عليه يتشرب من الابخرة فتصل الى المسرحة فتلهب الشعلة وتضيئ مثل النياز المستعمل الى ان ينتهي والغاز الذي يكون في التنديل مركب من تسعين جزءاً من الهواء وعشرة من الغاز ومع ذلك لو ارد استعماله في طبقات المنزل جميعها لا خير فيه ويكفي لتوصيله ماسورة واحدة وبذلك امتنعت اسباب الضرر وسهل على كل انسان الحصول على الغاز بمن قليل

فانظر كيف كانت ثمرات ابحاث العلماء والكيمائيين فقد حصل منها فوائد جمة انتفعت بها الناس عموماً وذلك من المادة النفطية على اني لم اذكر لحضرتك جميع الامور والصنائع التي تدخلها هذه المادة لان شرح ذلك بطول فعلى جميع النوع البشري ان يرفع اكف الصراخ به بطلب زيات من الهواء والسماء حيث نتج من اعمالهم الخيرية تمتع الفقير بالنور الذي كان محروماً منه قبل ذلك الاختراع الذي بواسطته اتسعت دائرة المعلومات

فقال الشيخ كم لله من فواضل وفضائل وكم ادرك المتأخرون
 ما لم تدركه الاوائل فمن جد وجد ومن لج ولج وقد استعق
 الفرنج الثناء الجميل وادركوا المجد الاثيل حيث نالوا من التقدم
 ما نالوا وان كان يؤثر عن المتقدمين ما يقرب من ذلك فقد كانت
 العرب في حربهم تدبر من النفط ناراً ترسلها الى العدو بكيفيات
 مختلفة منها ما كان يسج فوق الماء حتى يصل مراكب العدو فيحرقها
 ومنها ما كان يصعد في الجو ويسقط في اوقات معلومة على اماكن
 معلومة وغير ذلك ما هو مذكور في كتب مطولة

ومن معرفتهم لهذه الكيفيات وجهل العدو بها كان الفرنج
 يهابونهم في حروبهم وكثيرا ما انهزموا منهم كما حصل في حرب
 الصليب وغيرها

المسامرة (١١٠)

المسلم، والخائف في الاسلام

ولكن لا يدري "الآن كيف تناسى العرب هذه المعارف بالكلية
وهجروا استعمالها في بلادهم بعد ان علموا فائدتها في حروبهم حتى
علمها الفرنج وتفنتوا فيها وقد قالوا اذا ظهر السبب بطل العجب فليت
شعري ما سبب هجرها في بلاد العرب فان قلنا ان السبب بلادتهم
وقصور عقولهم فهم ليسوا كذلك فانهم فرسان الفصاحة واخوان
البراعة والسماحة وان قلنا تغير طبيعة ارضهم وهوائها فما على حالها
لم يتغيرا وان قلنا تغير قوانينهم وعاداتهم فهي على ما كانت عليه لم
يتغير منها شيء وايضاً فان الارض لم تبجل شيء كانت تجود به من
قبل وكذلك الشمس في شروبهها وطلوعها لم تتحول قط عن

مستقرها ولكننا اذا تأملنا في امر هذه الامة وما حصل لما خلفا وسلفا وما احدثه الخلف بعد مضي السلف وجدنا السبب انما هو ما صار عليه الائمة من خلف هذه الامة فانهم تركوا ما كان عليه السلف من النظر في مصالح الامة والسعي فيما فيه نفعها فتبدل ذلك كله وراء ظهورهم واتبعوا الشهوات والارواح والاحيائ وحملوا الناس ما لا يستطيعون وشبهوا ما لا يستطيعون ان يفعلوا ثم انهم نزلوا على ما لا يستطيعون ان يفعلوا كالرأس للجسد او كالقلب بالنسبة للجوارح اذا صلح صلحت واذا فسد فسدت وقد كان السلف صارفين انظارهم نحو مصالح العباد العمومية فكانوا يتقدمون بهم في افهم وافهم وكذلك الفرنج لما كان رؤساءهم تلك الصفة ظهرت فيهم السلوم والصنائع وسرت منهم الى غيرهم حتى غمّت سائر المواضع

فقال الخواجا ان من تتبع سير المتقدمين من علماء ملتكم واخبار الماضين من ائمتكم رأى ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام لا قصد لهم الا نصره الدين واعلاء كلمة الايمان وكان لا يتولى الحكم بين الناس الا العالم بالاحكام الشرعية

فقال الشيخ قد ورد في الحديث خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فكل قرن شر ما قبله وخير ما بعده وفي صدر الاسلام كان تعظيم العلم واهله امرا لازما اذ كانت الاحكام الشرعية بين الكافة هي المظور اليها ولا معول فيما قل وجل الاعليها فكان العلماء في الحقيقة هم اولوا الامر الذين اوجب الله طاعتهم

واعلى في الخافقين رايتهم

وبسبب ما كان لاهل العلم من الشرف والاحترام بين
 الخاص والعام رغب الناس في تحصيله وجدوا السير في سبيله
 حتى اتسعت دوائر وعلت في جميع البقاع منابر واستنارت به
 بصائر العباد وانصلح به امر المعاش والمعاد اذ بكثرت لم يكن قاصراً
 على الاحكام الشرعية والفنون العربية بل تعدى ذلك الى جميع
 ما تلزم معرفته لعموم مصالح العباد وعمار الاقطار والبلاد فقد بذل
 العلماء الجهد في كل علم والفوا اسفار الكتب في فنون شتى ففضلا
 عن المؤلفات التي لا تدخل تحت المحصر في الاحكام الشرعية تجد
 مؤلفات كثيرة في فن الفلاحة والملاحة والتاريخ والتجارة والعمارة
 والصنائع المتنوعة والطب والحكمة والفلسفة والرياضة وغير ذلك
 مما يستعين به العالم ويهتدي به الجاهل فكان العلماء بين الناس
 كالاهلة في السماء تنبعث انوارها على سائر ارجائها وبسبب ذلك
 تألفت الطبائع في جميع البقاع فزادت قوة الامة وقويت شوكتها
 وكان ذلك سبباً في سعادتها واتساع دائرة ثروتها وما سبب ذلك
 الا بناء المحكام احكامهم على سنن الشريعة وسلامة بواطنهم من
 الاغراض الفاسدة فلم يكن همهم الا السعي في المصالح العمومية
 واجتماع الكلمة الاسلامية ولما سار المحكام في غير هذا المنهاج وسلوكوا
 شيئاً فشيئاً طريق الاعوجاج وصار اكبر همهم تحصيل اغراضهم
 الفاسدة وحادوا عن احكام الشرع الى شهواتهم تصرمت اسباب

الائتلاف بين الامة وتفرقت طبقاتهم بتفرق قلوب الائمة فصار كل فريق على حدته وترك كل منهم موجبات ثروته فاوجب ذلك فقر الجميع وضعفهم وبما داخل كبراءهم من الطمع حصل بينهم التباغض والعدوان وكثر التحاسد والحorman وظهر از ذاك التمدن الاسلامي الجديد واظن ان ابتداء ظهوره كان في زمن العباسيين ويمكن تعيين ابتدائه بخلافة المأمون وذلك انه اكثر من شراء الممالك ثم قلدهم المناصب العلية وامرهم على اشراف الامة الاسلامية فكان الممالك هم اصحاب الحل والعقد وفي ذلك توسيد الامر الى غير اهله وتولية السفهاء امور الكرماء فحدث النفور والتباعد بين الناس ثم قوت شوكة الممالك حتى تعدوا على الخلافة نفسها فاستوجب ذلك ازالتها وتفرقت الكلمة الاسلامية واحتقرت الاحكام الشرعية فاخذ العلم في القهقرى وقل اهله لفقده ما كان له من المزايا واستمر تأخير رجال الفضل من الائمة وتقديم من لا خيرة له بالشرع ولا بتدبير احوال الامة وتصور التمدن الاسلامي بغير صورته الاصلية فان اصله كان مؤسساً على العلم والعدل اللذين هما اكبر دعائم الدين

واما التمدن الذي قام مقامه فاساسه البغي والظلم وقهر العباد فباتمدن الاول كان اجتماع طوائف الامة بالرضى والاختيار لما كانت تستمد منه من الفوائد التي تعم الجميع والافراد من جليل وحثير فكانت الناس منجذبة اليه بالطبع فكان ينمو بالتدرج حتى

كثر العلم والمال وبالتمدن الثاني حصل الفشل والتباغض بينهم
 وصارت الامة على قسمين حاكم ومحكوم فتخصص الاول بالمزايا
 والرتب وتحصيل الاغراض والشهوات وانساق القسم الثاني في
 طريق الذل والتهر وتجرد بالتدرج عن مزايا الشرف حتى كاد
 يلحق بالمحيوان البهيمي الذي يتصرف فيه مالكه من غير ان يكون
 له اختيار ولا يشك احد ان ذلك اكبر اسباب التهمر فشتان ما
 بين زمان اقيمت فيه الشعائر واستنارت منه البصائر وكثرت فيه العلوم
 والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض اهل الاسلام
 واندرست فيه العلوم ولم يبق من الاحكام الا الرسوم والكلام في
 هذا المعنى طويل وفتح بابه الان لا يفيد

المسامرة (١١١)

الفار

ثم استأذن الخواجا من الشيخ في القيام فاذن له وشيعه ثم رجع وتوضا وقضى ما عليه نفلاً وفرضاً ولكنه لم ينم تلك الليلة فدخل عليه ولده فقال يا بني قد سئمت الإقامة هاهنا وأودّ أن نكون خارج البلد وقد تكلمت مع الخواجا في هذا الأمر فاستحسنه فإذا نقول فقال له ولده الرأي ما رأيته إنما أخشى أن يكون المحل بعيداً فيشق عليكم الحضور إلى الدرس فقال له أن هو الأ يوم في الأسبوع ومع ذلك لم يصرف الخواجا نظره عن هذا المكان بالكيفية فإن شئنا أقمنا هناك وإن شئنا أتينا هنا فقال له ولده متى يكون ذلك فقال لم تتفق فيه على وقت ويغلب على ظني أنه يكون غداً لانا متفقون على أن نذهب بعد ظهر هذا اليوم إلى بستان النبات فرأى ابن الشيخ الوقت واسعاً فقال لوأله أنأذن لي أن أخرج مع يعقوب إلى أن يحجى الوقت فقال له لا مانع ثم قاما ودخلا مكان المائدة فوجدا

الخوaja في انتظارها فاكلوا جميعا وبعد الاكل اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا ثم انعطفا على غرفة يعقوب وكان في نفس ابن الشيخ كلام مما سمعه من الخوaja حين كان يتكلم على الغاز ومواد استخراجيه وكيفية الاستصباح به فقال يعقوب خطر بيالي ان اسال الخوaja عن النار الذي تطلّى به السفن فاني رايتّه حين كنت بمصر ولكني لا اعرف من اي شيء يستخرج ولا من اي جهة يجلب

فقال يعقوب ان القطران والتراسين مواد راتنجية تستخرج من الشجر ما عدا النار فانه من الارض وهو ثلاثة انواع نوع صلب ونوع مائع ونوع بين ذلك فالاول يلين بالحرارة ويناع اذا وصلت الحرارة لدرجة الغليان واما الاخير فيكفي لميوعنه ادنى حرارة وتلك المادة بانواعها يخرج منها زيت يقال له زيت معدني فاذا تكرر تصعيده صار نقيا وصلاح للاستصباح به وما بقي بعد التصعيد تارة يكون مادة فحمية وتارة يكون مادة لزجة لينة والثقل النوعي لتلك المادة يقرب من ثقل الماء ولذلك اذا اجتمع معه طفا على ظاهره او قريبا منه وله رائحة تخصه لا تظهر الا عند العرض على النار ومن خواصه انه اذا احرق لا يتخلف له رماد بل تاكله النار جميعه والجامد منه لا يدخل الماء في مسامه ولا يفسد خواصه وهذه المواد تذوب في الكوئل وزيت التربنتينة ولا تذوب في الماء وزعم بعضهم ان هذا المعدن بركاني مكون بين طبقات الصخور التي تكونت قديما ويكون في الغالب قريبا من معادن الكبريت

والجبس ومنابع المياه الحارة المعدنية وزعم اخرون ان
 اصله حاصل من المواد الفحمية بفعل شديد اثر فيها
 فعزله عنها كما ان اصل الغاز من الفحم الحجري وليس للغار
 بانواعه جهة مخصوصة بل يوجد في جميع بقاع الارض انما
 منه ما يكون على السطح ومنه ما يكون قريباً منه وفي بعض
 الجهات موجود منه طبقة عظيمة المقدار يؤخذ منها من زمن
 مديد الى الان وهي لم تنفذ ولعل له مدداً وان كمالا نعرفه وبالجمله
 فانواعه ومواضعه كثيرة وان كان المشهور منه في التجارة ثلاثة
 انواع كما ذكرنا قار الموميا ويقال له قار يهوذا او اسفلت وقار
 مالت والزيت الحجري ويقال له باللسان الافرنحي بيترول فالنوع
 الاول جامد بطبيعته واذا كسر كان شبيهاً بالزجاج ولا يذوب
 الا بحرارة شديدة تفوق درجة الغليان ويوجد في شواطئ بحر
 لوط اي البحيرة الميتة فاذا صعد من قاعها شيء على سطح الماء
 وتراكم قذف به الريح الى الشاطئ ويكون في اول الامر ليناً ثم يجمد
 بالهواء ويجمعه الناس ويتجرون به ويخرج ايضا من جزيرة
 بجزائر اللاتي ولكن ما يستخرج من بحر لوط اجود منه وكان
 قدماء المصريين يستعملونه في حفظ اجسام موتاهم من البلى
 فيغمسون فيه قطعاً من قماش ثم يلفون فيها موتاهم وهذا المعدن
 يوجد ايضاً باوروبا الا انه قليل الاستعمال فيصنعون منه شعاً
 اسود تختتم به ظروف المكاتب وطلاً اسود يسمى باسود الموميا والنوع

الثاني وهو مالت ويقال له القار الجلي اسود اللون ولينه وصلابته على حسب حرارة الجو ولا يجمد الا في اوقات البرد واذا عرض لحرارة الشمس لان وامتد على سطح الارض ومتى بلغت الحرارة ثمانين درجة صار ماءً وهو كثير الوجود بارض فرانسا والانكليز وغيرها وقد يخرج في بعض الجهات نقياً من ثقب في الصخر كالعيون فتسلكه الناس تجاريف وقد يوجد في بعضها مخلطاً برمل او تراب فاذا اردوا تخليده قطعوه بارضه ووضعوه في قدور مملوءة ماءً واوقدوا تحتها حتى تغلي فيرسب ما خالطه ويطفو هو فوق الماء فيؤخذ بملاقق ويعمل قوالب كل قالب نحو اربع اوقات ثم يضعونه في براميل وهذا النوع يدخل في امور كثيرة كالالوان والولائش ويطلى به الخشب والجمال التي يراد استعمالها في الماء لاجل حفظها وقد كثر استعماله الان حتى استعملوه في الطرق بجوانب الشوارع بمزجه بحصى ورمل فيتحصل عنه مونة تستعمل في ذلك عوضاً عن تحجيرها وكذا في طريقة سطوح المنازل وظهور القناطر وتبليط الحارات عوضاً عن الحجر والبلاط فانهم وجدوه في كل ذلك اقل كلفة من التحجير واكبر فائدة وقد بلغ ما يستخرج منه الان بارض فرانسا في كل عام نحو ثلاثة ملايين اقة وفيمة الثلاثين اقة منه تقرب من نصف فرنك واما النوع الثالث وهو الزيت المحجري او البترول وهو المسمى بالنفت فهو مائع لزج طيب الرائحة احمر اللون ومعدنه

ببلاد فارس بقرب مدينة باكو وفي ضواحي بحر الخزر وفي بلاد
 ايتاليا في مواضع كثيرة منها وفي جزيرة سيسليا وهي صقلية وفي
 فرانسفا في موضع واحد بالقرب من قرية جابيو ولذا يسمونه زيت
 جابيو ولا يوجد الا بجوار المياه المعدنية الحارة وقد يختلط بها
 فيطفو على وجهها كالزيت في الحوضان الطبيعية او الصناعية
 فيجمعونه ويضعونه في الاواني ويتمررون به ويخرج بالقرب من
 قرية باكو من بلاد الفرس بخار من الارض تستعمله الاهالي
 في تسوية الطبخ وذلك الزيت يستعملونه عوضا عن القطران
 وفي الاستصباح والمشرقيون واهالي ايتاليا وجنوبي فرانسفا ينسبون
 له خواص طيبة فيعملون منه جباير للجروح والامراض الروماتسية
 وفي الباطن يقتل الديدان وغيرها ولكن بعد تصعيده مع
 الماء والنتاج من هذه العملية هو المسمى عند التجار بزيت الفط
 ويخل ايضا في اشيا كثيرة من الصنائع ولا يفسد بطول المكث
 وله حرارة شديدة وضوء عظيم ويعسر اطفاءؤه ورائحته كريهة
 ودخانه كثيف واما كيفية الاستصباح به فقد ذكرها الخواجا فلا
 حاجة الى اعادتها



المسامرة (١١٢)

المستشفى

فقال له ابن الشيخ اللذة في التنقل فالى اين نذهب فقال
يعقوب المنتزهات في هذه المدينة كثيرة ولم تر الا القليل منها
وبيناها يتشاوران فيما يذبان اليه منها اذا بالخواجا موريس الذي
كانوا بمنزله منذ ايام دخل عاها والى عليها اتحية فرحبا به ثم
خص ابن الشيخ بالتحية وسأله عن والده ثم قال له ان حضرة
الشيخ وعدني بالزيارة وقد ازداد شوقي اليه فهل يمكن الان الاجتماع
به لاسلم عليه فقال له اما شوقك اليه فبعض ما عنده واما مقابلته
فهو في غرفته فقال لا بد لي من زيارته لاحظى بمفاكحته ومشاهدة
طلعته فاين تذهبان فقال له الى منتزه من منتزهات المدينة

فقال اذا كان مقصودكما ذلك فما انا متوجه الى استبالية لريبوازير
لزيرة حكيمها فان شئنا اغنمتما فرصة رؤيتها ويكون ذلك داعياً
للاطلاع على المستشفيات الموجودة في مدينة باريز والمارستانات
بمساعدة حضرة الحكيم صاحبنا

فقال يعقوب هذا الرأي اوفق ووافقه ابن الشيخ فساروا
جميعاً الى ان وصلوا الى باب الاستبالية فشد الخواجا زراً من
النحاس الاصفر مثبتاً في الحائط بقرب الباب فحرك جرساً عند
مجلس البواب فجاء وفتح الباب وادخلهم واجلسهم في محل معد
لمثل ذلك ثم قال الخواجا موريس للبواب اريد زيارة الحكيم
واعطاه تذكرته كما هي العادة عندهم فذهب من فوره ثم رجع يقول
ان حضرة الحكيم يتظركم فقاموا جميعاً الى محله فقابلهم من الباب ثم اخذ
بيد الخواجا موريس وسأله عن معه فعرفه بابن الشيخ ويعقوب
فرحب بهما وحياهما ثم طلب لهم كراسي وقهوة فجلسوا وشربوا وبعد
لحظة قال له موريس نريد ان نرى الاستبالية فقال حباً وكرامة
وقام وادخلهم حوشاً متسعاً مستطيل الشكل فيه شجر قسم تقسيماً
حسناً الى ثلاثة بساتين في البستان الوسط منها حوض ماء في
وسطه فؤارة تقذف الماء الى ارتفاع عظيم فتسمع لها نغمات لطيفة
تشبه نغمات الموسيقى ناشئة عن اختلاط صوت الماء في نزوله في
الحوض مع صوت عبث الرياح بغصون الأشجار وتغريد الاطيار
فقال يعقوب يخيل لي انهم ما اخاروا هذا الموضع الجميل الحسن

الآ لترويج المرضى وتسليية افئدتهم عما بهم من الالام واثار الاستقام
ورأينا ان من دبت فيهم القاهة والصحة يتمشون بين الاشجار مقبلين
ومدبرين وحول الحوض مصاطب وكراسٍ يجلسون عليها وفي
دائر ذلك الحوش عنابر المرضى وعددها ستة في كل عنبر اثنان
وثلاثون سريراً وفي اخر كل عنبر ادبجانه ومحل للخدمة الذين
يقومون بمصالح المرضى وبين كل عنبرين فضاء ظلل بالشجر لاجل
تنزه المرضى وعدم سريان الامراض من عنبر الى اخر وفي الضلع
الاصغر من الحوش حمام وكنيسة ومحل لغسل ثياب المرضى وتغسيل
من يموت منهم وعند باب الدخول مجالس الحكماء والادارة والكتبخانة
وغير ذلك فكانوا كلما مروا بعنبر عرفهم الحكماء بمن فيه وبالداء
وبالدواء الذي يناسبه



المسامرة (١١٢)

التبغ

وفي جولانهم بين العنابر شاهدني مريضاً قد أضناه المرض ونهك
 جسمه وكساه ثوب الخول والصفرة وهو باهت محمراً العينين وله
 أنين وتشنجات شديدة تكاد تفضي به إلى العدم ورأوه يكثّر من
 الشاؤب والتيء فامعن ابن الشيخ النظر إليه بورق لحاله وبعد أن
 طافوا بالمحل كله رجع بهم الحكماء إلى محله فلما استقر بهم المجلس
 سألت ابن الشيخ عن مرض هذا المريض الذي لم يغرب عن ياله
 لما رأى من سوء حاله فقال الحكماء إن أس مرض هذا الرجل هو
 استعمال الدخان فإن له أنكباً زائداً على مضغه فتولد له منه هذا
 الداء العضال

فقال ابن الشيخ الحمد لله الذي انعم عليّ بوالدي الذي رباني على عدم استعمال الدخان حتى نشأت على كراهته فلا يطبق ان اشرب منه مصة واحدة فقال الحكيم عهدي بالمشركين انهم يشربونه ولم يده ولع زائد فقال ابن الشيخ نعم الا ان شربه ليس محموداً

فقال يعقوب رايت في بعض الكتب النهي عن شربه ويقال ان به مادة سمية تضر بالصحة وربما أدت الى الموت فقال الحكيم ان الكجاوبين بعد امتحانه قالوا ان فيه مادة سمية تسمى النيكوتين وهو مائع لا لون له متى كان في انابيب مقفولة ويلون باللون السنجابي اذا لامس الهواء ورائحه كريهة وطعمه لذاع ويكون في الدخنة التي يتلعمها الانسان وهي من السميات الشديدة وان قال بعضهم ان هذه المادة انما طرأت له من الاعمال التي تعمل فيه بالمعامل فليس الامر كذلك بل هي من نفس النبات وتلك المادة في دخان النشوق اكثر منها في الدخان المشروب كدخان السجارة والذي اعلمه ان هذه الشجرة وان عم الارض زرعها وكثر في الممالك ريعها لم تظهر ببلادنا الا بعد القرن السادس عشر من الميلاد واطن انها كانت موجودة عند الامريقيين من قديم الزمان ويؤيد ذلك ما قالوه من ان كرسنوف كولنب ارسل بذرها من بلاد الامريقا وقت استكشافه لها الى بلاد البرتغال فزرعوه ومن ذلك الوقت صارت تكثر شيئاً فشيئاً الى الان

فقال الخوaja مورييس للناس في استعمالها كيفيات منهم من يدقها ويستنشقها ومنهم من يقطع ورقها قطعاً ثم يمضغها ومنهم من يفرمها ثم يشربها في شبكات ومنهم من يلفها سجارات ثم يشربها وبالحملة فلو تتبعنا اهل الارض لوجدنا من يتعاطاها اكثر ممن لا يتعاطاها ألا ترى اهل اوروبا واكبايم عليها مع انهم لم يعرفوها الا منذ قرنين اي بعد القرن السادس عشر وقيل ان بذرها اهدي الى الملك شرلكان سنة الف وخمسمائة وثمانية عشر وانه لم يزرع بارض البرتغال الا سنة الف وخمسمائة وثمانية وخمسين ولا بارض فرانسا الا سنة الف وخمسمائة وستين والذي جلبها اليها سفيرها بالبرتغال وذلك ايام الملكة كاترين دوميديسي فلما زرع واهدي منه اليها اشتهر واتبعته الخلق واخترعوا له فوائد حتى قالوا انه شفاء من كل داء

فقال ابن الشيخ قرأت في بعض التواريخ ان اول دخوله في ارض الدولة العلية كان في سنة الف وستمئة وخمس للميلاد زمن السلطان احمد القانوني جلبه الفرنج الى القسطنطينية فتعلم الناس شربه وتولعوا به فافتى المفتي بعدم جواز شربه فهاج الناس وماجوا ولم يلتفتوا الى الفتوى واستمروا على شربه فلم يشدد عليهم بعد ذلك وفشى امره حتي صار الان يشربه النساء والرجال

وكما تسمى تلك الشجرة الدخان تسمى ايضاً التبغ بمثناة فوقية

وموحدة تخنية ثم غين معجبة واحفظ لبعضهم بالنسبة لاسم
النبغ شعراً

بدت في سما الطب نزهة وامق
فدان لها طوعا شعاع الشوارق
فناء وباء ثم غين هجاؤها
فدونكم نفاعه للخلائق
الى ان قال
لها قوة تنفي قوى كل بلغم
وتذهب بالصفراء في لمح بارق
وتذهب اخلاط الدماغ بشمها
وتفتح للسوداء باب الخوائق
وفيها شفاء للسموم جميعها
وافعالها في الهضم فعل الخوارق
وفيها دواء لست احصره

وكم حكمة فيها وكم من مرافق

فقال الحكيم بعد ان سمع ترجمة هذه الابيات قد كاد الناس
يعتقدون في مبدأ امره انه علاج لامراض شتى وليس الامر الان
كذلك فقال موريس ان هذه الشهرة كانت السبب في الاكثار
من زرعه والان صار يزرع كثيراً بمملكة فرانساً ومملكة البرتغال
وبلاد المغرب والامانيا والنمسا وبلاد الموسكو وارض مصر والشام

والصين والامريقتين وجزائر كثيرة من جزائر المحيط وقد رأيتهم حين سياحتي بامريكا الشمالية يتخيرون لزراعته اطيب الارض واقواها واكثرها زبداً واكثرها رياً ويستخونه بتدار وافر من السباخ وفي بعض الجهات يزرع في الارض التي نزل عنها ماء النهر لانها تكون مغطاة بطبقة من الطمي تشتمل كثيراً من البوتاس وفي اخرى يزرع بسفح الجبال في ارض مخصوصة واوان زرعه عندهم شهر مايو الفرنجي ويزرع سنوياً وزهره تارة يكون احمر وردياً وتارة اخضر وتارة ازرق فاذا بدا صلاحه واصفر ورقه جمعه شتاف شيئاً وجففه بالفتاة على الارض مدة ثم يجمع ويكمل تجفيفه تحت سقائف ثم يربط حزماً ويباع بهذه الصورة ورأيت في اطرافه ابراجاً وفيها بذره فاذا نضج وتم صلاحه اخذوه وحفظوه الى اوان زرعه فيبذرونه في الارض بالقررة وكية التقاوي لكل ثلاثة عشر متراً ملحقة صغيرة ويصبرون عليه نحو شهرين ثم يقلعونه وينقلونه للارض التي تخيروها له ويسمى المنقول قبل نقله زريعة وبعد نقله بلغة اهل الفلاحة شتلاً ومن السادة انه قبل جمعه لسنة سابع يقشر ورقه التريب من الارض الى ارتفاع قدم وفي بعض الجهات يصل ارتفاع النبات منه الى مترين او قريب من ذلك

ورأيت في بعض اوراق حواث سنة الف وثمانمائة وتسعة وخمسين ان فرانساً اربعة عشر فوريقة باسم الدخان خاصة موزعة في مدينة باريز وغيرها وان بها من العمال نحو خمسة عشر الف

نفس وانه يستخرج من تلك الفوريات في كل سنة من ذلك الصنف ما ينوف على ثمانية وعشرين مليوناً من الكيلوجرامات وان ايراد الحكومة من ذلك في تلك السنة نحو مائة وثمانية وسبعين مليوناً من الفرنكات فانظر ما بين وقتنا هذا وبين زمن لويز الثالث عشر الذي منع في ايامه شرب الدخان وبيعه الا للاجراخانات وتوعد كل من باعه لغيرها او شربه بالعقاب الشديد وكان ذلك في سنة الف وستائة وخمس وثلاثين

واما المتحصل منه ببلاد النمسا فيقرب من سبعة وثلاثين مليوناً من الكيلوجرامات وكله يرد الى الحكومة لانها هي المتصرفه فيه دون غيرها كما هو جار ببلاد فرانسا فتشتره من الاهالي بنحو مليون ونصف من الفرنكات وتجمعه في الفوريات وتصنع به ما يلزم له ثم تبيعه على ذمتها وقد اتسعت زراعته في ارض البروسيا حتى بلغت فورياته الان بها نحو سبعائة وعشر فوريات وفيها من الشغالة خمسة عشر الف نفس وبلغ قيمة ما يخرج منه كل سنة من بلاد الايتازوني من الامريقا ما تبلغ قيمته نحو مائة مليون وعشرة ملايين من الدولار والدولار عبارة عن خمسة فرنكات

وقد احصوا ما يخرج من جميع كرة الارض من هذا الصنف في كل سنة فوجدوه يقرب من اربعمائة وخمسة وتسعين مليوناً من الكيلوجرامات من اسيا مائة وخمسة وتسعون مليوناً ومن اوربا مائة واربعون ومن امريقا مائة وثلاثون مليوناً ومن افريقيا اثني

عشر مليوناً

وأما الدخان المصري فلا اعرف قدر متحصله فقال ابن الشيخ
 هذا النوع يزرع عندنا كثيراً الا ان عوده قصير وورقه صغير
 ولا يشربه الا الفقراء ونحوهم من اهل القرى وقد ظهر الان عندنا
 نوع يشرب في النرجيلة يسمونه التنباك يقولون ان في شربه فوائد
 فقال الخوجا مورييس انواع الدخان كثيرة واختلافها
 باختلاف البلاد التي تجلب منها فالذي يجلب من بلاد الفلمنك
 مقبول في الشوق لمارته والذي يزرع ببلادنا لا حصر لانواعه
 فمنه ما يكون ورقه عريضاً ورائحته كرائحة جوز الهند ومنه ما
 يكون ورقه طويلاً قليل العرض ورائحته كرائحة النوشادر وهو ما
 ينبت في الجهات الشمالية من المملكة ومن الوارد من الجهات الاجنبية
 ما يكون له رائحة طيبة مثل دخان هوانا والورجيني وغير ذلك

فقال الحكيم قد كثر كلام الحكماء قديماً وحديثاً في شرب
 الدخان فمنهم من يقول بضرره ومنهم من يقول بعدم ضرره
 والذي اقول به انه لا يخلو من فائدة وانما يجيء الضرر من
 الافراط في تعاطيه

وكيفيات استعماله ثلاث الاولى الاستنشاق به ويحصل منه
 تهيج للغشا المخاطي ويكثر افراز المواد المخاطية ويكثر العطاس وربما
 حصل من قوة العطاس تمزيق لبعض الاغشية ويحدث رعافاً
 ويحول قبة العين والاكثر منه ربما يذهب حاسة الشم ومن

فوائده ان من تعود عليه خف نومه وامن من الصداع ووجع العين والاسنان

الثانية شربه في السجاره يكثر اللعاب ويعقب ذلك التخدير وضعف الهضم وربما حصل منه استفراغ ودوخان فان تركه متعاطيه زال ذلك بعد زمن يسير وان رجع اليه رجع كل ذلك وهناك اشخاص لا يمكنهم تعاطيه اصلاً

ومن المشاهد ان من اكثر منه تشقق سقف حلقه وقال بعضهم ان شربه يورث لنا في الغشا اللعابي في الشفة واللسان وانتفاخا خفيفا في الحلق ترشح منه مواد مضره تهيج طاقات الانف فتارة تسقط في الحنجرة وتارة تخرج من الانف مخاطا قذراً وقال بعض الحكماء ان شربه يوهن في العينين ويهيجها اكثر من تهيجها من دخنته في الخارج ولذلك يرى شارب الدخان عقب قيامه من النوم داعم العينين محمرهما ويحس فيهما بحرارة والمكثرون منه يحسون بالحم في جباههم والمكثرون من البصاق تضعف عندهم قوة الهضم والتغذي وبعضهم يقول انه يحصل من مائه المخلط بالدخان المتبلع التهاب وتهيج للعدة وقد شاهدت بعض المرضى لا يستقر الطعام في جوفه وكان ممن ابتلي بشربه فيتعاطى سجارات كثيرة بعد الأكل فنهيته عنه فبرىء

ومن آفاته عند المكثرين منه تأثيره على الحنجرة والرئتين فينشأ من ذلك غلظ الصوت والسعال ونقص ضربات القلب

وخلل انتظامها وضعف الفكر وارتعاش الايدي واصفرار اللون
وسواد الاسنان وزرقة الشفتين وفور الاعصاب

والثالثة مضغه وذلك بوضعه تحت الاسنان فيخرج من الضغط
عليه مادة اذاعة تخلط باللعب وتدمي اللثة وقال بعض الحكماء
انه ينقص العقل وليس كذلك وانما يتخلف من مضغه نكهة
خفيفة تزول بالمضمضة الا انه يضر باللسان وبالاسنان لانتلافه
ثوبها الظاهر المحافظ لها ويضر بحاسة الذوق وربما آل الامر الى
فقدته وبلغ عصارته اشد ضرراً وقد رايت رجلاً من الملاحين
في الم شديد وتشجات بعد بلع مضغته وكان بقيء ويتأب كثيراً
فخلصته من ذلك بعد زمن ولو تبعنا ما قالوه في الدخان نفعا
وضرراً لاتسع المجال فمن ذلك انهم يقولون انه يسرع الهضم وانه
امان من داء الاسكوروبوط ووجع الحلق وانه مفسد للعقل ولكن
ليس ذلك في جميع احواله بل متى كان تعاطيه في الهواء الخالص
من غير افراط فلا ضرر منه سواء كان شرباً او مضغاً او استنشاقاً
ومن المعلوم ان استعماله في جميع الجهات وانكباب الناس
عليه علامة على انه مخفف للهموم والوحشة وانيس في العزلة
ومساعد على تحمل مشاق الفقر والفاقة فلذا ترى اهل الصحاري
الواسعة وسكان الجبال الشامخة وارباب الاعمال الشاقة والافكار
العالية مشتركين في تعاطيه فحيث لا يطلق القول بمدحه او ذمه
ولا عبرة بما قاله الكياويون ونرى المشرقيين لا يفارقون الشبوق

حتى ان الدولة العثمانية وجميع اهل الثروة والرفاهية قد جعلوا له
 غلمانا من خواص خدمهم وسموهم للتنجية نسبة الى التين اسم للدخان
 غير عربي

فقال ابن السنج قد يقرب من تايدك في الدخان بيتان احفظهما
 لبعض العلماء وقد عيب عليه شرب الدخان قوله
 لقد عبرونا بالدخان وشربه

فقلت دعونا اذ له الامر احوجا

لانا رأينا الهر في قاع صدرنا
 كميناً فدخنا عليه ليخرجنا

فقال المحكم قد اصاب القائل ورايت ان بعض من ابتلي
 به من الكياويين استحسن استعماله في الشبكات الطويلة لبقى
 النيكوتين في المواضع الباردة من العود بخلاف الشبكات القصيرة
 فان تلك المادة تكون قريبة من الفم وكذلك استحسن شربه
 جافاً ونهى عن استعماله مبتلاً قال لان النيكوتين في الحالة
 الاولى يتحلل بالحرارة بخلاف الحالة الثانية لان الرطوبة تمنع استحالته
 فيكون مع البخار ولذا نرى من يشربه يتأثر من المبتل اكثر من
 الجاف ثم قال ويجنب تعاطيه على الريق وقيل الاكل ويغسل
 الفم بعد شربه اما بالماء الخالص او الممزوج بقليل من
 ماء الملكة

وينبغي لمن يشرب السجارة ان لا يتجاوز نصفها لان جميع

النيكوتين ينزل الى النصف الثاني ومن اراد ان يشربها بتمامها
فليخذ له فنا من كرام او عظم او عاج ويتجنب شرب سجارة شرب
بعضها وتركت زمنا وذلك لانه يقال ان مادة النيكوتين فيها
حيثذ كثيرة فكذا تكون في المرة الثانية مرة عن المرة الاولى
وقد ذكرنا ان طوال الشبكات والذرجيلات احسن من
قصارها وارداً الشبكات ما اتخذ من الطين لان تلك المادة اسرع
فيه وصولاً الى الفم منها في غيره

فقال مورييس للحكيم انا اكثرنا عليك واشغلناك عن مهماتك
وقد افدت واجدت واني كنت قد وعدت اصحابنا بان اخذ
لم من حضرتكم تذاكر يدخلون بها الاستباليات فقام مسرعاً
وانجز وكتب لبعض حكماء الاستباليات خطاباً اطب فيه في
الوصاية بهم فاخذوه وقاموا فلما استاذنوا للقيام قال لابن الشيخ
اني وان لم اكن عربياً لكني محب للعرب لاسيما المصريين واود
ان ارى والدك فاثني ابن الشيخ عليه خيراً وشكره على ما استفاده
منه ثم ودعوه وخرجوا فلما استقاموا في الطريق قال ابن الشيخ
ليعقوب ليتنا راينا معامل الدخان فقال له ذلك امر سهل الا
ان الوقت قد اذف فان ميعاد الرجوع قبل الزوال فقال له
وهل سبق لك دخولها قال نعم ولكن في غير هذه البلاد والطرق
كلها واحدة وقد رايت الذين يزرعونهم يعتمنون به اغناء زائداً
وبعد حصاده يخلصون ورقه من حطبه ويضمون بعضه الى

بعض بعد جفافه ويضغطونه ضغطاً قوياً ويكبسونه كبساً شديداً ويجعلونه بالات لثلاً يكون حجمه كبيراً ثم يبيعونه كذلك او يرسلونه الى الفوريات ولم فيه هناك ثلاثة اعمال الاول فرزّه وتنظيفه والثاني تنديته بالماء المالح لاجل تليين الورق وعدم تعفنه والثالث تنقية جدوره واضلاعه الكبيرة منه والتندية تكون في مخازن مبلطة بالحجر ومنقسمة الى اقسام فيوضع الدخان فوقها طبقات قليلة السمك ولم في تنديته حساب على حسب ما يريدون ذلك انهم يسخنون له ماءً مالحةً ويجعلون تسخينه درجات بحسب اجناسه فيضعون على كل مائة من دخان النشوق واحداً وعشرين من الماء المالح الذي تكون حرارته في الدرجة الثانية عشرة وعلى كل مائة من دخان المضغ عشرين وعلى كل مائة من دخان السجارة ثمانية وعلى كل مائة من دخان الشرب ثمانية وعشرين من الماء الذي حرارته في سادس درجة

وانواعه من حيث الاستعمال اربعة النشوق والمفروم والمضغ والسجارة فاما دخان السجارة فتستعمل فيه النساء فتلف المرأة بين اصابعها الاوراق الصغيرة وتكسيها بورقة خالية من التقطيع والجدور واما دخان الشرب فيفرم بالة بخارية ثم يجفف بوضعه في صفائح محوطة ثم يمر عليها بخار حار ثم اقل منه حرارة ثم يجعل ربطاً صغيرة من عشرة كيلو الى خمسة اعشاره واما دخان النشوق فعمليته اصعب لانه يحتاج

الى اخبار النوع الموافق ثم يفرم ناعما ثم يوضع في مخازن كيما
ارتفاع كل كوم نحو اربعة امتار وعرضه الف كيلو جرام ويترك
هكذا نحو ثلاثة اشهر الى ان يخبث وتبلغ درجة حرارته من
ستين الى ثمانين درجة ويتصاعد منه ابخرة شديدة الرائحة غير
معلومة يظن انها نشادرية او نيكوتية وهي المادة السمية التي ذكرها
الحكيم واقواه تخمراً ما كان في الزوايا وتحت السطح الاعلى
بنصف متر واقله تخمراً ما كان على بعد متر من القاعدة ويكون
معدوماً في القاعدة وللجودخل في تخميره واستوائه فيتقدم ويتاخر
على حسب درجة الجو حرارة وبرودة فاذا اشتدت الحرارة في
الكيمان جعلت اكواما صغيرة لئلا تحترق وتثبت حرارته بعد خمسة
اشهر او ستة وبعد ذلك ينقلونه من مواضعه بعمال معتادين
على ذلك لانه يقوم له رائحة كريهة ودخان كثير في ذلك الوقت
وبعد تمام تخميره يسحق في طواحين مخصوصة ثم يجهر ويسحق
ثانياً وثالثاً فيصل الى الدرجة المرغوبة في النعومة ويكون قدر
الرطوبة فيه ثمانية عشر في المائة ثم يوضع في مخازن غير الاولى
ويكبس فيبقى هكذا نحو عشرة اشهر لا يصل اليه هواء فتعود له
الرائحة والدخنة والحرارة فان خيف عليه من تاثير الحرارة نقل الى
مخازن اخرى ولا يخفى ما في هذه الاعمال من الصعوبة على العمال فانه
بسبب نعومته يتلىء منه فراغ المحل فيدخل في العين والانف
والحلق فيحصل منه لهم مضايقات شديدة وغالبا تكون ثقلاته

ثلاث مرات وتارة يكتفى بمرتين فيتكون عن ذلك نشوق على درجات مختلفة على حسب اختلاف الرغبة فيه ويقال ان تخميره وتكرار نقله مما يضعف مادته السمية فلا يحصل منه ضرر لمضاعفاته وبعد هذه الاعمال كلها ينخل وكان اولاً ينخل بالايدي واما الان فبالآلة بخارية وبعد نخله يخزن في المخازن ثم يعرض للبيع

واما دخان المضغ فعمليته اسهل من ذلك وهو جنسان عادي وخصوصي فالاول عبارة عن حبال نفتل من اوراقه بالآلة مخصوصة والدخان المستعمل في ذلك اقل جودة من الخصوصي الذي يتقى من جميع عوارضه ويجعل طبقات هذا اجمال ما يعمل في الدخان وان كان الخبر ليس كالعيان فهل له بمصر شان كما له هنا

فقال ابن الشيخ وما شأنه هنا فان غالب الناس بهذه البلاد لا يشربون الا السجارة وقل من يشرب في شبك وان وجد فقصر لا يزيد عن شبر وياليت له من خشب بل من طين

والدخان الذي يشرب عندنا يجلب من الشام لا من هنا وهو نوعان صوري وجبلي وهو اطيب نكهة واذكى رائحة من الصوري وان كان الصوري اقوى منه نفساً فمنهم من يشرب كلاً على حدته ومنهم من يفرمها معاً وقد حدث الان نوع يقال له الكوراني يقال انه اقوى من الصوري وهناك دخان يقال له (حسن كيف) ولكن هذا لا يشربه الا حرافيش الناس واسافلهم وهناك نوع يشربونه في النرجيلة يسمونه التنباك وهو نوعان عجيبي

وحجازي ويقولون ان العجبي احسن كيفاً من الحجازي والان شربه
بمصر على حسب درجات الناس رفاهية ورغبة فمنهم من يشرب
في نرجيلة محلاة بالذهب والفضة ومنهم من يتخذها مرصعة بالجواهر
ومنهم من يجعل انبوتها من القصب الفارسي ومنهم من يجعل لها
نريج (لياً) قد امسك بسلك من نحاس وفي طرفه قم من خشب
او عظم او كرم ومنهم من يكسوه بمجوخ ومنهم من يكسوه بحريز
زرکش بذهب او فضة وكذلك الشبكات منهم من يتخذها من ياسمين
ومنهم من يشرب في عيدان من كرز ومنهم من يشرب في عيدان
من الجرمشق مكسوة بالحريز او غيره ويتخذون مباسم تسمى تراكيب
منها الكارم الصّرف ومنها الكارم المرصع بالجواهر كالماص ونحوه
ومن المترفين من يكسوها بالحريز المنظوم في اللؤلؤ والمرجان كل
على حسب رغبته ودرجة رفايته سواء في ذلك الرجال والنساء
ومن اعتناء المشرقيين بشرب الدخان يجعل له بعض الاغنياء
خدمة خاصين به

فقال يعقوب اظن ان تولع المشرقيين بالدخان واعتناهم به
هو السبب الاعظم عندهم في الاكثار من العبيد والخدم والجواري
ولقد طفت البحار وجبت القفار فها اجتمعت بقوم الا
وجدتهم يشربونه او يمزغونه او ينشقونه فما قدر لي ان اتعاطى
شيئاً منه خصوصاً لما رأيته من حال رفعتي الذين يتعاطونه من
الفاقة وسوء الحال وربما كان بعضهم يبيع ثيابه وبعض ما يحتاج

اليه ويصرف ثمن ذلك على هذه الشجرة فانصحك نصيحة اخ مشفق
ان لا تشربها ولا تقربها

المسامرة (١١٤)

البنّ

فقال ابن الشيخ اما الان فانا على يقين من كراهتها واما في
المستقبل فلا ادري ما يقدر عليّ واخشى ان طالت بنا الاقامة
هاهنا ان تغلب الموافقة على الطبع وتقلب المعاشرة الوضع ولقد
اخبرني والذي انه لم يتعاط النشوق الا للاستعانة على السهر في
طلب العلم ثم لما تبادى به الحال لم يمكنه تركه وكذلك القهوة فانه

ايضاً اعناد شربها وانكب عليها انكباً زائداً فكان من شدة حبه لها ونحن بمصر يطلبها قبل النوم ثلاث مرات فضلاً عما كان يشربه طرفي النهار ووسطه وفي كل مرة لا اقل من ثلاثة فناجين او اربعة فقال يعقوب فماله هنا ترك هذه العادة واقل من شربها فقال سببه رداءة البن هنا وضعف نكهته بخلاف بن مصر فانه جيد محبوب من اليمن ولا يرد اليها من بلاد الفرنج الا القليل ومن يشتري البن الفرنجي لا يقصد به الا الغش حتى ان من يعرف به من القهوجية عندنا يقف حال بضاعته

فقال يعقوب ان شجرة البن ايضاً عمت بها البلوى في جميع الجهات وصارت من المكيفات التي لا يمكن الاستغناء عنها عند كثير من الناس وقد رأيت في كتب المؤرخين ان هذه الشجرة كانت معروفة عند اليونان والعبرانيين وذكروا انها تنسب الى البلاد الحارة كبلاد الحبشة والعرب وانه لم يظهر استعمالها ببلاد المشرق الا سنة ثمانمائة وخمس وسبعين من الميلاد اي سنة مائتين واثنين وستين من الهجرة وان اول ظهورها كان باليمن ثم ظهرت ببلاد الهند ثم باوروبا ثم بأمريكا ولم تظهر بايطاليا الا سنة الف وستائة وخمس واربعين ميلادية وبلوندره الا سنة الف وستائة واثنين وخمسين وبميسيليا الا سنة الف وستائة وواحد وسبعين وبباريز الا في سنة الف وسبعائة وسبع وستين

وفي القرن الثامن عشر ايام الملك لويز الرابع عشر اهدي اليه

شجرة بن من مدينة أمستردام فاستنبتها فلما طلعت وازهرت ارسل
 منها الى جزيرة مرتينيك ثلاث شتلات لتزرع هناك فأتت اثنتان
 منها في الطريق وسلمت واحدة فغرسوها فلما اثمرت اخذوا منها
 وزرعوا فلما اثمرت اخذ منها اهل جزيرة جوادلوب وجزيرة سندومنت
 الى ان ملأت اشجار البن أكثر بلادهم وصارت من انفس تجاراتهم
 ولولا ذلك لعزت حبته وعلت قيمتها

ولقد رأيت في بعض جرائد الحوادث ان المتحصل منه في
 سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين مائتان وخمسة وستون مليوناً
 كيلوجراماً

وبيناه من بلاد البريز بلا مائة وثلاثون مليوناً ومن بلاد
 جافا خمسة وخمسون مليوناً

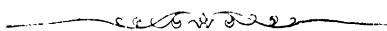
ومن جزيرة سيلان اي سرنديب سبعة عشر مليوناً
 ومن جزيرة هايتي ستة عشر مليوناً ومن جواترا خمسة عشر مليوناً
 ومن كوبا اربعة عشر مليوناً ومن سومترا خمسة ملايين ومن
 كوستاريكا مليونان ونصف مليون ومن جنوب مخا مليونان ونصف
 مليون ومن جزائر اللاتي الانكليزية مليونان ونصف مليون ومن
 جزائر اللاتي الفرنسية والمولندية مليون ونصف ومن ماني
 مليون واحد ونصف ومن بلاد افريقيا وغيرها ثلاثة ملايين
 فترى البن اليمني وهو بن مخا قليلاً جداً وهو اطيب انواع البن
 والذها واكثرها مادة

وقد احصى البن المشروب سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين
فبلغ ٢٤٠١٨٠٥٥٠ كيلوجراما في بلاد الانكليز والمشروب في
تلك السنة بعينها ببلاد فرانس ٢٧٠٩٨٥٦٠٠ فما بالك بغيرها من
بلاد الدنيا فانك لا تكاد تجد مدينة ولا قرية ولا حلة ولا كبرا
ولا عزبة في الدنيا الا ولاهها شغف بشرب التهو الا انها لا يصلح
لزراعها ولا نمو شجرتها الا الارض البعيدة عن البحر المحفوظة من
هوائه المعرضة لجهة الشرق التي لا تزيد حرارة جوها على ثلاثين
درجة مئنية ولا تنقص عن عشر درجات وكيفية زراعها ان
تزرع الشتلة في ارض جيدة اولاً فلا تنبت الا بعد خمسة اسابيع
ثم تنقل بعد سنة او اربعة عشر شهراً فاذا نقلت جعل بين كل
شجرتين ثلاثة امتار ويخالف بين اشجار الصف الاول واشجار
الصف الاخر بحيث تكون شجرة الصف الاول مسامنة للمتصف
بين اشجار الصف الاخر ولا تثمر اشجاره الا بعد ثلاث سنين او اربع
ويلزم لها الاستمرار على الخدمة بالسقي والتنقية فانها تحتاج الى
شرب الماء كثيراً وما دامت مخدومة فلا تزال تثمر الى ثلاثين عاماً
او اربعين وزهرها وان كان لا ينقطع في اكثر السنة الا ان المعول
عليه زهر فصلي الربيع والخريف ولا ينضج الحب الا بعد سقوط
الزهر باربعة اشهر فاذا نضج جمع بالايدي وفي بلاد العرب من
يفرش له تحت الشجرة ثيابا او حصراً ثم يهزها فيسقط منها على الفرش
ما طاب فيجمعونه ويتمون تجفيفه في الشمس وله مدقات من

خشب او حجر فاذا جف دقوه بها فيخرج من جوزه ثم ينشرونه في الشمس ثانياً وهناك من يستعين على فصله من جوزه بالماء فيضعه فيه يوماً وليلة او يومين وليلتين ومنهم من يدشه بالرحى وبعد ذلك كله يحففونه ثم يضعونه في طرود وزنايل يجعلونها متباعدة غير متجاورة لئلا يتعفن البن بتجاوره فتقل جودته وتخبث نكهته وكذلك يفعلون في نقله الى الجهات والاقطار البعيدة

واما تحميمه وسحقه ووضع في الماء او صب الماء عليه وغليه بالنار عند ارادة شربه فمعلوم عند كل من يتعاطاه كل على حسب رغبته فمنهم من يبالح في تحميمه ومنهم من لا يبالح ومنهم من يسحنه في مسحن من فخار بآلة من خشب ومنهم من يدقه بمدقة من حديد ومنهم من يطحنه بيده في طاحونة ويتغير طعم القهوة ولذتها تبعاً لطرق التحميم والعلامات الدالة على جودة استواء تحميمه هي نقص الرائحة التي تظهر في مبدأ التحميم وندوة الحب ولمعانه وميله الى لون بين السواد والحمرة وبالتجربة علم ان الحبة بعد السواء يزيد حجمها بقدر الثلث وينقص وزنها بقدر الخمس واذا بلغت استواءها وسحقت في الحال صارت القهوة جيدة وكلما تأخرت نقص ذلك منها واذا مكث البن زمناً في المخازن ضاع كثير من مزاياه وبن مخا تضعيع أكثر خواصه بعد سنتين واما غيره فينبغي ان يكون مكثه في المخازن سنة فان اقام اقل من ذلك كانت قهوته شديدة المرارة كريهة الرائحة وان بقي أكثر من ذلك كانت

اشهى واجود وما يلزم التنبيه عليه انه ينبغي سرعة تبريد البن بعد
التحميص بان يفرغ دفعة واحدة على رخامة وما اشبهها وذلك
لاجل ان لا يتبخر مقدار كبير من الدهن الذي هو السبب في جودته
ولذته وكذلك لا يصب الماء المغلي على المسحوق منه لئلا يتصعد
كثير من بخار القهوة وتضيع اكثر مزاياها وللناس كلام في شرب
القهوة فمنهم من ذمها ومنهم من مدحها والانصاف التفصيل بجمل
كلام من ذمها على الاكثار منها وكلام من مدحها على التقليل
قال ابن الشيخ واختلف فيها ايضا علماء الشريعة الاسلامية
بالجواز وعدمه والحق انها يعتريها الاحكام بحسب ما يترتب عليها



المسامرة (١١٥)

الانهر

ثم انها تذكر الوقت المقدر لها فكراً راجعين فلما دخلا على
الشيخ والانكليزي قال لها الخواجا لقد تجاوزتما الوقت المقدر لكما

فما ابطاء كما فاخبراه بتقابلها مع الخواجا مورييس وما صنعه معها من توجهه معها الى الحكيم واخذه منه خطابا لحكام الاستباليات فقال لها الخواجا قد اصبتما وفعلتما فعل العقلاء ونحن الان متوجهون الى بستان النبات ثم امر بالعربة فركبوا جميعا الى ان وصلوا الى قصر الملك فقال الخواجا للشيخ هاهنا طريقان احدهما من وسط البلد من المحارات والاخر على شاطئ النهر ولكل مزية فايها احب اليك فقال الشيخ اظن ان الذهاب على شاطئ النهر اشرح للصدر واجلى للبصر فاشار الى السائق بتوجيه العربة اليه وكان بالطريق قنطرة فلما جاورها عدل بالعربة الى الشاطئ وقال الانكليزي ان البلدة التي سنسكنها هي بشاطئ النهر وبعدها من باريز يوم في البحر ونصف ساعة بسكة الحديد فخير الخواجا الشيخ بين النزول في البحر وركوب سكة الحديد فاختر طريق البحر لما فيها من الاطلاع على الفوائد الجمة بخلاف سكة الحديد فلا يطلع معها على شيء فركبوا البحر في مركب تسر الناظر وتشرح المخاطر ثم ان الشيخ كلما التفت يمينا رأى منازل مشيدة وتحتها دكاكين وخانات منظمة ملئت باصناف البضاعة وكلما التفت يساراً انحو النهر رأى اناسا كثيرين ما بين بائع كتب واوراق حوادث وبائع لعب اطفال ودفاتر سجارة وما يشبه ذلك منهم من وضع بضاعته على الارض ومنهم من هيا لها دكاكين من خشب واذا نظر الى البحر لا يرى الا مراكب صادرة وواردة لا يرى الماء من خلالها لكثرتها

فقال كنت وأنا بمصر اذا رأيت المراكب التي على سواحلها اعجب من كثرتها والان لا اعدّها شيئاً بالنسبة لما اراه هنا فقال الخواجا ومع ذلك ما تراه ليس شيئاً بالنسبة لما يرد ويصدر بسكة الحديد وذلك لان باريز صارت الان مخزناً عاماً لكل ما يلزم لسائر الجهات

فقال الشيخ وهل بفرانسا نهر غير هذا فقال انهاها كثيرة احدها نهر السين وهو هذا وليس هو معدوداً من الانهر الكبيرة وبها نهر يسمى نهر اللوار يخرج من جبال يقال لها جريدجون مرتفعة عن سطح المالح بقدر الف وخمسة واثنين وستين متراً ويسير اولاً من الجنوب الى الشمال بين جبال شامخة كانت قديماً بركانية ويمر على مدن وقرى وقلاع وله فيضان عنيف حتى انه يتسبب عنه في بعض الاحيان خراب البلاد كليل مصر اذا فاض وينصب فيه من جهتيه خلجان كثيرة كلها واردة من الجبال المحددة لواديه وله انعطافات كثيرة ويمر بثمانية عشرة مديرية ثم يصب في بحر يقال له البحر الابطلنطقي ومن منبعه الى مصبه تسعمائة كيلومتر الصالح للملاحة منها الثلثان وارتفاع منبعه عن سطح المالح ستة وثلاثون الفا واربعائة متر وليس عميقاً وارض قاعه رملية وجزؤه المنحط جسوره عالية لوقاية اراضي الزراعة وبها ايضاً نهر يقال له نهر الرّين منبعه جبل سانجوتار ومصبه البحر الابيض المتوسط وارتفاع منبعه عن مصبه نحو الف وسبعائة

واربعة وخمسين متراً واولاً يكون في وادٍ ضيق عميق وينجبه بين الشمال الغربي والجنوب الغربي في وسط جبال الالب الشامخة وفي طول مائة واربعة واربعين الف متر من ابتداء مصبه يكون اللسان المتكلم به على ضفته الشرقية اللسان الالماني وفي الاخرى اللسان الفرنساوي وله انعطافات كثيرة وفي مروره يخترق لسان العظيمة وطولها من الشرق الى الغرب اثنان وسبعون كيلومتراً وعرضها اربعة كيلومترات في اضيق محل منها وفي اوسع محل منها اثني عشر كيلومتراً وارتفاعها فوق سطح المالح اربعمائة متر تقريباً ويفصل ما بين فرنسا واقليم سفوا واقليم سويسرا وينصب فيه اربعون نهراً جميعها من الجهة الجنوبية وليس عليه في هذه المسافة مدينة كبيرة سوى مدينة يقال لها لوزان وبعد خروجه من تلك البحيرة عند مدينة جنوه يدخل ارض فرنسا ويأخذ نحو الجنوب ويسير بين الجبال وبعد مسافة كبيرة من سيره يتكوّن عنه مع نهر اخر يقال له نهر الساوون بحيث جزيرة بها مدينة ليون التي تلي باريز في الشهرة بفرنسا فيكون جانب من تلك المدينة على احد النهرين والجانب الاخر على النهر الاخر وعليها قناطر للورور وكانت هذه المدينة ايام الرومانيين تحت تسلط الغول وعدداها الان مائة الف وخمسة وستون الف نفس وهي مدينة عظيمة ذات ورش ومعامل خصوصاً للحرير وقد مر عليها من الحوادث الطيبة وضدها ما لم يمر على مدينة غيرها خصوصاً ايام الامم المتبريرة التي

كانت تغلبت على ارض الغول عند تضعضع دولة الرومانيين
وعند تقسيم مملكة شارلماني كانت تخناً لمملكة البرغوني ولم تدخل
في حكم مملكة فرانسا الا سنة الف وثلثائة واثنى عشر ايام الملك
فيليب الملقب بالجهيل فلما قامت الفرنساوية ارادت الخروج عن
الطاعة فحصروها حتى دخلت تحت طاعتهم وفيها معمل بارود
ومدرسة وورشة للطوبجية وهذا النهر بعد خروجه من المدينة
ينعطف نحو نهر الساوون على زاوية قائمة وبعد ذلك ينعطف
من الشمال الى الجنوب وهو نهر كبير العرض قوي الانحدار لحبسه
بين الجبال التي ترسل له تيارات قوية من السيول فيزيد بها
بغته وتكبر سرعته وجريانه فيمرّ بمدن وقرى وحصون كثيرة الى
ان يصل مدينة ارل ثم ينقسم قسمين احدهما يسمى الرون الكبير
يسير الى الجنوب الشرقي والآخر يسمى الرون الصغير يسير الى
الجنوب الغربي ثم ينقسم الكبير قسمين احدهما يسمى الرون العتيق
والآخر يستمر على اسم الرون الكبير ثم ينقسم الرون الصغير قسمين
احدهما يستمر له اسم الرون الصغير والآخر يسمى الرون الميت وجميع
هذه الاقسام تصبّ في البحر المالح وطول النهر من مبدئه الى
منتهاه ٨٠٠ الف متر منها ما هو صالح لسير السفن وهو خمسمائة
وعشرون الف متر ومنها ما لا يصلح وهو الباقي ولا نعلم باوروبا
نهرًا اقوى منه جريا لكثرة الانهار التي تنصب فيه ويمر من
ارض فرانسا على تسع عشرة مديرية ونهر الساوون المذكور عبارة

عن أحد نهيراته وعليه بلاد ومدن وقلاع وحصون كثيرة كغيره
من الأنهار وفي ذكرها تطويل على حضرتكم

وأما نهير السين فمنبعه من الكوتدور ومصبه البحر الملح وارتفاع
منبعه عن مصبه اربعمائة وستة وأربعون متراً ويمر من جهة الجنوب
الشرقي الى الشمال الغربي مستقيماً الى ان يتجاوز مدينة تروى
فيأخذ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وهناك يصلح لسير السفن
وهو يمر بمدن شهيرة وبلاد كثيرة وارض متسعة الى ان يصل
باريس ويتجاوزها فيمر بمدينة سانكلو التي فيها منتزهات الملوك
وعلى يساره على بعد ثمانية آلاف متر مدينة ورساي التي كانت
مقر الملك لويز الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر وهي
المشهورة بمجاذته قيام فرانسوا وعلى بعد اربعة الاف متر من جهة
الغرب مدينة سانسير المشهورة بمدرسة اللياده المعدة لتحضير
ضباط اللياده الفرنسية ويمر ايضاً بمدينة ساندنيس المعدة من
قديم الزمان لدفن ملوك فرانسوا الى الان ومدينة روان التي
كانت في الزمن القديم مقر حكومة النورمندي وهي من
المدن الشهيرة وعدد اهلها مائة الف نفس وفيها ورش ومعامل
وكانت سابقاً من القلاع الحصينة وجميع السفن ترسو عندها ثم
ينعطف هذا النهر انعطافات كثيرة الى ان ينصب في البحر
الملح قريباً من مدينة هافر وطوله من مبدئه الى مصبه ستمائة
وأربعون الف متراً والقابل لسير السفن منها اربعمائة وثمانون

الف متر وينصب فيه من جانبيه انهار صغيرة فعلم ما ذكر ان
نهر السين ليس اكبر انهار فرانساً وان كان اكثر منها نفعا
لكثرة المدن ذات الصنائع والمعامل والتجارة على شاطئه لاسيما مدينة
باريس هذا هو سبب شهرته

فقال الشيخ في هذا الاوان يفيض نهر النيل ويروي ارض
مصر عموما صعيداً وبحيرة وتبتدى زيادته بعد النقطة القبطية ويتم
ارتفاعه في شهر توت بخلاف باقي الانهر وللنيل خواص كثيرة
منها انه لا يعلم مبداه ومنها ان سيره من الجنوب الى الشمال مع
ان جميع الانهار تجري من الشرق الى الغرب او بالعكس ومنها
انه من المخرطوم الى ان ينصب في بحر الروم لا ينصب
فيه غير نهر ادبرا

وما اختص به هذا النهر ما ياتي معه من الزبد الذي
لولا ما كانت ارض مصر ولا سكنها انسان ولا عاش بها حيوان
حتى قيل انه اعظم الانهار طولاً وجرياً واكثرها للارض فائدة ورياً
وخصباً وطمياً

فقال له الخواجا هناك ما هو اعظم منه طولاً واسرع جرياً
لان غاية ما يبلغ طول النيل من مبتدئه الى مصبه تسعمائة
وسبعون الف متر واكثر اتساعه الف متر ولا تزيد سرعته
عن اربعة كيلو مترات في الساعة الواحدة وغاية ما يصرف في
الدقيقة الواحدة تسعة وثلاثون متراً مكعباً وربع متر مع ان

باوروبا نهر فولجا طوله ثلاثة ملايين وثلاثمائة واربعون الف
 متر ومنافعه ببلاد الروس كثيرة لانه اعظم طريق لنقل تجارتهم
 الداخلة والخارجة من المديریات الى التخت فضلاً عن نقل
 النیل والكتان والحديد والطوب والشاي والمشروبات وكذلك
 نهر الدانوب (الطونة) بالمانيا فان طوله مليونان وسبعائة وخمسون
 الف متر ونهر الدون بالدال المهمة ببلاد روسيا طوله مليون
 وسبعائة وثمانون الف متر ونهر الدينير في بلاد الروس ايضا
 طوله مليونان من الامتار ونهر يانج تسي كيانج باسيا طوله
 خمسة ملايين وثلاثمائة وثمانون الف متر ونهر الكنك وطوله
 مليونان واربعائة الف متر وعرضه خمسمائة وخمسون متراً وهذا
 النهر اعظم طريق لسير المراكب للتجارة في هذه الجهات وقد
 قدروا عدد الملاحين به فوجدوهم ثلاثمائة الف نفس وقيمة
 ما ينقل منه في السنة الواحدة من البضائع قريب من ثلاثمائة
 مليون من الفرنكات وقد اخذت منه الشركة الانكليزية
 خليجاً كبيراً لاصلاح زرعهم بطوله الف واربعائة واثنان وثلاثون
 كيلو متراً

وبافريقيا انهار غير نهر النيل منها السنجال طوله الف ومائة
 وخمسة وعشرون فرسخاً واعظم من ذلك كله انهار امريقا واكبرها
 نهر مسيسيبي فان طوله سبعة ملايين متر وعرضه في اضيق
 طريقه ثلاثمائة متر ويعظم الى ان يبلغ الفاً وخمسمائة بل ٢٥٠٠ متر وعمقه

في بعض المواضع من خمسة عشر متراً الى عشرين ويبلغ في بعض الجهات ستين متراً وثمانين ويمر بارض تقرب من مائة وثمانين الف فرسخ مربع اي مقدار سعة فرانسوا سبع مرات ويقطع في الساعة الواحدة ايام تقصيره اربعة اميال انكليزية وايام زيادته يعسر ركوبه لشدة جريه وفي كل مائة متر من طوله يكون اتحدار مجراه جزءاً من مائة جزء من المتر واكبر فروع نهر المصوري وعرضه من الف متر الى الفين وسرعته في الساعة الواحدة الفا متر وهناك انهار اخرى منها نهر الاورينوك طوله خمسمائة وخمسة وسبعون فرسخاً ونهر البلانا طوله نحو ثمانية فراسخ

واعظم من جميع ذلك نهر الامزون فانه يجلب الى المالح جميع الامطار الواقعة على الوادي المتسع العظيم الذي قدر مساحته سبعة ملايين كيلو متر مربع وهو عميق جداً لان المحس الذي طوله مائة متر لا يصل الى قاعه وعرضه كبير جداً حتى ان اكبر سفن المالح تصعد فيه الى مسافة الف فرسخ وفي جميع هذه المسافة لا ترى شواطئه لعظمه وسرعته شديدة يقطع في الساعة الواحدة ثمانية الاف متر وما يصرفه في اللحظة الواحدة من الماء قدر ما يصرفه ثلاثة الاف نهر مثل نهر السين في تلك اللحظة وفي ارض كندا بامريكا نهر سانلوران عرضة عند مصبه عشرون الف متر وبعد اربعمائة وخمسين الف متر من المصب يكون عرضه اثني عشر الف متر ويخرج منه ثمانية خلجان اكبرها خليج

ويلاند المار من بحيرة ايريه الى بحيرة اونتاريو بعد ان
 تجاوز شلالات نياجارا وطول هذا الخليج خمسة واربعون
 الف متر وعرضه ايام زيادته مائة متر وايام نقصه تسعة وعشرون
 متراً وثلاثاً متر وعرض قاعه ثلاثة عشر متراً وثلاثاً متر وعليه
 سبعة وعشرون هويساً موزع عليها الانحدار الكلي بين البحيرتين
 وهو سبعة وعشرون متراً واما من خصوص عظم السرعة والجريان
 فليس هناك نهر اعظم من نهر دجلة والاندوس (سيحون)
 والدانوب (الطونة)

وفي جميع هذه الانهر تنصب انهر كثيرة فنهر الدانوب
 ينصب فيه مائتا نهر بين صغير وكبير ونهر وولجا ينصب فيه
 ثلاثة وثلاثون نهراً وهذه الانهر كلها مع كثرتها وغزارة مائها
 واتساعها طولاً وعرضاً ليست شيئاً بالنسبة للبحر الملح فانه
 لو فرض جفاف البحر الملح ونضوب الماء عنه وسلطت
 عليه جميع انهر الارض فلا ثملاء كما هو الان الا في اربعين
 الف سنة

فقال الشيخ قد افدتني في الانهر ما لم يكن يخطر بالبال ولا
 كان له في النفس خيال فله درك من حبر خير وعارف بصير
 ولكن مع ذلك فالنيل اعظم الانهار بركة واكثرها فائدة وقد
 ورد عندنا في السنة المحمدية والشريعة الاسلامية انه افضل انهار
 الدنيا كما قيل في ذلك

وأفضل المياه ماء قد نبع

بين أصابع النبي المتبع

بليه ماء زمزم فالكوثر

فنيل مصر ثم باقي الأنهر

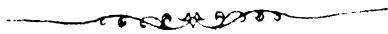
وللنيل مزايا انفرد بها منها انه يكتفى بسقيه فانه يزرع عليه ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعلم ذلك في نهر سواه ويزيد عند الحاجة وينقص كالعاقل المدير الشفوق فيأتي الى الأرض في اوان اشتداد القيط والحروب يس الهوا وجفاف الأرض فيسقيها ويرطب الهوا وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا يطغى على البلاد بالفساد والأنهار تأتي من جهة المشرق الى المغرب وهو يأتي من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما واثرا على اصلاحه متصلا وليس في الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدرج غيره وليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يحجى من خراج غلة زرعه ما يحجى من خراج غلة زرع النيل وهو اخف المياه واحلاها وأرواها واعمها نفعا وأكثرها خراجا وبالجمل فبطون الدفاتر مشحونة بمزايا النيل ومدحه نظما ونثرا قديما وحديثا فقال الخواجا نحن لا ننكر فضل النيل ولا كثرة مزايا ولكن لو تأمل الانسان لو وجد ان كل نهر في الدنيا لا يخلو من خواص ومزايا منها تلطف حرارة الجو

بالنسبة لكمية مجسم الماء الجاري في كل جهة من الدنيا فان كان نهر بعيد العمق جداً اثر ذلك في الجو فتتقص درجة الحرارة في وقت الشتاء تدريجاً ويستحكم البرد الى ان يجمد ماء النهر فان كانت الافطار متوسطة البرودة في الشتاء بان كانت لا تزيد على ثلاث درجات ونصف مئيتية لم يجمد الماء الا اذا بلغت درجة البرودة ثمانى درجات او عشرًا تحت الصفر

واما البلاد الموضوعة في ثمان وخمسين الى ستين درجة من العرض فان بردها يكون شديداً وقت الخريف لتأخر ذوبان الثلج فان كانت الانهار كبيرة العرض والعمق والسرعة تأثر الجوّ بها وفي الغالب تتبع الرياح اتجاه الانهر وينبئ على ذلك ان اتجاه الاجرة الرديئة تتبع اتجاه الانهر وهذا هو السبب في وجود الحمى عند سكان السواحل والدليل على ذلك المشاهدة فانه في سنة الف وثمانمائة وتسعة عشر ظهرت الحمى في الاندلس وانتشرت حتى سرت الى مدينة سوبل لان تهرى سان لوران وجوادي الكبير قد نشرا في داخل المدير بات اجرة السواحل فالانهر وان كانت بمرورها تاخذ عفونة المساكن معها الا انها لفيضاتها وحصول النشع منها وشدة نقصها ورسوب المواد الطينية منها ينشأ عنها مضار كما يحصل من النيل والكنج والمسيبي والامزون فانها بعد نزولها تترك منافع وبركاً فيتولد عنها امراض بسبب الاجرة الرديئة المتصاعدة منها

وقد دلت التجربة على ان طول الاقامة فوق الانهر التي
بالبلاد المحارة مضرة ضرراً بيننا ودلت التجربة ايضاً على انه اذا
مات واحد من خمسة وثلاثين من سياحي البحر الملح يموت
واحد من ثلاثة من سياحي نهر السنجال بخلاف اهل البلاد
المعتدلة والباردة

والمحكم التي اودعت في المياه كثيرة لم تقف الا على بعضها
وعلى الانسان ان يبحث عن خواصها وخواص غيرها على حسب
الامكان فان الرب الخالق لم يخلق شيئاً عبثاً



المسامرة (١١٦)

الاحجار الكريمة

وها نحن قد وصلنا فلندع الكلام في هذا الباب الى وقت
غير هذا وكانت العرب قد وقفت بهم على باب عظيم مرتفع

فنزّلوا واخذ الخواجا بيد الشيخ حتى وصلا حجرة المامور فلما رأها قام
لها واجلسها وامر لها بتهوة ثم اخبره الخواجا عن سبب مجيهم وان
القصد الزيارة فرحب بهم وقام معهم وراهم عنابر المعادن واحداً
واحداً ثم وقف بهم على طاولة ممرّدة من قوارير وفيها من
جميع الاحجار التي يتخلّى بها وقال للشيخ ان هذه الاحجار هي مثال
الاحجار النفيسة التي يتخلّى بها وفي ترتيبنا هنا ان اولها هو حجر
الفبروزج وهو نوعان نوع سماوي اللون مركب من اوكسيد
الحديد والنحاس والنوع الثاني عظم قد استنجر مع فوسفات الحديد
وهو يوجد عروقاً في مادة طفلية في الارض بنواحي نيسابور من
بلاد العجم والجمهورية والصاغة يؤلفونه مع الماس واللؤلؤ والذهب
وحجر العقيق هو هذا الحجر الاحمر اللطيف وهو مركب من
ألومين وبعض مواد اخرى ويتنوع لونه فمنه ما يكون احمر
يوجد في بلاد البهم والحجر في الصخور البركانية وله معامل في
بلاد الحجر والبهم والتيرول

والزمرّد المشهور ببلاد المشرق وهو مركب من سيليس وألومين
وبعض مواد وانواعه كثيرة منها الاخضر الصافي وهو زمرّد مصر
والبيرو ومنها الاصفر والازرق واعلاها الاخضر وهو المرغوب
بمصر وغيرها

واحسن زمرّد معلومة الان هي الموجودة في خزانة الامتعة
ببلاد الموسكو والزمرّد الموجودة في تاج البابا ويوجد الزمرّد عادة

مغروساً في الصخر

واما الياقوت فهو هذا الحجر الاصفر وهو حجر زجاجي صلب يوجد في اجواف الصخور وانواعه كثيرة منها الاصفر والساوي ومنها الاحمر القاني البهرماني واعلى انواعه ما يجلب من بلاد الهند وما يرد من السكس ومكسيكو ثم اشار الى حجر ذي الوان متعددة بتعدد طبقاته فقال واما هذا فهو الحجر الياني

والصناع تحنال على تعاقب طبقات الوانه فتجعلها في التحضير قائمة او منخية او غير ذلك ويوجد ذلك بفرانسا والمانيا واحسنه من بلاد العرب

وحجر اليشم هذا يستعمل في خواتم وقلائد وبعض حلى واقداح للشرب ونحو ذلك ومحل وجوده الطبقات القديمة التكوين من طبقات الارض

ثم قال واعلى هذه الحجارة حجر الماس وهو حجر زجاجي شفاف مجرد عن اللون له لمعان الماسي وهو سهل الكسر صلب يوشتر في جميع الاحجار ولا تؤثر فيه ولا يجلي الا بمسحوقه وثقله النوعي قدر ثقل الماء ثلاث مرات ونصف مرة ويتركب من كربون اعني فحمًا نقيا خالصا واول من ظن فيه قابلية الاحتراق العالم تتون ومن بعده سلط عليه بعض الكيماويين تياراً كهربائياً شديداً فانحرق وصار فحماً كالذي يوقد به ويوجد هذا النوع في بلاد الهند وبرنزيليا والسييريا ويوجد بين صخر ارض الرسوب القديمة

التكوين المتقولة بالمياه ومن مدة ثلاثة قرون صار الجدي في استخراج
من محاجره ويوجد ايضا في نواحي ديكان وجلوكوند وبانجال
وجزيرة بورنيو واستكشافه في بربيزيليا كان في القرن السابع
عشر في مديرية ميناسجييري والمستخرج منه غشيا كل سنة في
جميع الجهات يقرب من ستة كيلوغرامات الا انه اذا صفي ونقي لا
يلغ الا نحو مائة وثمانين غراما

وكيفية استخراجها بالبريزيليا ان تفتت الصخرة التي يظن وجوده
فيها ثم تغسل في حوضان ما عمق الماء فيها متر ويجلس الغسال على
حافته او بيده قطعة خشب مخوفة تسع اثنين او ثلاثة من الكيلوغرامات
من الرمل فلا يزال يحركها في الحوض حتى يعثر بشيء منه ومن اعتياد
العبيد على غسله لا يفوت الواحد منهم شيء منه ولو صغيرا جدا ومن
عادتهم ان كل من وجد شيئا منه ينادي باعلى صوته قائلاً
قدس الله روح المسيح . ثم يسلم ما وجد للملاحظ فان كانت
قطعة كبيرة كافأ عليها وربما اعتقه في نظير ذلك

وقال بعض المؤرخين ان حك الالماس واستعماله قديم
لكن كان على غير قانون من حيث الانتظام والشكل وقال
بعضهم لم يكن ذلك الا من سنة الف واربعمئة وستة وسبعين
من الميلاد فان المخترع له رجل من اهل نروج مع ان هذا
الحجر وجد في بركة الدوك دنجو سنة الف وثلثمائة وثمانية وستين
محكوكا فلذا حكم بقدم طرق حكه

وآلة حكة عبارة عن قرص من الفولاذ اذقني الوضع يتحرك
 بسرعة شديدة وفوق القرص تراب الماس الحاصل من حك
 حجرين منه طبيعيين غير قابلين للتصلب ولم في ذلك
 طرق والمعلوم الان ان الماس المستعمل بين الناس على
 هيئتين

الاول الشكل المعروف بالروزة ومعناها الوردة
 والثاني المعروف بالبرلاتا فاول وجهه الظاهر هرمي الشكل
 ذو اسطحة مثلثة والوجه الثاني مستو يخفي في مادة التركيب سواء
 كانت من الفضة او الذهب واما النوع الثاني وهو البرلاتا فكلما
 وجهه مسطح الوسط وفي دائر ذلك السطح اسطحة مثلثة او معينة
 والمجموع عبارة عن هرمين ناقصين والعادة ان يبقى مكشوفاً في
 تركيبه مع الفضة او الذهب ويرى من الاعلى كما يرى من الاسفل
 واخلاف قيمته باختلاف مائه وصفائه وكبره وشكله والحجارة
 التي لا تصلح للاستعمال يساوي قيراطها ثلاثين او ستة وثلاثين
 فرنكا وقدر القيراط مائتان وخمسة ونصف من الميليغرام وقيمة
 القيراط المستعمل في الحلى تساوي ثمانية وأربعين فرنكا اي ان
 قيمة الغرام منه تساوي مائتين وثلاثة وثلاثين فرنكا وذلك اذا
 كان وزن الحجر قيراطاً فان زاد وزنه عن ذلك فتقدر القيمة
 بضرب مربع الوزن في ثمانية وأربعين واما المصوغ فقيمته
 تابعة لهيأته وكبر حجمه كما ذكرنا واكبر حجر منه ما وجد بخزانة

ذخائر فرانساً وكانوا قد عثروا به على بعد خمسة وأربعين
فرسخاً من جنوبي جلوكند ووزنه غشياً قبل حكه كان أربعمائة قيراط
وعشرة قراريط وإقاموا في حكه سنتين وبعد الحك صار مائة
وسبعة وثلاثين قيراطاً وبلغت قيمة ذلك الحجر ثلاثمائة وأثنى
عشر ألفاً وخمسمائة فرنك وصرف عليه في الحك مائة وخمسة وعشرون
ألفاً فاشتره الدوك دورليان بثلاثة آلاف ألف وثلاثمائة وخمسة
وسبعين ألف فرنك وهو الآن يساوي ثمانية آلاف ألف
فرنك

ومن الحجارة المشهورة حجر يعرف بالنظام عند ملك جلوكند
غشيمه وزنه ثلاثمائة وأربعون قيراطاً وقدروا قيمته خمسة
ملايين فرنك وفي ذخائر الروسية حجر وزنه مائة وثلاثة وتسعون
قيراطاً وكان مجعولاً عيناً لصنم بمعبد براهمة فاخذه أحد عسكر
الفرانساوية وباعه بخمسين ألف فرنك ثم صار يتقل من يد إلى
أخرى حتى وقع في يد القراليجة كاترين فاخذته بألفي ألف ومائتين
وخمسين ألف فرنك.

وفي ذخائر النمسا حجر وزنه مائة وتسعة وثلاثون قيراطاً
ونصف قيراط ويقال أن عند ملك البرتغال حجراً قدر بيضة
الدجاجة وزنه ألف وستمائة وثمانون قيراطاً ولم يره أحد
من أخبر عنه

ثم دخل بهم عنبر الطير وأراهم ما فيه ومنه إلى عنبر الحشرات

والافاعي ثم الى عنبر الحيوانات الوحشية ثم محل المواد
الكماوية ومنها الى محل الالات وارايم بعض خواصها فكان كل
ما انتقل بهم من مكان الى مكان يرى على الشيخ عدم رغبته في
الانصراف من المكان الاول حتى يستوفي البيان عما فيه الا انه
لضرورة المرافقة كان مجبوراً على الموافقة وكان في جملة ما رآه
في عنبر الافاعي ثعابين (حيات) ممتدة في السقف ففزع منها فزعاً
شديداً ولكنه تجلد حين رآهم لم يكثر ثلوا بها وما رآه في عنبر
الحيوانات الوحشية انواع السباع والضباع والنمورة والظباو القردة
والفيلة والزرافة والأيل والحمر والبقر الوحشية وكذلك انواع
الطيرو والحيوانات البحرية كالدر فيل وفرس البحر والتاسيح فأولاً
حولها اطفالاً ترمي لها خبزاً فتجتمع عليه ورأوا حول بيوت القردة
خلقاً كثيرين يضحكون على العابها ثم طاف بهم في البستان واطلعهم
على خواص ما به من نبات وشجر واخبرهم باسم نبات كل بلد
ودرجة حرارتها وما يستخرج منها من الزيوت والادهان العطرية
وغيرها وارايم نباتاً مغطى بسقف من زجاج وبين لهم الطرق التي
تزيد في الحرارة وبالجملية فلم يدع شيئاً بالبستان الا اطلعهم عليه
وذكر لهم ما يعلمه من خواصه ثم رجع بهم الى مكانه وطلب لهم
قهوة فشربوا ثم قال المأمور اريد ان اتشرف بمحضرة الشيخ في يوم
غير هذا لاريه ما يجب ان يراه مما لم يره في هذا اليوم فقال
الشيخ لا بد من ذلك لاحظي برويتكم واستفيد من معلوماتكم

فقال المأمور للشيخ ألا أخبرك بأصل هذا المكان قبل أن
يعد لما رأيته به من أنواع النبات والحجوان قال نعم فقال أصله كان
فضاءً من فضات باريز فلما جاء لوزير الثالث عشر أصدر امره
بإنشاء جنينة في خطة من خطط باريز تكون ادارتها ونظارتها
بعده لمن يقوم مقامه من عقبه فأنشأ هذه الجنينة ثم ما زالت تتقدم
كل سنة عن السنة التي قبلها الى ان جاءت سنة الف وستمائة
واثنين وثمانين فجعلها بوفون مؤلف كتاب حياة الحيوان والتاريخ
الطبيعي في هيئة جديدة وقسم طرقها وأحدث فيها مدرسة لتدريس
العلم

ثم في سنة الف وسبعمائة واثنين وتسعين عمل لها مجلس الملة
لوائح وقوانين وأمر بنقل جميع الحيوانات التي كانت بويرساي اليها
فازداد بذلك رونقها ومن ذلك العهد لا يمر عليها عام الا ويجلب
اليها من المستغربات وأنواع الطير والحشرات ما لا يحصى

المسامرة (١١٧)

الهواء والماء

ثم استأذنوا في الانصراف وقاموا فودعهم الى الباب ووقف هناك الى ان ركبوا وكانت الشمس قد أذنت بالغروب والسماء مطبقة بالسحاب وبعد ان ساروا مسافة قليلة خرجت عليهم ريح باردة من جهة الشرق فقال الانكليزي هذه علامة المطر فالاولى ان ندخل قهوة نستكن بها حتى يسكن فما دخلوا القهوة الا والمطر قد نزل كافواه القرب

فقال الشيخ ان اهل مصر الان يشكون من الحر ونحن نشكو من البرد فقال الخواجا ذلك ناشئ من اختلاف الاوضاع الجغرافية للبلاد ارتفاعا وانخفاضا ففي بعض الجهات المنخفضة قد يشتد

البرد حتى تجمد منه الانهار وتكسى الارض بالثلج وتكثر الامطار وربما تستمر اشهرًا وفي تلك المدة يضطر اهل تلك الجهات الى الاستمرار على ابقاد النار فيكون في كل مكان منقادوا اكثر ويلبسون ثقل الثياب كانهوا والمضربات وكلما نزل الانسان الى الشمال ازداد عليه البرد والثلج وكلما صعد قل برده وادرك الحرارة

وشرح تلك المسئلة بخناج الى مقدمة اقصها عليك اذا اوينا الى مبيتنا فلما هدا المطر وركبوا الى محل اقامتهم قال الشيخ للخواجا انجز لي ما وعدتني فقال اعلم ان الهواء ولو كان في غاية من الصفا لا بد ان يحمل معه ابخرة مائية متصاعدة من الانهار والبحار والريج توزعها في الجهات فزركة الجو المتد في السماء الى ستين الف متر ناشئة من هذا البخار المتصاعد وذلك الجو محيط بجميع كرة الارض والخلق على اختلاف انواعهم تعيش فيه ومن فوائد البخار تلطيف حرارة الجو فيكون الهواء صالحا للاستنشاق وكل حين يتصاعد من البحار مقدار من البخار لاجل تلك الفوائد الجليلة ولولا ذلك لهلك ما على وجه الارض من حيوان ونبات وقد غلظا من جعل البخار والضباب والسحاب شيئا واحدا بل هما متغايران فان البخار عبارة عن غاز يرتفع من الانهار والبحار الى الجو بكمية ثقل وتكثر فعلى كل مستودع ماء من نهر او بركة وكذا على الثلج ونحوه يتكون البخار فاذا تشبع الجو منه تحول بواسطة الهواء الى رطوبة محسوسة ودرجة التشبع تختلف

قلة وكثرة باختلاف درجة الحرارة التي في الجو ففي درجة عشرين تحت الصفر لا يكون في المتر المكعب من الهواء زيادة عن غرام واحد اي ثلث درهم وفي درجة ذوبان الثلج يكون فيه خمسة غرامات ومن درجة عشرة الى ثلثين تكون غرامات البخار التي يتصها الهواء موافقة لارقام اقسام الترمومتر فان زادت درجة الحرارة عن ثلاثين زاد قبول الهواء للبخار فاذا بلغت مائة قبل من البخار بقدر حجمه وساوت حينئذ قوة الهواء قوة البخار وبعد ذلك تزيد قوة البخار على قوة ضغط الماء فيحصل الغليان في الماء ثم ان كمية البخار التي في الجو ولوانها قليلة وتابعة لدرجة الحرارة لكنها مع ذلك قد تكثر كمية البخار المتصاعد من احد مائعين متساويين في الحرارة عن تصاعدها من الاخر بسبب هبوب الريح على احدها دون الاخر او كثرته عليه اكثر من الاخر فكلما مر عليه ريح تشبع منه وترك مكانه الى غيره وهكذا بخلاف ما اذا كان واقفاً او قليلاً وحينئذ فتصاعد الابخرة وتوزيعها في الجهات تابع ايضاً لكثرة هبوب الرياح ثم ان الهواء يكون فوق سطح البحر متشبعاً من البخار او قريباً من التشبع وكلما صعد من جهة الاستواء الى جهة الاقطاب يأخذ في النقص وكذلك يكون تشبعه في السواحل اقل منه فوق البحر وفي داخل الولايات اقل منه في السواحل وذلك بحسب توزيع الانهر والمخجان والبرك والجبال والغابات واختلاف الرياح واتجاهاتها فمقدار البخار في جو كل بقعة يخالف مقداره

في الاخرى ففوق ارض بلاد الانكليز يكون الجو متشبعاً بالبخر او قريباً من ذلك وفوق صحاري آسيا يكون جافاً ليس له الا خمسة عشر جزءاً او عشرون جزءاً من مائة ما يمكن ان تشربه وعلى العموم فمقدار البخر في جو الارض القارة ثلاثة اخماس مقدار التشبع ومع كونه على هذه القلة فوجوده في الجو من اهم المهمات وبيان ذلك ان الارض تميل الى ضياع ما تشربه من الحرارة مدة النهار برده ثانياً الى الجو في الليل فاذا ردت التقطته الابخرة المائية فتزيد حرارة الجو ولاحاطته بكرة الارض احاطة الظرف بمظروفه كان لها كغطاء حافظ لها من البرد ولولا هذا البخر لهلك ما على وجه الارض كما مر وكلما جف الجو اشتدت حرارة الارض ففي النهار توتر اشعة الشمس في الارض فتلبسها حرارة وفي الليل ينبعث من الارض نحو الجو ما كمن فيها من تلك الحرارة فكلما اشتدت درجة الحرارة في النهار في بقعة كان ليها شديد البرد لان كمية البخار في تلك البقاع تكون قليلة جداً فلا تمنع الاشعة المتصاعدة من الارض من النفوذ فيها الى جهة السماء وما سبق يعلم ان البخار المائي ملطف لحرارة الاشعة الشمسية الساقطة على الارض ومانع لها عند انعكاسها من الارض الى الجو من ان تضعف في السماء ومن فوائد ذلك حفظ درجة الحرارة الكافية للحياة

فقال الشيخ لماذا لم يمنع البخار اشعة الشمس الساقطة الى

الأرض ويمنعها اذا كانت منعكسة منها فهلا منعها جميعا او لم يمنع واحداً منها

فقال الخواجا هذا لا يرد الا لو كانا على صفة واحدة اما اذا كانا على صفتين مختلفتين كما هنا فلا وذلك ان الاشعة المنبعثة من الشمس الى الأرض حارة مضيئة بخلاف المنعكسة من الأرض الى الجو فانها مظلمة خالية من الضوء فلذا كان تشرب البخار للاشعة المنعكسة اكثر من تشربه للاشعة المنبعثة الا ترى انا لو عرضنا لوحا من زجاج الى الشمس لنفذت اشعتها منه سريعا ولا يسخن الا بعد مدة وما ذاك الا لمنعه حرارتها دون ضوءها فكذلك بخار الماء في الجو فانه يمنع اشعة الشمس المنعكسة من الأرض لظلمتها ولا يمنع اشعتها المنبعثة منها لوجود الضوء فيها ومن الحكمة الالهية والالطاف الربانية وجود البخار في الجو لانه يجعل الدرجة المتوسطة للحرارة في كل بقعة اكثر من حرارة اشعة الشمس وحدها اي بدون بخار الجو لا صعوبة في تخليص الهواء من الابخرة المائية المتزجة به فان ذلك يحصل بتبريده كما لوأخذت قلة ماء مثلاً وجعلتها في مكان حار وتركها برهة من الزمن فانك ترى سطحها قد كسي بابخرة كالندى فكذلك يكون الجو اذا برد الهواء بعد غيبوبة الشمس فان الابخرة المائية تتجمع وتصبح ندى رقيقا ومن تأمل في الخارج من فمه من النفس في وقت البرد رأى بخاراً ظاهراً للعيان وكذا اذا نظر

الى الانجرة المتصاعدة من دسوت الآلات البخارية فانه يرى البخار يرتفع ثم ينزل على الارض في هيئة مطر خفيف هذا ما تيسر ايراده من الكلام على البخار

واما السحاب والضباب فكل منها عبارة عن تجمع كرات صغيرة حاصلة في الجو ولم تنفق اراء الحكماء من الطبيعيين في تلك الكرات على شيء فمنهم من يقول انها هوائية وفي جوفها ماء ومنهم من يقول انها نفسها ماء ثم ان بعض الناس يقول الضباب منافع للصحة ومؤذٍ للجسام وهذا حق لان الضباب علامة على كثرة الرطوبة في الجو وانها متكونة في هواء راكد قريب من سطح الارض تتجمع فيه الانجرة المتصاعدة من القرى والمدن والمستنقعات واكثر ما يكون الضباب في الليل بسبب برودة الجو وقد يكون فوق المراعي الواسعة بقرب غروب الشمس ومتى صادف تكوُّنه في الجو سقوط ريح باردة من الطبقات العليا من الجو حبسته اياماً واسابيع ومن وقف على مرتفع من الارض رأى الجبال بارزة نافذة من خلاله فيرى السماء صافية لخلو الجهة العليا منه

واما السحاب فهو ضباب كثير العلو فوق سطح الارض يتميز عن الضباب بارتفاعه عنه في الجو وكثيراً ما يتكون من انجرة ثلجية ولا حصر للصور والاشكال التي يكون عليها وتقطع السحابة الواحدة الى قطع عديدة تسير في جهات مختلفة وينضم لها غيرها

ثم تتهزق ثانياً وكثيراً ما يفصل السحاب ما ينزل على الأرض
مطراً قليلاً أو كثيراً فذلك الماء هو البخار الذي يحمله الجو
فقال الشيخ وما الذي يفصل ذلك البخار من السحاب حتى
يسقط على الأرض فقال له قد عرفنا ما سبق انه لا بد لفصل
الماء من الهواء من تبريد الهواء فالبرودة هي التي تفصله عنه والحرارة
تبقيه فيه وبانكماش الهواء وانضمام بعضه الى بعض تزداد حرارته
وبانبساطه وتمدده يبرد وقد جربوا ذلك بان وضعوا قطعة صوفان
في انبوبة مسدودة من احد طرفيها وادخل فيها من الطرف
الآخر مكبس فكلما زبد في كبسه انضم الهواء وتناقص وازدادت
حرارته فما انتهى الكبس الى الآخر الا وقد انتهت الحرارة فاحرقت
الصوفانة فدل ذلك على ما قلنا من ان انضمام الهواء وتقص حجمه
يزيد حرارته وبضدها تهيئ الاشياء في الطبقات العليا من الجو
تكون درجة الحرارة اقل منها في الطبقات القريبة من الأرض
لاتساع العليا وقلة البخار فيها فلا يكون بينهما توازن فترتفع
طبقات الهواء القريبة من الأرض الى الاعلى فيتبسط وتترك ما
فيها من الاجرة فتسقط ثلجاً او برداً او مطراً على حسب شدة
البرودة وضعفها فلو هبت ريح فصدتها جبل لم تقف عن سيرها
بل ترتفع في الجو وحينئذ يقل الضغط عليها وتبسط وتبرد
وتنفصل عن اجرتها فتصير الاجرة مطراً ونحوه ومن المشاهد انها
عند مصادمتها لنحو غابة يحصل سقوط المطر وعند مصادمتها

لجبل يسقط ثلج ونحوه بحسب زيادة الارتفاع وقتله وتصادم تيارات
الهوا بعضها ببعض فوق سطح البحر المالح يحصل منه مثل ما يحصل
بمصادمة الاهوية للموانع المارة فسقوط المطر حينئذ تابع لحركة
الهواء وكل سحابة شاهدناها انما هي تاج لعمود من الابخرة صاعد
من الارض الى السماء ثم ان المطر يكون اول نزوله تقطاً صغيرة
بحيث لو اجتمع منه ثلاثون نقطة لا تزيد عن مليونر وبسبب
تحرك الهوا تتلاطم تلك النقط فيلتحم كل جملة منها وتصبح نقطة
كبيرة وكلما قربت من الارض كبرت حتى تكون النقطة الواحدة
قدر ساتيمتر فاكثر لان النقطة كلما كانت صغيرة لعب بها الريح
شالاً ويمينا فاذا نزلت انضمت الى غيرها وكبرت وزادت ثقلاً
بحسب قوة الهوا ولا تنزل في خط رأسي بل تكون في نزولها
مائلة قليلاً او كثيراً وقد يشاهد عند سكون الريح سحب مرتفع
ارتفاعاً عظيماً وذلك ناشئ عن تبادل حاصل بين السحابة وما
تحتها من الابخرة فيقع من الطبقات العليا نقط ما الى اسفل منها
فاذا وصلت الى طبقة حارة تبخرت وارتفعت ثانياً وهكذا فيكون
بين السحاب والابخرة ذهاب واياب فاذا تغيرت درجة الحرارة في
جو السحابة يأخذ شكلها في التغير ومن يتأمل في السما بعد الظهر
يرى السحاب يتجمع ويتفرق او يأخذ في الزوال ويتكون عن
ذلك صورة بهجة حسنة وارتفاع السحاب وانخفاضه يخلف باختلاف
البلاد تبعاً لطقس الجو واتجاه الرياح في جميع فصول السنة

فتارة تكون الرياح قريبة من المساكن وتارة تعلو رؤوس الجبال وتارة ترتفع في الجو وأكثر ما يبلغ ارتفاعها احد عشر الف متر وخمسمائة واربعين متراً كما اعبر بالوسائط الفلكية وذلك يفوق على ارتفاع اعلى جبل في الارض بثلاثة الاف متر وبعض السحاب يرتفع في الجو أكثر من ذلك بكثير وارتفاع السحاب في اوروبا يختلف بين ألفي متر وثلاثة الاف فلا يقطع من جبالها الا جبال البيرني وجبال الالب وهذا الارتفاع يكون كثيراً في فصل الصيف قليلاً في فصل الشتاء ويختلف ايضاً سمك طبقات السحاب فتارة يعظم عظامها تارة يقل عمقه وعلى العموم فتختلف حالته الوسطى في جهات البيرني من ثلثائة متر الى خمسمائة بحسب البقاع وكثيراً ما تكون طبقات السحاب متراكمة بعضها فوق بعض بابعاد ثقل وتكثر على حسب الاحوال وكمية الامطار الساقطة سنوياً على الارض تختلف قلة وكثرة بحسب الممالك او جهات المملكة الواحدة وبالتجربة قد وجدت مناسبة لدرجة عرض الجهة وارتفاعها عن سطح البحر المالح وانها كثيرة في جهة القطبين قليلة عند دائرة الاستواء وسبب ذلك اختلاف درجة الحرارة وظهر من التجارب العديدة ان كمية المطر بمجائر الانتي تبلغ مائتين واربعة وستين متراً مكعباً وبجهة بونباي تبلغ مائتين وثمانية وفي كلكتا تبلغ مائتين وخمسة وفي كندا من بلاد الانكليز تبلغ مائة وستة وخمسين وفي نابولي من ايطاليا تبلغ خمسة

وتسعين وفي ونديك واحدا وثمانين وفي لوندرة ثلاثة وخمسين وفي باريز مثلها وفي مرسيليا سبعة واربعين وان ما ينزل بالجبال اكثر مما ينزل بغيرها بسبب ان الجبال لارتفاعها وشدة بردها تجذب السحاب اليها فيساعد البرد تكوين الامطار والناس في البلاد الجبلية يهتدون في معرفة احوال الوقت بالنظر الى شواشي الجبال الشاخنة لانها قبيل تغيير الوقت تحيط بها دخنة عظيمة رطبة حاصلة من تراكم السحاب حولها فيعلمون بذلك حالة الجو وكمية المطر في البقعة الواحدة تابعة للارتفاع فقد قدرا هل رصدخانه باريز ما نزل على سطوح الدور وما نزل بساحتها فوجدوا ما نزل بالساحة اكثر مما نزل بالسطح وذلك ان حبات المطر كلما طالت مسافة نزولها انضم بعضها الى بعض فيكبر حجمها كلما قربت من الارض وقد تحدث دوامات هوائية تجمع حب المطر بعضه الى بعض وكذا في مدينة باريز وجد ارتفاع ماء المطر فوق السطوح خمسمائة مليمتر وعلى سطح الارض خمسمائة وستين وفي برلين يزيد النازل في الساحات عن النازل على الاسطحة بنحو التسع وكلما ارتفعت ارض الولاية عن سطح البحر الملح كانت بعيدة عن الانجرة البحرية ولهذا كان ما ارتفع من الجبال في غاية الجفاف ولا يحصل من السحاب الملائم لسفحها والانجرة الفاعلة في طبقاتها السفلى فعل على الثلج الدائم المتكون بها وقد اخبروا مقدار المطر النازل بالولايات المستوية الارضية باوروبا

والولايات التي بها جبال فوجدوا النازل بالولاية المستوية باعتبار سنة واحدة خمسمائة وخمسة وسبعين مليمتر والنازل بغيرها ألفاً وثلاثمائة مليمتر واختبروا ما نزل في وادي نهر الران فوجدوه من خمسمائة وستين الى خمسمائة وثمانين متراً مع ان ما ينزل في جبال الغوج يختلف من ألف مليمتر ومائة جزء الى ألف مليمتر ومائتين وما يفعل في درجة الرطوبة بالقلّة والكثرة القرب او البعد من الغابات الكبيرة والمياه العظيمة ومهاب الرياح وجنس الارض التي تمر عليها ولذلك كان ما يقع من الامطار على سواحل البحار أكثر مما يقع في داخل الارض وبالتجربة وجد ان ما يقع في المديرية الواقعة بين نهر الرين ونهر الساوون في السنة الواحدة خمسة واربعون اصبعاً مع ان ما ينزل بباريز لا يزيد عن اثنين وعشرين والرياح الجنوبية والغربية تأتي بالبحر الى المتوسط الى اوروبا وكثرة الغابات واتساعها وعلو الجبال الشاخنة يشاهد بجهات نورويج وسواحل افريقيا الغربية ضباب مستمر وامطار كثيرة ولعلو جهة مدينة مدريد بالاندلس على سطح البحر الملح كانت في جفاف تام ثم ان الامطار تنقسم الى منتظمة وغير منتظمة تبعاً لكيفية سقوطها في الولايات المختلفة فغير المنتظمة تكون غالباً في الاقاليم المعتدلة الحرارة بسبب تقلبات الفصول فيها مع مناسبة هيئة الارض فيقع منها في الاوقات الحارة أكثر مما يقع في الاوقات الباردة واما المنتظمة

فيبتدئ سقوطها في المنطقة الحارة متى سامت الشمس الرأس
 بتقدمها الى المتقلب الصيفي وتنتهي الامطار متى رجعت الشمس الى
 المسامنة الاولى وتكون متوسطة في شهر يوليو الا فرنجي وتقوى في
 شهري اغسطس وسنبر وتقل في شهر اكتوبر وعلى العموم تظهر
 الامطار وتقوى في فصل الخريف ففي مصر تبتدئ من شهر اكتوبر
 وتستمر الى شهر دسبر وفي الاقطار التي في عرض ثلاثين درجة
 الى عرض خمس واربعين كبلاد اليونان والاندلس والبروانس
 من فرانسا يكون اكثر نزولها في فصل الخريف واما في فصلي
 الربيع والصيف فتضعف حرارة تلك الجهات بسقوط الندى
 الغزير ويقل مطرها وفي الجهات التي من عرض خمس واربعين
 الى خمسين كبلاد فرانسا والمجر تنزل الامطار الغزيرة في فصل
 الربيع وتكون مدتها قليلة وفي البلاد التي من عرض خمسين الى
 خمس وخمسين كبلاد الفلمك ومانيا ينزل المطر ويكثر الضباب
 في فصل الخريف والتي من عرض خمس وخمسين الى ثمان
 وستين كبلاد الدانمرك وسويد ونرويج اكثر مطرها في فصل الربيع
 مدة قليلة ايضاً والتي من عرض ثمان وستين الى عرض سبعين
 كبلاد لابوني وسبسيور وكشكا اكثر نزول مطرها في فصل
 الصيف وما ينزل باوروبا ليلاً اكثر مما ينزل بها نهاراً والاقاليم
 الموارية على العكس من ذلك وغير المنظمة تقع في غير فصل
 الشتا وهي قليلة عند دائرة الاستواء كثيرة في الاقاليم المعتدلة

وتكون مدة المطر في هذه الجهات أكثر من غيرها وتكثر الرطوبة في الجو وتكون ملطفة لحرارته بخلاف الاقطار التي يكون زمن نزوله بها قليلاً ودفعة واحدة كالبلاد الحارة وقد استدلو على ان للبقعة تأثيراً في قلة المطر وكثرته بما شاهدوه في جهة السنجبال حين وجدوا كمية المطر النازل بها في كل السنة اقل مما ينزل بغيرها من البلاد البعيدة عن الاستواء ففي جزيرة كيّـن تكون مدة المطر ثمانية اشهر او تسعة وارتفاع ما يسقط منه في السنة مائة وثمانية اصابع مع ان ارتفاع الساقط في جزيرة بوربون تسعة وثلاثون اصبعاً وفي جزائر اللانتي ثمانية وسبعون ويقع اكثره في الزمن القليل ولبس في الجهات اكثر مطراً من سواحل مالابار واركان وجبال حملايا لان اكثر اسبابه موجودة بها لشدة الحرارة وارتفاع الجبال فيصعد من بحر الهند وحده من الانجرة اكثر مما يصعد من جميع الابحر وتسير به الرياح الى سواحل افريقية وسواحل اسيا فاذا مرت بجبل ارتفعت به حتى تصل الى الطبقة الباردة وعند ذلك يتخلل وينزل حتى يبلأ الابدية وتفيض منه الانهار وقد قدروا ما نزل بجهة هناك مرتفعة عن المالح بقدر الف وثلثائة وستين متراً فوجد بعد عدة تجارب علمت في اربع عشرة سنة ان متوسط ارتفاع المطر سبعة امتار وثلثان في السنة الواحدة وفي بلد اخر من هذه الجهة كان متوسطه في السنة الواحدة خمسة عشر متراً الا خمس متر وذلك مقدار ما ينزل بالاسكندرية في

مدة مائة سنة وفي تلك البلاد ما يلي حملايا كان ارتفاع ما سقط في شهر يوليو سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين ثلاثة امتار وثلاثة ارباع المتر وفي بعض تلك الجهات لا ينقص متوسطه في سبعة اشهر من السنة عن اثني عشر متراً ونصف متر وقد شوهد في هذه النواحي سيل عظيم استمر اربع ساعات فقط فغطى الارض بطبقة من الماء قدرها ثلاثة ارباع المتر واذا نسبت ذلك الى ما يقع على ارض فرانسا وجدته مقدار ما يقع فيها في سنة كاملة وارتفاع ما يقع في سواحل الهند متر واربعة اخماس المتر وما يقع على الجبال الداخلة فيها يكون قدره ثماني مرات ثم انهم بالتجربة وجدوا اللتر الواحد من ماء المطر يشتمل على ثلاثة وعشرين ساني متر مكعبة من الغاز الذي في كل مائة حجم منه اثنان وثلاثون من الاكسوجين وثمانية وستون من الازوت بعد تنزيل اثنين واربعة اعشار من غاز حمض الكربون

وهذه المقادير تختلف باختلاف الارتفاع ففي الارض المساوية لسطح البحر يكون قدر الازوت والاكسوجين خمسة وثلاثين وفي الارض المرتفعة عنه بنحو الفين وستمائة واربعين متراً يكون قدر هذين الغازين اربعة عشر فقط وفي الارض المرتفعة عنه بنحو ثلاثة الاف متر يكون قدرها احد عشر فقط وكذا حمض الكربون يختلف قدره في ماء المطر بحسب الارتفاع ايضاً وقد يكون في المطر ايضاً ملح الطعام وذلك فيما يقرب من البرك وسواحل البحر

المالح ومتى سقطت مياه المطر على ارض اثرت فيها الحرارة وتسحب معها في سيرها بواقي حيوانات وحشرات وحشائش فتكون غير صالحة لمخزن بخلاف المطر المأخوذ من فوق سطح المالح فانه يصلح للخرن لخلوه من ذلك ولذلك لما حلل بعض الكيماويين ماء المطر في جهات مختلفة وجد فيه مقادير مختلفة من الاتربة ففي بلاد الانكليز وجد فيه من تراب الفحم وقد يوجد فيه مركبات نشاديرية كالكربونات والنترات، وذلك أكثر مما يكون منها في ماء الانهار وهذه المواد وان كانت سريعة التطاير والصعود الا انها تنزل ثانيا مع ماء المطر

فقال الشيخ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا فان هذا من الحكم الربانية والاسرار الالهية التي لا يقف على حقيقتها عقل ولا يحيط بكنهها نقل فالانسان وان بحث ودقق واستكشف وحقق فمثله كمثل طائر تقرر في البحر نقرة فهو وان روي بها ما اخذ منه مثقال ذرة ويكفي في ذلك دليلاً قول الله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ومن استنارت بصيرته وخلصت سريره يرى جميع ذلك ما اندرج تحت مفهوم قوله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون

فقال الخواجا وازيدك انك اذا تأملت في المطر حال نزوله
وجريانه في مجاريه وجدت ذلك شبيهاً بتقطير الماء في
الانبيق فان اشعة الشمس تكون كأنها الفرن له والبحر الملح كأنه
الانبيق والجو المرتفع كأنه تاجه والجهات الباردة من الجو وشواشي
الجبال الشمالية المغطاة بالثلوج والبحور المنجمدة هي المبرد له والانهر
والتخجان والبرك ونحوها هي الاوعية التي ترد الى المالح جميع ما
اخذته منه وهذا مستمر الى ما شاء الله فكما اندفقت مياه الاوعية
في الانبيق تصاعدت ثانياً ورجعت الى الاوعية ثم منها الى الانبيق
وهكذا فالماء المحلو الزلال الذي يشربه المصريون من نيلهم
والباريزيون من نهرهم بل وسائر انهار العالم اصله من البحر الملح
وانما حلا بتكرير الصعود والهبوط كما ذكرنا لانه يصعد اولاً بخاراً
ثم ينعقد سحاباً ثم يتقلب بخاراً ثم ماءً ثم ينزل ويجري في مجاريه
ثم يعود الى البحر كما كان وهكذا ولذلك شبه بعضهم البحر برجل
يخيل لان جميع ما يخرج منه لا بد ان يعود اليه حتى البخار الذي
يخرج من الفم فانه يرجع اليه في صورة قطرة ماء

ومن عجيب لطف الله ان البحر الاستوائية بفعل حرارة
الشمس الشديدة على مياهها تسخن وتكون لها من ذلك درجة كافية
تحفظها حتى تصل معها الى البلاد الباردة لتلطيف شدة بردها
وقبل ان تكون مياه الامطار في الانهر والتخجان تقع على سطح
الارض فتكون في المجاري الصغيرة التي في خلالها وتدخل في

الارض الهشة وبين الاحجار وفي جذور النبات وسيقانه وفي هذه
السياحة تذيب ما فيها من المواد المعدنية الخفيفة في جوف الارض
ثم تاخذها معها وتوزعها الى انواع الحيوان والنبات وقد تتحد بغيرها
فتكون مواد يسميها الكماويون الادرات وانها تكون في المنافع
فتحلل البواقي النامية او تساعد في تعفين المواد النباتية وتخديرها
ويتحصل عنها مواد فحمية وليس من دابها الدوام على حالة من
الحالات وبعد ما تكون في جسم الحيوان والنبات بالصورة السائلة
تخرج منه في صورة بخار وترجع الى الجو ومنه ترجع الى سائل
او ثلج او برد او جليد ثم تنقل عن ذلك وتكون بخارا ثم تنقل
الى ان تكون سائلا وهكذا فهي السائل الذي يجري في جذور
النبات وعروقه والندى الذي يرى على ورق الشجر والدم الذي
يجري في جسد الحيوان والرطوبة التي نحس بها والبخار المحرك
للواپورات والضباب المرتفع من اراضي المراعي وغيرها فهي المنبع
الذي ياخذ منه كل حي قوامه فتكون جامدة وسائلة وبخاراً فلا
تتغير من صورة من هذه الصور الا لتاخذ ما بعدها فاذا تركت
البحر كانت على الارض لنفع الخلق وان تركت الارض ترجع الى
البحر فتعلو الى الطبقات العليا من الجو وتنزل الى الطبقات
السفلى من الارض وتصابح الريح وتنبع ميل الارض وتكون
في جوفها فتكتسب حرارتها وتخرج منها حامية حاملة من ذخائرها
فلا يعوقها الصخر حتى تصقله وفي سيرها تنقل نقاوي النباتات

وبيض المحشرات من ارض الى ارض وتقلب الرمل والتراب
والزلط وتقلع الحجر والشجر وتحرق الارض وتهدم الجبل وجميع
هذه الاعمال لاسباب دبرتها الارادة والقدرة لبقاء نظام هذا الكون
والكلام في شرح ما وصل اليه علم الانسان من ذلك طويل وان
شاء الله نجعل بقية الكلام في ذلك بكرة فوق نهر السين ثم اوى
كل الى فراشه وكانت ليلة ماطرة فناموا الى الصباح فاخذوا
ملابسهم واشياءهم وتوجهوا الى النهر فركبوا السفينة وكان يعقوب
قد اتخذ لهم في مقدمها خزانة فسيحة بامر الخواجا له فدخلوها وبعد
برهة اخذت اطراف السفينة وشرعت تسبح فوق الماء واخذت
كفات الطارة تضرب في الماء فيحدث فيه رغبة ويزبد والسفينة
تسرع في سيرها فصار الشيخ وولده ينظران الى البر وإلى الجبال والاشجار
التي على طرفي النهر ويسرحان الطرف في النهر وما حواليه
وخرير الماء يسمع بين المحشائش واحجار البر وتذكر الشيخ ما
ذكره الخواجا بالامس وما ابداه من الاسرار والحكم واللطائف
التي ترتاح لها النفوس وتطمئن لها القلوب فالتفت لابنه وقال
له يا بني العلم رأس مال الانسان وتجارة لا يعتريها كساد ولا
خسران وبه حياة النفوس وهو اجل ما تحلت به الطروس وبه
استنارت البصائر وهو الذي تنافست فيه الاولئ والاواخر ولقد
احسن من قال

العلم يغرس كل فضل فاجتهد

ان لا يفوتك فضل ذاك المغربـ

واعلم بان العلم ليس يناله

من هم في مطعم او ملبسـ

واحرص لتبلغ فيه حظاً وافراً

واهجر له طيب المنام وغلسـ

لنعز حتى لو حضرت مجلس

اكرمت فيه وصرت صدر المجلسـ

ان الخلي من العلوم مقامه

عند النعال له صموت الاخرس

فالعلماء مصابيح الازمنة كل عالم مصباح زمانه وذلك انه

لا يرى شيئاً الا بحث عن اصله وسببه وما يؤول اليه امره وما

يترتب عليه من خير وشر ونفع وضر هكذا دابه وديدنه ما دام

حيّاً فان مات بقي ذكره واما الجاهل فتراه لا يلتفت الى شيء الا

عند احتياجه اليه فيشرب الماء ولا يعلم من امره الا عذوبته او

ملوحته ويسقي به الزرع ولا يعلم سبب نموه منه وياكل كل الثمر

ولا يدري من اين اتته الحلاوة واذا مر بنهر عجب من اتساعه

وتلاطم امواجه وتغير لونه وفيضانه ولا يبحث عن سبب ذلك

فكم من خلق تولد وتلد وثموت على شاطئه وهم على فطرتهم الاضلية

من الجهل بخلاف اهل العلم فان احدهم متى وقع بصره على شيء

لا يهدأ له سر الا ان وقف على سره وكشف حقيقة امره فمن

ذلك النهر الذي نحن فيه فان اصله كما قال حضرة الخواجا قطرات تصاعدت الى السماء ثم نزلت متفرقة فاجتمعت حتى صارت نهراً يجري على وجه الارض يقتلع ما قابله من نبات وشجر واذا مرّ بارض تلون بلمونها فتارة يكون اصفر او الى الصفرة اقرب وتارة يكون اخضر او الى الخضرة اقرب وكلما قرب من مصبه وهو البحر الملح تشعبت مجاريه وربما رجعت الى خلف ثم استقامت وكما تختلف الوانه بحسب الارض التي يمر بها كذلك تختلف اسماءه على حسب ما على شواطئه من الجزائر والعمران واذا جرى رويت منه الاشجار وشربت منه الزروع فضلاً عن الاستعانة به في الاسفار وتقريره ما بعد من الاقطار فسبحان من دبر الكون بحكمته وسخر ما شاء كما شاء بقدرته لا اله الا هو الفرد الصمد المنزه عن الشريك والمعين والولد

ثم التفت وقال للخواجا ارجو من جنابكم الاطنباب في هذا الباب

فقال ان ثلاثة ارباع الدنيا مغمورة بالماء ولكن منه المغذي يرتوى به ومنه غير المغذي فالاول لا رائحة له وانما فيه جزء من الهواء ذائب فيه وان طبخ به الخضراوات نضجت وصلحت وان حلل به الصابون تحلل سريعاً وان غلي لا يتكدر وان قطر لا يرسب في اسفل انائه الا شيء قليل من مواد جيرية تلزم لتكوين الحيوان ونموه فان كان فيه جبس فلا تطبخ به الخضراوات لان

الحبس حيثئذ يلف عليها كالغلاف بعد تصاعد الماء فيمنع نضجها
ويمنع أيضا ترغية الصابون وأما الماء الذي لا يروي فليس فيه
من الهواء الا شي يسير وبه مواد نامية متخللة فيه وذلك كما البحر
المالح وما غالب الابار وما البرك الراكدة واصفى المياه واتقاه ماء
المطر الا انه لا يصلح للغذاء لخلوه عن القدر الكافي من الاملاح
والهواء الذي يجعله سهل الهضم فبناءً على ذلك تقدر ان نحكم بان
جميع المياه الموجودة غير نقية فاذا كان الماء متكدراً بالطبي والاتربة
ونحوها ترك مدة حتى يروق بنفسه او بشيء يضاف عليه فان ظهر
له رائحة كريهة حاصلة عن تحليل بعض المواد النامية وضع فيه
قليل من فحم العظام المكسدة في افران مخصوصة داخل اوانٍ مقفولة
فتشرب تلك الروائح وتلتقط ما فيه من المواد التي ينشأ عنها
ذلك وتخلص الماء وتجعله نافعا للاستعمال ويلزم تغيير الفحم متى
ضاعت خاصته ومن المياه ما يشتمل على معادن متنوعة وغالباً
لا يشتمل الماء الواحد على اكثر من ثمانية او سبعة منها ولكن
الحكم لاكثرها فيه ظهوراً فيسمى الماء باسمه كالمياه الكبريتية
تعرف لكثرة الكبريت فيها برائحة تشبه رائحة البيض المذر
واذا غمس فيه شيء من الفضة اسود والمياه الحديدية طعمها كطعم المداد
ومنها ما يكون حاراً ومنها ما يكون بارداً وتختلف حرارة الحار
منها بسبب بعد الطبقة الارضية التابع منها عن سطح الارض
وعدم بعدها

فقال ابن الشيخ فالماء الذي تستعمله الاطباء اي نوع هو
فقال الخواجا ذلك ليس منها وان كان لا يخرج عنها لان لم فيه
قبل استعماله ائمالا وذلك بان يضعوه في معوج من زجاج ثم
يوقدوا عليه نارا فيصعد منه بخار فيجمعونه في زجاجة موضوعة
في اناء فيه ماء بارد فمن ترك بعضه على بعض وفعل البرودة
عليه ينخل الى الماء المطلوب ويسى بالماء المقطر وهذا اذا كان
اللازم منه قليلاً فان كان كثيراً قطروه بالانبيق وهو عبارة عن
اناء من نحاس له غطاء مثقوب ركب على ثقبه ماسورة قد سلطت
على كرة من زجاج موضوعة في ماء بارد وفي تلك الكرة ماسورة
حلزونية تدور على نفسها داخل ذلك الماء البارد فحين يصل اليها
البخار ينقلب ماء فيصب في اناء آخر ويقرب الالة ماسورة اخرى
لتغيير الماء اذا ضعفت برودته فالماء المقطر خالٍ عن الرائحة
والاملاح والهواء ولذلك يكون ثقيلاً على المعدة ولو انقي فيه سمك
لمات وبالجمل فلا حصر لما اودع في هذا الجوهر اللطيف من
الاسرار

فقال الشيخ وحسبنا في ذلك قول الله تعالى وجعلنا من
الماء كل شيء حي حيث لم يقيد الماء بعذب ولا غيره ولا الشيء
بانسان ولا غيره

فقال الخواجا ومن وصل الى شواشي الحبال الشائخة الموزعة
فوق كرة الارض يطلع على الحكم العظيمة التي اودعها الباري

سبحانه في هذا الجودر العظيم ففي سواشي تلك الجبال تكون
 منابع الانهر والخلجان الحبارية في جميع الارض وهي عبارة عن
 بحائر صغيرة بين جبال فيجتمع في تلك انجائر ما ينزل من السماء
 وما يذوب من الثلج الدائم المكسوة به روءس الجبال الشاخنة
 فتري للحيال حكمة تجمع المياه التي استعارنها السماء من البحر بواسطة
 الشمس وحكمة ردها الى البحر ثانياً بواسطة الانهر والخلجان
 ونحوها فوضع الحيال على الارض تابع لقاعدة نابتة وقانون لا
 يخذل به نظام العالم فتري سير الانهر دائماً تابعاً لسير الحيال
 فسلسل الجبال الاصلية من الدنيا القديمة خدلاً سيرها من الغرب
 الى الشرق وفروع الحيال الخارجة عنها من الشمال الى الجنوب
 فنهر الفرات وخليج لعجم والنهر الاصفر والنهر الازرق وسائر انهار
 الصين اتجه سيرها من الشرق الى الغرب وانهر اوروبا وافريقيا
 واسيا والبرك والابحر المتوسطة كبحر الروم والبحر الاحمر تسير من
 المشرق الى المغرب او من المغرب الى المشرق ولم يخرج عن ذلك
 الا نيل مصر وبعض خلجان ببلاد المغاربة وماء المطر الذي
 ينزل على سطح الارض منه ما تشربه الارض ومنه ما تتبلمعه فيجري
 في جوفها الى ان يصادف طبقة لا يقدر على النفاذ منها فيتبع سطحها
 ويتجمع ويتكوّن منه ما متسع فاما ان ينصرف الى البحر او الى
 الانهر او يبقى في هيئة برك نفعل عليها احوال موضعية تردها الى
 سطح الارض وهناك انهار وخلجان تكون اولا على سطح الارض

ثم تغوص في باطنها بعد مسافة عظيمة من سيرها ومنها ما يخفي ولا يعلم امره ومنها ما يخفي مسافة ثم يظهر كنهر جوديانا ببلاد الاندلس يخفي في ارض مستوية مكسوة بالعشب والمرعى ثم يظهر ثانياً بعيداً عنها ونهر الموز في فرنسا يخفي بالقرب من بلدة باروى ونهر الدروم منها ايضاً في ولاية النورماندي يخفي في وسط ارض مستوية وينصرف في جوف الارض في فتحة قدرها عشرة امتار وامثال ذلك كثيرة ومن الجائر ما يجف في بعض الازمنة ويغور ماؤه في جوف الارض ويزرع موضعه ثم في الوقت المعين ينبع الماء فيملأها ثانياً كما كان كبحيرة كيركينثز من ارض الكارينول وقدرها فرسخ عرنا وفرسخان طويلاً فتكون في فصل الشتاء غامرة بالماء وفيها من السمك والسفن ما لا يحصى فاذا جاء الصيف تفتحت لها عيون من اسفل الجبال المحيط بها فتبتلعها بعد اربعة اسابيع وتزرع ارضها فاذا تم الحصاد تفتحت تلك العيون بعينها وجرى الماء حتى تمتلئ وتعود كما كانت وكان بالثرب من قرية سبلية في ولاية الانجو عين ماء قطرها من خمسة امتار الى ثمانية كانت تغور تارة فتظهر معها انواع شتى من السمك وسطح الارض مركب بطبقات بعضها فوق بعض فيها حجار للماء متنوعة على ابعاد مختلفة وقد قابل المحس بقرب ناحية ديب في قرية سنّة ولا محاري مياه تقرب من ماء يجري مفصلاً بعضها عن بعض بطبقات الارض ووجدوا بها اشصانا عليها ورقها وهذا

دليل على انها لم تثبت زمنا في باطن الارض وان الماء الذي على وجه الارض اتصالاً بما في باطنها وقد يحصل في بعض العيون زيادة ونقص ولكن لا تظهر الزيادة الا بعد نزول سيل في جهات بعيدة فيعلم ان تلك الزيادة من ذلك السيل ويختلف سير الماء في جوف الارض سرعة وبطئاً وكلما بعد عن سطح الارض اشتدت حرارته فلذا تجد ماء العيون يتفاوت في الحرارة ويختلف ايضا في كثرة المواد الذائبة فيه وقلتها والان قد استعمل اطباء كثيرا منه في معالجة علل مختلفة

وقد بلغني عن بعض السياحين انه رأى عيوناً في اسلنده تنفجر من باطن الارض فتندفق دفقات بين الدفقة والاخرى نحو نصف ساعة وكل دفقة عمود من الماء غلظه نحو ثمانية عشر قدماً فيرتفع في الجو نحو مائة وخمسين قدماً ثم ينحني وينزل على الارض فيخفي في جوفها فتنتفخ لها عيون فتبتلعها وقبل تدفقها يسمع لها دوي وقرقرة وقد ينتشر فوق تلك العيون من الانجرة سخابة حاصلة من نبحر الماء وفي زيلنده الجديدة لا حصر للعيون التي تدفق الماء والنجار وبعضها عظيم جداً تملأ الدفقة منه حوضاً محيطه نحو ثمانين متراً فمن كل ذلك يعلم ان الماء كما يجري على وجه الارض يجري في باطنها وان له اعمالاً في باطنها كما له في ظاهرها فاذا كان على وجه الارض دخل في اخليتها ومسامها فان تسلطت عليه البرودة جمد واثر في الصخور فيفصلها عن الجبال

ويلقيها في الوديان وفي الارض اللينة يذيب المواد القابلة للذوبان
ويأخذها معه في سيره وبلامسته للصخور الهشة والاحجار اللينة
يدخل بين جواهرها فيحلها ويزيل تماسكها فتفتت وتعدم وتنتقل
اجزأؤها الى غير مواضعها والمحصى والاحجار المسحوبة مع الماء تنبري
بلامستها لقاع مجرى الماء واحتكاكها مع ما يوجد به من الحجارة
وغيرها ودائماً تأخذ في صغر الحجم وقلة الوزن حتى تدق وتعلق
بالماء فالصوان وجميع انواع الاحجار مهما كان تماسكها وشدة صلابتها
لا تقاوم قوة الماء ويقلب الماء في سيره المستقيم المواد العائمة فيه
وبلامسته للبرور يسويها وينظمها ويدخله في اخلية الاجسام
ومسامها يفتتها وكذلك اذا انتقل الماء من السيولة الى الجمودة
ومن كل هذه الامور تتغير صورة الارض ولا ريب في ان الماء
يأخذ معه كل ما اذابه من الاحجار لما هو مقرر من ان زنة الشيء
في الماء اخف من زنته في الهواء وقد اثبت ارشيد الحكيم ان الجسم
اذا وضع في الماء خف بقدر زنة الماء الذي حل الجسم محله
وحيث كان الثقل النوعي لكثير من الاحجار لا يزيد عن
ضعف الثقل النوعي للماء علمنا ان كل ما يأخذه الماء معه
ينقص من ثقله قدر نصفه

وقد اختبروا الانهار بالنسبة لما فيها من المواد الطينية
فوجدوا في كل مائة وستين جزءاً من وزن ماء نهر (البو) جزءاً
من الطين وفي كل مائة جزء من ماء النهر الاصفر جزءاً من

الطين واما نهر الكنج الذي يصب في الملح وقت فيضانه ففي كل ثانية من الماء اذان وثمانمائة وخمسون طولوناته فيصب من الطين في كل عشرة ايام ما قدر ضلعه الف متر واما في غير وقت فيضانه فيقذف هذا القدر في ثلاثة اسابيع وقد قدروا حجم ووزن ما يليه هـ. ذا النهر في كل سنة فوجدوه قدر المرم المصري الكبير باثنتين واربعين مرة وما يليه في اربعة اشهر فيضانه قدر اربعين هرماً وهذه المقادير التي يليها هذا النهر في المتر ولا يشاهدها الانسان تحتاج في نقلها الى مائة سفينة كل سفينة تحمل مليوناً واربعمائة الف طولوناته وذلك بالنسبة لما يقذف به هذا النهر في وقت الفيضان فما بالك لو اضيف الى ذلك ما يقذفه في السنة وكذا ما يقذفه كل نهر وخليج من الانهر والمخيلان الموزعة على سطح الارض فان ذلك يوقع الفكر في الحيرة ويحتج ان الماء من آيات الله القوية الموكولة اليها تغيير احوال الارض واوضاع الخلق

وحيث كانت مياه جميع الانهار مجبوعة من جهات مختلفة بعضها على سطح الارض وبعضها خفي يجري تحت الارض فيلزم ان تشمل المياه على مواد كذلك ذائبة فيها كالجبس والجبس وانواع الاملاح كالمنيزيا والسليم وتراكيب حديدية وغيرها وبانصباب تلك المياه في البحر تتغير ملوحته وتضر بحياة ما فيه من الحيوانات ان لم يكن هناك من حكم الله تعالى ما يمنع ذلك ويبقي له حالته

الطبيعية وتلك الحكم اودت فيما ينبت في قاعه وشواطئه من النباتات فانها تاخذ الاملاح المعدنية وتقصرها على نفسها فيتخلص منها الماء ويكون على حالته الاولى موافقاً لطبيعة ما فيه من الحيوانات وحيوانات المحار والشعوب لا تتغذى الا من المواد الجيرية فبعد ان تاخذها في جوفها وتسديها جرعتهما تذفها في البحر محاراً وشعوباً فانظر الى تسط المطر الصغيرة الواقعة فوق قم الجبال في سيرها كيف تتحمل المواد الجيرية وشيرها لتكون طعمة للحيوانات الاخطبوطية الصغيرة ثم تذفها تلك الحيوانات من اجوافها فتجعلها مسكناً لها ثم تتراكم شيئاً فشيئاً فتصير حجراً ثم شعباً الى ان تصير جزيرة وتكسى بالنبات ويستحوذ عليها الانسان فيكون منه مسكنه وقوته

ثم ان اندفاع مياه الامطار يختلف قوة وضعفا باختلاف عظم الانحدار وقلته وفي اندفاعها قد تقلل الصخور الكبيرة وكثيراً ما تسحب معها احجاراً قدر الحجر منها متر مكعب فاكثر فمن الحجارة ما يتراكم بعضه على بعض ومنها ما ينحدر مع الماء حتى يستقر في اودية بعيدة ومنها ما يجره السيل حتى يلتقي في البحر فيفتته حتى يصير رملاً فيدفعه الموج الى الشاطئ او الى الجزائر فيكون في وسطها او في سواحلها وكميات الرمل التي نشاهدها في السواحل انما هي حاملة من الصخور التي جلبها السيل من الجبال البعيدة وفي الدنيا الجديدة انهر عظيمة العرض تجري في ارض غير

مستوية وتقدر من المحلات الشائخة بسرعة شديدة واهل تلك البلاد لا يخشون الملاحه فيها وفي كثير من الجهات يفعل تيار الماء على الارض فياخذ معه الطين منها وفي سيره يلف الشواطئ والبرور وياخذ فيه الطين بالتدريج حتى يصير نهراً من طين وفي سنة ١٨٥٢ شوهد تيار من الطين في جهة جبال الالب فكان اسود اللون قليل الماء وانصب في نهر الرون فاجب فيضانه

وكثيرا ما شاهد السياحون من ذلك تيارات في بلاد البيرو وجاوى حتى صارت طبقة جديدة على وجه الارض وقد تجمد انهار البلاد الباردة فينجبس فيها كثير من الاحجار وغيرها ويتقل معها حيث سارت

وفي كثير من الانهر توجد شلالات مختلفة ينشأ عنها نقل المواد الترابية وغيرها وتغير شكل الاراضي فمن ذلك انهم رأوا قطعة الثلج طولها سبعة امتار فكسروها فوجدوا في جوفها حجرا ضلعه نحو متر

ومن ذلك نهر النياجارا بامريقة الخارج من بحيرة ايريه فانه بعد اثني عشر فرسخا منها ينصب من علو في منخفض عظيم الانخفاض وينحدرويسيل حتى يختلط ببحيرة اوتاريو وهناك ينقسم بجزيرة الى هدارين عظيمين يسمع لدويهما صوت كصوت الرعد فياخذان ما قابلهما من حجر ومدر فبعضه يرسب في مجراها

وبعضه يلقيه الماء على الشاطئ فيتراكم كالبناء فانظر كيف تسلطن الماء على ما انخفض وما ارتفع وفرق ما كان مجتمعاً وجمع ما كان متفرقاً فسبحان من خص ما شاء بما شاء وعم باחסانه من احسن ومن اساء ثم لا يخفى ان جريان الماء بهذه الكيفية يوجب غور مجراه وتاخر المصب عن موضعه

وقد شوهه سنة الف وثمانمائة وعشرين ان مصب نهر نياجارا المذكور تأخر عن موضعه الذي كان فيه منذ خمسين سنة نحو اربعين متراً فلو فرض ان التأخر في الماضي كان على هذا النسق كانت مدة حفره للعشرة الاف متر التي حفرها نحو عشرة الاف عام وان كان لا يقال ذلك الا بعد علم ما كان عليه الوادي في مبداء امره نعم ان استمر التقهقر على هذا النسق امكن معرفة الزمن الذي كان يصب فيه بحيرة ايريه وان استمر الحال على ذلك فعلاً قريب تحف البحيرة المذكورة لان غاية عمقها لا يزيد عن ارتفاع الشلال ومن هذا القبيل نهر زنبير بافريقيه لان به شلالات مرتفعة جداً يسمع للماء دوي من بعيد ويرى على النهر بخار ورغاوي ترتفع وتتنفض وعرضه الف وستمائة متر فاذا وصل الى محل الشلالات تقطع وخرج من بين الصخر وهبط الى مكان عميق حوله جبال فيكون للماء حينئذ دوامات وتلاطم امواجه فيسمع لها صوت مزعج ويصعد منها عُمُدٌ من الماء بيضاء التواعد سوداء الرؤوس فاذا وصلت تلك العُمُد الى اعلى الصخور المحيطة به

انحدرت في مضيق هناك مع السرعة الشديدة والمزاحمة فمن تلاطم المياه ترى فوق الصخور سحابة من الزبد والرغوة وبسبب تراكم الصخور في ذلك المجرى الضيق جداً ترى المزاحمة والملاطمة تكثر وتزداد فيرتفع الماء عن قاعه ويفيض على الشواطئ وتارة ينحبس في تلك الفوهة ويفعل في قاعها مع الشدة فيجفرها ويقلقل صخورها ويتبادي ذلك يتسع المجرى

وفي أرض السينيغال شلال نهر فيلو فان مائه يأخذ معه حجارة حمراء من حجارة شواطئه ومن كثرة ثقلها فيه وشدته واستمراره يؤثر فيها ويصنعها على صور مختلفة فقد راوا على شواطئه في وقت التحاريق أحجاراً مثقوبة وأحجاراً تشبه الصور والتماثيل وأحجاراً عليها رسوم تشبه المعابد وصور حيوانات وأشجار حتى اغتر بذلك العبيد القاطنون هناك وغلبت عليهم الأوهام الفاسدة فعبدها ويوجد ببلاد سويجرة وجبال اليريني مصاب عجيبة الطفها شلال نهر الران القريب من شافوز والطف من ذلك الاثنا عشر مصبا النازلة من جبل باستدارة تعرف باستدارة جواراني وهي عبارة عن حائط في شكل قوس ارتفاع دائره نحو الف ومائتي قدم وفي اعلاه الثلج دائما وفي خلاله اثنا عشر فتحة كالطاقات تسيل منها المياه باللامسة للحائط فلا يسمع لها الا صوت لطيف مع انها نازلة من مسافة اربعمائة واثنين وعشرين متراً فاذا هب عليها النسيم لعب بها فيكون لها عند ذلك رؤية تسر الناظر

وتشرح المخاطر ومن اعمال الماء ايضاً ما يعمله في بعض السنين وهو انه اذا فاض من الثلوج او الامطار والسيول يعلو البرور والشواطىء ويهجم على اراضي الوديان ويكسوها بطبقة منه ولا يرحل عنها الا وقد ترك فيها طبقة من الزبد او مما كان اتى به من الطين ونحوه ويتوالي ذلك ترتفع الارض او قاع البحيرات وبحوار المالح تحدث ارض جديدة تزيد بالتدريج بما يلقيه البحر من جوفه فيها فتسكنها الناس وتكون مديرية في ولاية او ولاية كاملة جديدة يستحوذ عليها الناس وتكسى رونق العمارة بالمزارع والمباني والمنشآت الفخيمة وما يحدث من المواد الراسبة من المياه ثلاثة انواع من الاراضي الاول في قاع البرك والثاني في البحر المتوسطة والثالث في افواه البحر عند مصبها في المالح وقدر الطين الراسب من نهر الرون عند مصبه كبير جداً حتى ان مدينة برتوس بعد ان كانت على شاطئ بحيرة جنوه قبل الان بثمانية عشر قرناً صار بينها وبينه نحو الف متر وكل حين تاخذ في الزيادة بما يلقيه النهر في البحيرة وفي الامريقا الشمالية في ارض كندا يرسب من البحيرة العليا التي هي اكبر بحائر الدنيا وهي قدر سعة اوربا بتمامها كمية عظيمة كل سنة من المواد فطمت ارضها واتسعت واستمرت آخذة في الزيادة والاراضي التي تتكوّن في مصاب الانهر تختلف بحسب الانهر فنهر الرون كوّن من رسوبه ارضاً متسعة عند مصبه في البحر الرومي ويمكن قياس تلك الاراضي ومعرفة مساحتها من الاثار الموجودة الى يومنا

هذا وذكرها المؤرخون فمن ذلك برج تيومين الذي كان بناؤه سنة ١٧٢٧ من الميلاد فانه كان فوق البحر فصار بينه وبين البحر الآن ألف وستمائة متر وكذلك نهر البر ونهر الاريج اللذان يصبان في البحر الادرياتيكي فقد حصل عن مصابهما اراضي متسعة حتى ان بعض المين التي كانت تنف عندها السفن زمن اغسطس رُدّت بالطين وصارت مدينة بعيدة عن البحر عدة فراسخ وكذلك مدينة سينا وكانت قبل الميلاد على شاطئه فصار الآن بينه وبينها نحو اربعة فراسخ وخليج ايزوتروا فانه تحول عن مجراه الاصلي وسلك طريقاً في غربي مجراه الاصلي بنحو فرسخ وامثال ذلك كثيرة

وهناك انهار لا تتحول عن مجراها ولكنها برسوب الطين في نفس المجرى تأخذ في العلو والارتفاع وترتفع شواطئها فيكون النهر دائماً منجساً فيها كنيـل مصر ونهر الميسيسي في وقت الفيضان يكون سطح مياه النهر اعلى من سطح الارض بحيث لو انكسر جوفه لغرقت الارض وبسبب كثرة ما به من الطمي يرسب على سطح الاراضي طبقة منه فتعلو بها كل سنة وذلك هو السبب في ضياع كثير من الاثار القديمة والمباني فلو كان انصباب الانهر واقعا في البحر المحيط عوضاً عن انصبابها في الانهر المتوسطة لدخل البحر الملح في الانهار بالمد والجزر الى بعد عظيم من النهر فلا يتمكن النهر من احداث اراضي بقرب مصبه لان البحر ياخذ حيثنذ جميع ما تأتي به الانهر من المواد ومن ثمادي هذا الفعل ياء كل مصب

النهر شيئاً فشيئاً ويدخل المالح في الاراضي ويتكون عنه خليج كبير ومينا عظيمة وقد يكون النهر قوي السرعة والحجم ويدافع عن مواده الراسبة في مصبه الا انها تكون على التدرج ارضاً وتدخل في البحر كما شهود ذلك في مصب نهر الكنج فانه تولد منه في البحر المالح لسان من الارض طوله نحو ثمانين فرسخاً في عرض اثنين وسبعين وفي خلاله خلجان مالحمة كبيرة وصغيرة وصار ارضاً تأوي اليها الوحوش وكما ان الانهر تكسب الارض خصوبة وعماراً واهلها ثروة كذلك قد يحصل منها القحط وغلاء الاسعار وخراب البلاد وهلاك العباد وذلك اذا زاد فيضانها عن حده المعتاد وسبب الفيضان اما كثرة السيول واما الزلازل التي تنقلها عن مواضعها واما ذوبان الثلج المحابس لمستودع عظيم من المياه وكثيراً ما شهود ان السيول تكسو الارض الخصبه بالاحجار والزلازل والحصى وجذوع الشجر ونحوه فتصبح قحلة بعد خصوبتها ومثل ذلك يحصل من ذوبان الثلوج وتيارها واهل كل بقعة تعلم اسباب فيضان نهرها ولهم طرق ووسائل لوقاية بلادهم من مضاره وتحصيل منافعهم من فيضانه

ومن عجيب فعل الماء ان منه ما يقلب كل ما القى فيه سواء كان حجراً او نباتاً او حيواناً او غير ذلك

فقال الشيخ واين يوجد ذلك وهل تخرج تلك الاشياء عن حقيقتها الاصلية عند صيرورتها حجراً فقال له الخواجا اما وجود

هذا الماء فكثير واما انقلاب الحيوانات وغيرها فقد كثر فيه كلام المتقدمين والمتأخرين فمنهم من زعم انها تمسخ وتنقلب حقيقتها ومنهم من قال ان تغيرها ليس الا في ظاهرها فقط وهي باقية على حقائقها وهذا هو الموافق للعقل لان في تلك المياه مواد جيرية مكيفة بحيث لو لمست شيئا لصقت به والبسته ثوبا غير ثوبه وعلى طول الايام تستحجر تلك المواد ومن هذا القبيل ما وجد بعيون نابغة جهة كليرمون وساتالبر وساتنكتير من فرانس فتى ألقى فيها شيء كسي بمادة جيرية على قدر صورته ثم يستحجر

وفي اسيا الصغرى بمدينة هير وبوليس عين بسفح الجبل من هذا القبيل يتكون عنها شلالات بسفح الجبل وكذلك بعض مياه الامطار التي تبتلعها الارض متى قابلت فجوة في الارض أو مغارات دخلت فيها وحدثت عنها اشكال عجيبية وسبب ذلك ان الماء يكون محملاً بحمض الكربون فيصادف في طريقه مواد جيرية فتحللها وتاخذها معها فتى انصبت في مغارة أو فجوة صادمت الهواء الجوي فينصاعد حمض الكربون وترسب المواد الجيرية في هيئة كثيرة وفي بعض المغارات الطبيعية يشاهد في سقفها اشكال على هيئة الابرنازلة الى اسفل وهي حادثة من ماء معدني نفذ في خلال احجارها فيميل الى السقوط نحو ارضها لكن يبقى معلقا زمنا قبل السقوط وفي زمن تعلقه يفعل عليه الهواء الموجود في المغارة فيتشجر ويتخلص حمض الكربون وتبقى المادة

الجيرية وكلما نزلت نقطة حصل لها مثل ما حصل لما قبلها
 فيزداد بذلك الحجم والارتفاع وبعد زمن تكون تلك النقطة في
 هيئة ساق ريشة طائر قاعدتها وهي ما غلظ منها بسقف المغارة
 ورأسها نحو أرضها وبانضمام هذه الصور الى بعضها يكون لها
 هياآت واشكال لطيفة وبعد مدة ينسد الثقب ويسيل الماء
 عليها من ظاهرها بعد ان كان يسيل من باطنها وتصير
 مخروطية بعد ان كانت اسطوانية وما نزل منها الى الارض يتشكل
 باشكال تعلق فوقها وتكون مقابلة للاولى منها ما يكون طويلاً
 ومنها ما يكون قصيراً غليظاً او رقيقاً وبعضها يتصل بالاولى
 او يقرب منها حتى ان من لا خبرة عنده بذلك اذا دخل تلك
 المغارات ورأى تلك العمدة على هذه الهيئات ظن ان ذلك من اعمال
 القدماء الذين محيت اثارهم وغابت عنا اخبارهم وامثال ذلك
 كثيرة منها ما هو في مغارات جبال اليربني قرب بيزنسون من
 فرانساً ومنها ما هو بجزائر اليونان بمغارة انتباروس ومغارة حان
 ببلاد الفلنك ومغارة ارسى في بلاد سفلى ومغارة كردال ببلاد
 الانكليز وبالمديرية التي بها مغارة حان نهير صغير يجري الى ان
 يصل جبلاً شاهقاً هناك فيسير تحته الفا ومائتي متر ثم يظهر صافياً
 لاكدورة فيه بعد ان كان محملاً بالطين والمواد الارضية
 فالمواد التي كانت فيه شربتها الصخور التي مر عليها فكانه في
 سيره يشي فوق تلك المغارة وهي مركبة من اثنين وعشرين عنبراً

عبارة عن مغارات وأولها تحت الأرض بنحو خمسمائة قدم وطولها مائتان وعرضها ثلاثمائة وخمسون يقولون أن سبب تلك العنابر زلازل حصلت من قديم الزمن وفي قاع بعض البرك المعدنية حجارة عجيبة أصلها رمل يرتفع عند طغيان الماء فتلتف عليه المواد المعدنية فيثقل ويقع في القاع وياخذ في الكبر بما يرسب فوقه منها وبعد مدة يصير صخوراً ضخمة عبارة عن تجمع حجارة كروية كما رآوا ذلك في بركة ويشي وكرلسباد وفي تيفولي قرب رومة



المسامرة (١١٨)

فحة خارج باريس

وبينما هم في الحديث وقفت بهم السفينة فنزلوا واحضر يعقوب لهم عربة فركبوا وسارت بهم وسط غابة واسعة أرضها غير منتظمة

الى ان وصلوا مدينة عالية البنا واسعة الارجاء تشبه باريز في
طرقها وحوائيتها واسواقها فسال الشيخ عنها فقيل له انها تسمى
باللغة الافرنجية فتين بلو اي العين الزرقاء ولها شهرة عند الامة
الفرنساوية وذكر في تاريخهم لما فيها من الاثار الغربية ثم وصف
الخوجا لسائق العربية المحل الذي يقصدونه فسار حتى وقف
ببابه وكان صاحب المنزل غائبا فخرجت لهم زوجته وقابلتهم بالبشر
وحيتهم وادخلتهم الى محل الجلوس فاجلستهم وامرت لهم بالقهوة
ثم ارسلت الى زوجها فحضر فلم عليهم ورحب بهم وزاد في اكرامهم
وقال للخوجا لقد طوقني منّا لا اقوم بشكرها حيث شرفت منزلي
بحضرة الشيخ وولده فاجابه الخوجا بكلمات تستجلب المحبة وتجري
في العادة بين الاحبة وكان ذلك كله باللغة الفرنسية فلم
يفهم الشيخ منه شيئا فلما رأى صاحب المنزل عدم فهمه لكلامه
حول الكلام الى اللغة العربية الا انها بلسان اهل المغرب لانه
اقام بالجزائر عشر سنين فلما سمعه الشيخ قال للانكليزي لقد
قلدتني قلائد الامتنان اذ عرفتني بمن يعرف هذا اللسان فقال له
الخوجا هذا بعض ما يجب علينا وسنرى منك في بلدك ما تراه منا
هنا فتبسم الشيخ وقال لانت اعلم مني باحوال بلدي

ثم التفت الى ابنه فرأى سيدة البيت تتكلم معه ايضا
باللغة العربية فقال لزوجها اظن ان الست كانت معك حين
كنت بالجزائر فقال لا ولكنها ولدت بمصر ولم اتزوجها الا بعد

خروجي من العسكرية ورجوعي الى بلدي مرسيليا وهي اعلم باللغة العربية مني فقال لها هل كانت اقامتك بالقاهرة نفسها او بقرية من قرأها فقالت كانت ولادني باسكندرية وكانت بها اقامتي الا ان والدي كان في فصل الشتاء يتوجه الى مصر وياخذنا معه فنقيم بهامدة الشتاء بسبب متجر كان له وكثيراً ما سافرت معه الى دمياط والمنصورة وطندنا والمولد الاحدي وسافرت معه مرة الى الوجه القبلي ورأيت الاثار القديمة التي باسنا وادفو والكرنك فقال لها الشيخ لانت بارض مصر اعلم مني فاني لم اسافر الى الجهات القبلية بل يظهر أن علمك بتلك البلاد اكثر من علم اهلها بها فقال زوجها وكذلك كان لها علي حق التعليم فاني ما تعلمت الخط العربي ولا المطالعة في الكتب العربية الا منها لاني حين خرجت من العسكرية ببلاد الجزائر كنت لا اعرف الا الكلام المتعارف دون القراءة فقال الشيخ وحيثذ تعرف الست القراءة والكتابة فقالت نعم كان والدي حال صغري يرغب في تعليمي اللغة العربية فاحضر لي معلماً فكان يأتيني كل يوم فعلمني القراءة والمطالعة وقرأت عليه القرآن والاجرومية وشرح الشيخ خالد في علم النحو وعندي بعض من كتب العربية بخط اليد ساطلعت عليها وكان معلمي عليه الرحمة بارعاً في فن الخط فتعلمت منه الثلث والرقعة والنسخ ولكن الان ضاعت مني القاعدة ومع ذلك اكتب خطاً مناسباً واغلب مما اكتبه هنا الخط

الفرنساوي فقال الشيخ هذا من اعجب المصادفات وانسر لذلك
واكثر من شكر الخواجا على تعريفه بهم فقال صاحب البيت ان
فرحنا بك اشد من فرحك بنا فاني مولع بحب مصر واهلها وكثيراً
ما تحدثني زوجتي باخبارها فنزداد رغبتني في التوجه اليها ولا بد
ان شاء الله ان نساfer اليها ونجتمع هناك فان الست مشتاقة الى
زيارة قبر اخ لها مدفون هناك بل كلما جاء الشتاء واشتد البرد
وتجردت الاشجار من زيتها وكسيت غصونها بالثلج تحن الى مصر
وطيب هوائها وتذكر كثرة خيرها وقناعة اهلها وما زالوا يتحادثون
في هذا المعرض حتى حضرت المائدة فاكلوا ثم دخلوا البستان
وطافوا في نواحيه فكانت الست تتكلم مع ابن الشيخ فتارة تصف
له ما يستغربه من الشجر والنبات وتارة تحادثه في مصر واحوالها
الى ان رجعوا فقال صاحب المنزل للشيخ لا بأس ان تستريح هنا
من وعناء السفر واخذ بيده وادخله غرفة مهيأة وقال له كن
عندنا كما تكون في بيتك وها هو انطوان الخادم تحت امرك وطوع
يدك ونادى انطوان وامره بطاعة الشيخ في كل ما يريد وكان
يعرف اللسان الغربي تعلمه بالجزائر فشكر الشيخ هذا الصنيع ودخل
الغرفة ونزع ثيابه وطلب ماء فتوضأ وقام فصللي ثم نام فلما اصبح
دخل عليه ولده وقبل يده كعادته فقال له والده ماذا رأيت
في هذا المكان وكيف صحتك فقال احمد الله على كمال الصحة
ووالدي كيف كان نومه الليلة فقال من احسن ما يكون وشتان

ما بين هواً هذه الدار وهواء مدينة باريز وإن شاء الله نقيم هنامدة فقال لابييه وماذا تصنع في الدرس الذي وظفته على نفسك فقال ان ها الا يومان في الجمعة وقد اخبرني حضرة الخواجا ان بين ما هنا والمدرسة بباريز بعض دقائق في السكة الحديدية فتوجه للدرس ونعود مع الخواجا ففرح ابنه بذلك لانه كان يحب الإقامة بباريز لكثرة ما بها من المستغربات

ثم حضر الخواجا الانكليزي وبعد ان سألته عن صحبه قال يلزم ان تقسم الايام التي نقيمها هنا على الاشياء التي تحب ان تراها فهل نجعل وقت التفرج قبل الظهرام بعده فقال الشيخ الامر لك فانك بذلك ادرى ولكن اظن ان جعلها بعد الظهر اولى لنجعل ما قبل الظهر للمراجعة والصحيح ووافهم صاحب البيت على ذلك ايضاً وقال ان أكثر التفرج يكون في الغابة فتارة نمشي على الاقدام وتارة في العربة بحسب قرب الاماكن وبعدها وتارة نستعمل الاثنين معاً وقد اخذت من الان في ترتيب التفرج وكيفيتها حتى تطلعوا على جميع ما يلزم فكانوا كل يوم يخرجون على هذا النسق وكانت تخرج صاحبة المنزل مع ابن الشيخ ويخرج زوجها والخواجا مع والده واقاموا نحو شهرين على هذه المحال حتى نسوا ألم الغربة وفراق الاهل والاحبة لان ابن الشيخ كان عند صاحبة المنزل بمنزلة اولادها خصوصاً وقد كانت تعلمه اللسان الفرنسي وتشرح له جميع ما يقع عليه

نظره مع الفصاحة والمعرفة ولكن ما انساه حب باريز واهلها
 زيادة الابنة لم تسمى مريم كانت تدخل وتخرج معه وكانت ذات
 حسن وجمال وقد واعندال تخيل البدر بطلمعتها تعلق قلبها به
 وتعلق بها فكانت تهواه ويهواها ويرى خيالها اذا غابت عن عينيه
 حتى كان اذا جاء يوم التوجه الى باريز للدرس يتعلل بتعللات
 موجبة للتخلف بعد ان كان لا يؤثر شيئاً على التوجه الى باريس
 فكان يترك والده مع يعقوب عند الست ويذهب الى الدرس
 فيكون تارة مع الست وتارة مع البنت ويقضي الاوقات في انواع
 المسرات وازداد افتنانه بالبنت وتمكنت بينهما الالفه وكان كما
 قال القائل

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقر به لم يطق
 رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

وفي ذات يوم توجه والده الى باريز للدرس واخذ معه يعقوب
 وترك ابنه في البيت فامرت الست خادما ان يطوان ان يخرج به
 وباولادها الى التنزه فاركبهم جميعاً عربة وسار بهم واخذ برهان الدين
 ومريم باطراف الاحاديث والمفاكهة ثم نزلوا ومشوا وهي تحادثه وتساله
 عما اعجبه في فرانس ويحييها وهو غريق في بحار جمالها الى ان وصلوا
 هضبة كسيت بالاشجار ونبع ماؤها من بين الاحجار فصعدوا عليها فكانت
 مريم تري برهان الدين نهرا السين والبلاد التي عليه والطرق الموصلة
 لباريز فكان نظره في خلال وصفها لا يفارق وجهها وكذلك هي

لا تفتر عن النظر اليه كما قال الشاعر

نظر العيون الى العيون هو الذي

جعل الهلاك الى الفؤاد سبيلا

ثم وصلوا الى مخدع سقفه غصون الاشجار وفرشه انواع العشب
والازهار فاطمأنوا فيه برهة ثم نزلوا من فوق الاكمة وداروا في ارجاء
الغابة الى ان وصلوا فضاء بين ثلاث اكمت فصعدوا احداها
فراى برهان الدين حول الغابة ارضا منزرعة ليس فيها شيء مما في
الغابة فسأل الخادم عنها فقال هذه الارض كانت قبل الان مغطاة
بالاشجار المرتفعة وفي كتب التاريخ ان اشجارها كانت متواصلة
وكلما تنعطف الى الشمال تزداد التحاماً والتفافاً وارتفاعاً والارض
الخالية من الاشجار كانت بركاً ومناقع كما قاله استرابون فكان
البرد يزداد بسببها حتى يبلغ درجة يعسر معها نبت شجر الزيتون
والتين والعنب ولم تكثر بها الزراعة الا بعد استيلاء الدولة
الرومانية عليها فزرع بعضها وبقي بعضها غابات يأوي اليها
الفارون من ظلم الرومانيين فلما انت دولة القوم المتبربرة وهم
الامانيون وذلك سنة ٢٥١ للميلاد واستولوا على ارض الجول قسم
روء ساوهم تلك الغابة بينهم وابقوها على ما هي عليه وجعلوها محلاً
للصيد ومنعوا غيرهم من الصيد منها وجعلوا قصاصات شديدة على
من يخالف ذلك فكان كل من قتل حيواناً يقتل فيه فكثرت
بها السباع والوحوش والضباع حتى كانت تفترس الناس وتفسد

عليهم زرعهم وتهلك ضرعهم من غير ان يكون في قدرتهم منعها
فكان نصف الارض للوحوش ونصفها الاخر تشارك فيه الاهالي
لانها كانت تسطو عليهم فتهلك الاطفال والزرع وتقطع السبيل
ومن شغف الملوك والامراء بها كانوا يتهادون بها فيما بينهم فمن
كان في قسمه وحش ليس في قسم الاخر هاداه به فيرسله في غابته
ويجلى سبيله ليتج فيها ويكثر واستمر الامر على هذه الحال الى
القرن الرابع عشر من الميلاد ثم اخذت الغابة في النقص وارض
الزراعة في الزيادة وبعد ان كانت هذه الغابة وغابة وانسين
وبولونيا متصلة ببناء باريز صار بينها وبينها ما ترى هذا حاصل
ما قيل في هذا المكان وما كان عليه من اول الامر الى ما هو
عليه الان

فقال ابن الشيخ هكذا الدهر كله عبر ولكن لمن تأمل واعتبر
الدهر لا يبقى على حالة فطوراً يضروطوراً يسر



المسامرة (١١٩)

النطن

ثم رجعوا وكان برهان الدين متغيراً مشغول المخاطر بالغرام ولما
وصلوا وجد والده مع الخواجا موريس يتمشيان في طرف البستان
قريب شجرة ارتفاعها نحو خمسة امتار وهي كثيرة الاغصان والورق
وعليها ما يشبه القطن الهندي وكان بيد والده شيء من ثمرها فناوله
لابنه وساله عنه فقال هذا يشبه ثمر القطن فقال الخواجا موريس
هذه هي شجرة القطن التي تنبت في الهند والصين
فقال الشيخ ان القطن يزرع بمصر ولكن لا يكبر لهذا الحد
فان غاية ارتفاعه متر ونصف او متران ومع ذلك ثمره اكبر من
ثمر هذا

فقال الخواجا موريس انواع القطن ثلاثة احدها يكون شجراً كهذه ولوزة قليل ولكنه اجود الانواع والثاني النوع الهندي وهو الذي يزرع بارض مصر والثالث نوع اقصر من الهندي واغصانه تمتد على الارض ويعطي محصولاً كثيراً ثم تأمل في الحوض الذي فيه شجرة القطن فوجد النوعين الآخرين وبقرهما النيل والكتان فقال هذه النباتات المباركة وردت لنا من الشرق فالنيل ورد لنا من جهات العجم ومن زمن قديم يزرع باوروبا واول من زرع الكتان المصريون كما قال مرسيانوس وفي زمن موسى بن عمران كانت اقمشة الكتان معروفة وفي زمن الرومانيين كان المدوح اقمشة الكتان المصرية وفي جميع الجهات قبل اشتهار زراعة القطن كان لباس الناس الكتان او الصوف ولكن الان صار القطن هو المستعمل غالباً لكثرة زرعه في الجهات فبعد ان كان لا يوجد باوروبا اصلاً كثر الان حتى صار يزرع في الجهات الجنوبية من ايطاليا وفي بلاد الاندلس وجزيرة صقلية وجزائر اليونان فقال الشيخ ان اول من ادخل في مصر القطن الذي هو بها الان المرحوم محمد علي باشا وقبل ذلك كان يزرع نوع منه يعرف بالقطن البلدي كانت الاهالي تزرعه حول اراضيها وفي قطع ارض قليلة فتأخذ الاغنياء منه لكبس المساند والوسائد والطوالات وكان بعض الاهالي يغزلونه ويصنعون منه اقمشة غليظة للملابس وما يتعجب منه ان الاهالي لم تزرع القطن الهندي الا

برغم انها بعد ان عين المرحوم محمد علي باشا لذلك مفتشين
وحكاماً وعين مقادير تزرع كل سنة في كل جهة وتوعد كل
من تاخر في شيء من ذلك بالعقاب الشديد فكانوا يعدون ذلك
از ذاك ظلماً فلما علموا فوائده رغبوا فيه بانفسهم ولولاه ما امكنهم
التحصل على ما يسدون به ما يطلب منهم للميري وغيره

فقال الخواجا هكذا كان حالنا مع اهل الجزائر وحصل مثل
ذلك ايضا في جهات كثيرة وفي الازمان القديمة كانت هذه النباتات
النافعة معلومة في بلاد الهند وكانت تنبت وحدها بارض مصر
والشام وبلاد العجم وهي التي تكلم عليها استرابون الجغرافي وبلين
المؤرخ وسمياها صوفاً حيث قال انه يوجد في هذه البلاد الصوف
على الاشجار بكثرة وكان قسيسوا مصر في زمن الفراعنة والبطلموسييين
يجعلون منه الملابس الرسمية وثيابه معروفة في الهند وقد تكلم
عليه المؤرخون كثيراً وكانت العرب تتجرب به الا ان اليونان
والرومانيين الى اخر القرن الاول من الميلاد كانوا لا يعتنون
به في الملابس بل كانوا يلبسون حسب درجاتهم فبعضهم يلبس
الكتان وبعضهم الصوف وبعضهم الحرير وبقيت اوروبا ثلاثة
عشر قرناً ميلادياً لا تعرف القطن ولا اقمشته وانما كانوا يستعملونه
فتائل للقناديل

وفي سنة ١٢٥٢ ميلادية ظهر ببلاد القريم والمسكوف وكان يجلب
اليهم من بلاد التركستان وكان له في تلك الازمان ورش ببلاد

الارمن والعجم ولم يعرفه الصينيون الى اخر القرن الثالث عشر مع
 انهم بجوار الهند ومن ذلك الوقت اشتغلوا بزراعته اشتغالا كليا
 حتى تركوا من اجله جميع المزروعات وتسبب عن ذلك فحط لم
 يسمع بمثله فصدرت اوامر سلطانية بتحديد قدر ما يزرع منه ومنع
 الزيادة عليه وعقاب من تعدى بالموت فقل الاحتفال به
 شيئا فشيئا حتى صار يزرع ما يلزم لاهالي تلك المملكة منه
 وفي وقتنا هذا يشترونه من خارج مملكتهم وقد حصروا ما يتحصل
 لهم من زرعه كل سنة فوجدوه خمسمائة الف بالة وذلك عبارة
 عن خمسة وسبعين مليونا كيلوجراما وهذا قليل جدا بالنسبة
 لما يكفي لوازهم فحصروا ما يرد اليهم محلوجا من جهة الاينازوني
 فوجدوه خمسة واربعين مليونا كيلوجراما غير ما يرد منها ومن
 الهند مشغولا وذلك نحو عشرة ملايين كيلوجرام فجميع محصول
 زراعتهم وما يرد لهم من الخارج مشغولا وغير مشغول نحو مائة
 وثلاثين مليونا ولا شك ان هذا القدر قليل بالنسبة لهم لان
 عدد اهالي بلادهم يبلغ نحو اربعمائة مليون ويؤخذ من سير
 السياحين ان تسعة اعشار الاهالي من نساء ورجال يلبسون
 القطن وكلهم يجعلون منه بنطلونات واسعة فاذا اعتبرنا ذلك
 مع ما يستهلكه كل شخص من جهات الدنيا غيرهم يمكن
 ان نحكم بان قدر القطن المصنوع في ورش الصين والوارد
 من الخارج يقرب من سبعمائة وخمسين مليونا كيلوجراما اي

قدر ما يستهلكه اهل اوروبا بتمامها والائتازوني من
الامريكا

والى الان لا يعلم قدر ما تستهلكه اهل الهند بالضبط بل
اختلف فيه المؤلفون وقدر لكل شخص من المائة والخمسين
مليوناً من الاهالي عشريورات انكليزية وبناء على ذلك جعل
اللازم لهم من القطن الفا وخمسمائة مليون ليوره في
خصوص الكسوة ونحوها خلاف الاشياء التي تصنع منه
ثم ان وجود القطن في الازمان القديمة بجهات امريكا
لا شك فيه والدليل على ذلك ان اكمان الموتى الذين اخرجوا
من قبورهم كانت من القطن

ولما استكشف كرسنوف كلومب الامريكا وجد اهلها لابسين
من اقمشة القطن ولما استكشف الشهير فيرناند كورتيز ارض
المكسيك وجده مزروعاً بها وارسل الى الملك شركان هدية
من اقمشتهم منه وكانت مناديل وثياباً ملونة باجل الالوان
متقنة الصنعة والصبغة وقد قيل انه كان يصنع بهذه البقعة
ورق الكتابة من القطن في سالف الازمان وكذلك كان القطن
معروفاً عند اهالي بربيزيليا كما اشار الى ذلك ماجيلان الملاح عند
استكشافه البغاز المسي باسمه ووجد السياحون شجرة القطن نابتة
بنفسها بشواطئ نهر المسيسيبي

فقال الشيخ وقد وقع لي بعض رسائل في هذا المعنى فرايت

فيها ان هذه الشجرة كانت معروفة ببلاد الاندلس ايام كانت في يد المسلمين وانها كانت تزرع في جهات كثيرة منها وكان لنسجه معامل في مدن عديدة منها كغرناطة وكوردو وغيرها وكانت الاندلسية تساوي الشامية وربما فاقتها في الجودة وحيث كانت الاندلس من اوربا فلا بد ان الاوروباوين انما اخذوا منافع هذه الشجرة عن الاندلسيين وقد سمعنا من ساحل افريقية الداخلية وبلاد الحبشة ان القطن ينبت في ارضهم بنفسه

فقال الخواجا ان ذلك حق فان السياحين كتبوه وذكروا انه يوجد بالسواحل القريبة من افريقه مثل ارض السينيجال وغانم وغيرها

واما وجوده في اوربا فكان في اواخر القرن العاشر وكانوا قد اخذوه عن العرب ولكن كان غير مستعمل بسبب اوهام دنيئة كانت تدخلها النصارى على الناس لكرهتهم في دين من نشر زراعته

واول ظهور معامل نسجه كان في اواخر القرن الرابع عشر من الميلاذ ببلاد ايتاليا واول من نقل منه الى بلاد الانكليز تجار البندقانيين

وفي سنة الف واربعمائة وثلاثين ابتدا ظهور اقمشته ببلاد الانكليز ورغبت فيه الناس وكثرت معاملته من حيثذ الى سنة

الف وستائة واثنين وخمسين كان لا يلبسه غير الخدم والرعاع
والى سنة الف وسبعائة وثلاثة وسبعين كانوا يجعلون منسوجاتهم
قيامها من الكتان واللحمة من القطن ومع ذلك لم يكثر
كثرة عظيمة الا من وقت ورود محصول امريكا الى
بلاد الانكليز

وما يستغرب من امر القطن ان اول من زرعه بكثرة بامريكا
للتجارة قوم مهاجرون من اوروبا استوطنوا راس فيار من ارض
الغلوريد ولما رأت الاهالي نخباجه اخذوا يزرعونه واكثروا منه
شيئا فشيئا الى ان صار اساس الزراعة بامريكا الجنوبية والشمالية
واولا كانوا يزرعونه خطوطا متباعدة ثم رأوا ان التقارب يفيد
محصولا اكثر فصاروا يقربون الخطوط من بعضها ويمدونه فزاد
المحصول وحسن الزرع ومكثوا زمنا يفضلون في ثقاويه البذر
المجرد عن الوبر ثم اتضح لهم من تجارب عديدة ان البذر المكسو
بالوبر اكثر محصولا واجود لانه اكثر شعرا واصغر بذرا فمع
ذلك العهد صاروا لا يستعملون الا البذر المكسو بالوبر ثم تحصلوا
على نوع منه طويل الشعر ذي صلابة ونعومة فوجدوه اجود
انواعه لان شعره يتصل بعضه ببعض في النسج بسهولة ويتيسر
تدقيق غزله الى الغاية المطلوبة وقد تحصلوا من نصف كيلوجرام
من قطن السيلان على فتلة رقيقة جدا بلغ طولها قريبا من ثمانين
فرسخا وقطن مصر من هذا الجنس الطويل الشعر والذي جلب

لهم بذره رجل فرنساوي اسمه جوميل سنة ١٨٢٠ بامر المرحوم محمد علي باشا فاني به من دنقلا ببلاد النوبة ثم جلب بذراً من الجويرجي من امريكا من قطن يسمى بقطن سيا اسلنداي قطن الجزائر (وقد حرفتم الكلمة وقلمت سيلان) وهو احسن الموجود المرغوب فيه كثيراً بالفوريقات ولذلك تزيد قيمته على غيره بنحو الربع بل اكثر

فقال الشيخ انواع القطن بمصر كثيرة مختلفة لوناً وحجماً فهذه الاسمر والابيض والاصفر والاهالي لا تفرق بينها بل كل يبذر بارضه ما تيسر له من غير تحرر ولكن الان ابتداءً ان يميزوا بين الانواع وتنبهوا لزرع السيلان وكثير منهم لا يزرع الا ما لبذره وبر لما راوا من فائدته وتركوا البذر الاسود لانه قليل المحصول وسمعت من بعض الناس ان القنطار من ذي البذر الاسود اذا حلج يخرج منه تسع كيلات بذراً ومن ذي الوبر خمس ووزن البذر الثلثان والشعر الثلث

فقال الخواجا ان اللون الاقطان النابتة بسواحل الكارولين الجنوبية والجويرجي تميل الى الصفرة بخلاف النابت داخل ارض تلك الجهات فانه ابيض ناصع واقل من الاول جودة لقلة صلابته فلا يتحصل منه على الغزل الدقيق ولون اقطان الهند يقرب من لون الزبدة الطرية واما اقطان الجهات المشرقية كقطن بنغال ومدراس وارمير ورودس وسالونيك فضعيفة اللون باهتة وقد

حللوا ببلاد الانكليز تراب عود القطن وبعد حرقه وجدوا في
 المائة جزء اربعة وستين جزءاً من المواد القابلة للذوبان في الماء
 وهي ٤٤ و ١٨ كربونات البوتاسه وعشرة اجزاء موريات البوتاسه
 وتسعة اجزاء سلفات البوتاسه ووجدوا الباقي وهو ستة وثلاثون
 جزءاً لا تذوب في الماء وهي تسعة من فوسفات الجير واحد
 عشر كربونات الجير وثمانية عشر فوسفات المغنيزيا وثلاثة اجزاء
 بروتو اكسيد الحديد والباقي من الشب وبناء على هذا التحليل
 يظهر سبب جودة خواصه في سواحل الجزائر المحنطة بالبحر الملح
 وفي بعض الجزائر يسمدونه بالطين المخرج من قاع البرك المالحه
 كالطين الذي يخرج من قاع بركة المنزلة مثلاً وفي جهة الكارولين
 يستعملون في السباخ الجيراو الطين الذي يرسب في قرار البرك
 والمخلجان بعد نضوب مائها

فقال الشيخ الاهالي عندنا كانوا لا يعرفون امر تسييخه والان
 عرفوه واستعملوا لذلك اترية التلال القديمة وما يخرج من تحت
 البهايم وحقيقه وجدوا لتسييخه فائدة عظيمة

ثم قال الخواجا وشجرة القطن تعيش في الهند اربع سنين او
 خمسا وفي الايتازوني سنة واحدة وابتداء جنيه اول شهر سبتمبر
 ويستمر الى اخر السنة فاذا جاء الثلج مات لوزه وكما قلت صعوبة
 الشتاء وقصر زمنه كان محصول القطن كثيراً واذا فتح اللوز رايت
 كأن الارض مستورة بشوب ابيض والعبيد هم الذين يجمعونه من

روءوس اشجاره فيشتغلون من الصباح الى المساء ويرخص لهم في ترك الشغل ساعة وقت الزوال للاستراحة والاكل وذلك في غير وقت الصيف فيه يرخص بساعتين ويرخص لهم ايضاً بالذهاب الى منازلهم لياكلوا فيها ويعطى لكل عبد مقدار من الذرة او من الارز ومقدار من العسل والسمك ولحم الخنزير ويؤذن لهم في اخذ بعض فواكه من الاشجار ومدة بذره تستمر من اول شهر ماي الى نصفه وبعد تمام زرعها يشتغل العبيد ايضاً بتنقيته من الحشائش الغريبة والشغل عندهم بالمطوعة ويعطى لكل عبد قطعة ارض يزرعها ما شاء ويتنفع بما يخرج منها اما ببيعه لسيده او انه يرعى فيه ماشيته وفراخه وما اشبه ذلك ومن ذا يتحصل العبد على بعض دراهم يشتري منها ملابسه وما يلزم له فجميع اشغال القطن على العبيد فلذا يقتنون العبيد بكثرة فقد يجتمع عند بعضهم نحو النفي عبد فتراهم عند توجههم الى الشغل يكونون فرقاً الفرقة عشرون عبداً او عشرة وعلى كل فرقة رئيس منهم او من غيرهم فان كان منهم كان شديد القسوة ويخافونه والمفروض على الرجل منهم في كل يوم ان يجمع مائتي ليورا وعلى كل صبي من ثلاثين ليورا الى اربعين وكل ما جمع يوضع بالمخزن عند غروب الشمس

وكان الناس في مبداء الامر يفصلون الشعر من البذر بايديهم فكان الشخص الواحد يفصل في اليوم ليورا واحدة من الشعر ووزن البذر ثلثا وزن الاصل

ولما رأوا صعوبة ذلك اخترعوا دواليب الحلاجة وبها تمكن
الرجل ان يبلج في اليوم الواحد ثلاثين كيلوجرام ثم اخترعت الآت
تدور بالحويان او بالماء فصار يحصل بواسطة ثلاثة اشخاص اربعمائة
وخمسون كيلوجرام في اليوم الواحد ثم في سنة ١٧٦٣ اخترعت
الآت احسن من تلك واستعملت الى الان في جميع امريكا
الجنوبية

وبعد انفصال الحب من الشعر ينقون الشعر مما خالطه من الاجسام
الغريبة بتتفه في دواليب اسطوانية تدور بسرعة ثم يكبسونه بمكابس
في اكياس تجعل بالآت وينقلونه في مراكب بنهر المسيسيبي الى
اورليان الجديدة وهناك كل من له شيء يضع عليه اسمه ونمرته
وهكذا فمن يرى المدينة من بعد يراها كأنها مدينة من القطن
مقسومة حارات ممتدة مسافة عظيمة.

وقد علم من دفاتر الاحصاء ان قدر العبوات المتحصلة من
زراعة جهات الجنوب كل سنة خمسة ملايين بالة
فقال الشيخ هل يمكن معرفة مقدار القطن المتحصل من كل
بقاع الارض

فقال الخواجا يوءخذ من دفاتر الاحصاء سنة ١٨٥٨ ميلادية
انه تحصل ١١٤٠٠٠٠٠٠ بالة ووزن البالة يختلف من مائة
وثمانية وستين كيلوجرام الى مائة وسبعين اي وزن محصول سنة
١٨٥٨ كان ١٩٣٦ مليوناً و ٦٧٥ ألف كيلوجرام وبيانه .

محصول	كيلوجرام
الايثازوني	٥٨٨.٠٠٠.٠٠٠
البريزل	٣٣.٠٠٠.٠٠٠
جهات من اميركا الجنوبية	٩.٠٠٠.٠٠٠
الهند الشرقي	٤٤١.٠٠٠.٠٠٠
بلاد الصين وبلاد سيام	٧٥٠.٠٠٠.٠٠٠
بلاد مصر	٢٩٤٥٠.٠٠٠
بلاد الجزائر	١٨.٠٠٠
سياراليونا من افريقيا	٤٥٠٠٠
بلاد التركستان والقرني	٥٠.٠٠٠.٠٠٠
جهات من افريقيا	٣٠.٠٠٠.٠٠٠
اوروبا الجنوبية	٦.٠٠٠.٠٠٠
كيلوجرام	١٩٣٦٦٧٥٠٠٠

واول ظهور قطن امريكا ببلاد الانكليز كان في سنة ١٥٦٩
 واكثر من اشتغل به اهل مدينة منشستر فهي المركز العمومي لصناعة
 القطن وتجارته في جميع بلاد الانكليز وبعد ان كان عدد اهلها
 في القرن السابع عشرين الف نفس اتسعت حتى بلغ اهلها الان
 زيادة عن اربعمائة الف نفس وابتداء صناعة القطن بها سنة ١٧٨٩
 ايام ثورة الفرنسيين الاولى ومن ذاك العهد اخذ يظهر في المدن
 المجاورة وفي مدة قليلة كثرت ورشه وصارت تلك البلاد مدنا

عظيمة بعد ان كانت قرى صغيرة لا يلتفت اليها وبلغ اهلها من
الثروة اعلى درجة وفي مبداء الامر كانت انواله متفرقة في جهات
كثيرة وكان كل صاحب نول يشتري لنفسه ويتجر بمصنوعه فكان
يحصل لهم تعطيل وضياع اوقات فتيقظت اهالي منشستر الى ذلك
وتحلبت حتى احكرته وصار فيها الان نحو مائتي ورشة تدور كلها
بالبخار وعدد الشغالة يبالغ الفا وخمسمائة نفس في الورشة الواحدة
ويوجد غير ذلك مائتا ورشة للغزل فقط وهذا غير ورش كثيرة
بالضواحي ولو حصرنا الورش الموجودة في المدينة وضواحيها مع
جميع الورش المخصصة بالغزل والحياكة في جميع بلاد الانكليز
لوجدنا الثلاثة الاخماس لهذه المدينة ويتحصل من اثمان ما يصنع
فيها ويوزع على جميع الجهات والاقاليم نحو الف مليون من
الفرنكات كل سنة ومقدار ما يدخل في ورشها من القطن الشعر
كل سنة مائتا الف طن اي اربعة ملايين واربعمائة الف قنطار
مصري وجميع ذلك وارد من مدينة ليوربول لانها المينا العمومية
لهذا الصنف وكانت الورش في بادىء الامر تدور بالحيوان ثم
كثرت الاختراعات لتسهيل صنعه ولم توجد الواپورات الا سنة
١٨٢٠ وسنة ١٨٣٣ فتاب الواپور مناب الآلات القديمة جميعها
وقبل كثرة زراعته بامريكا كان يرد لمعامل اوروبا من الهند التابع
للانكليز ومن الاندلس ومن نابولي من ايطاليا ومن المرتينيك
وغواديلوب التابعين لفرنسا وقبل قليل كان يجلب من جزيرة صقلية

وبعد اشتهاره بامريكا تركت اكثر هذه البلاد زرعه لكثرة تكاليفه
ورخص الوارد من امريكا لقلة المصروف عندهم لان عبيدهم تشتغل
تقريباً بلا اجرة والجهات التي تزرعه الان الهند الانكليزي ومصر
والدول الخبيثة من امريكا وجهات من بلاد المشرق

فقال الشيخ على حسب ما نسمع ببلادنا ان اكثر اقمشة
الواردة اليها ولسائر جهات الدنيا هو من ورش الانكليز وجزء
قليل من ورش الدول الاوروبية وذلك يقتضي ان يكون
عدد الورش بتلك المملكة والشغالة بها شيئاً كثيراً جداً

فقال الخواجا قد استحوذ الانكليز على جميع انواع التجارة لا
سيما تجارة القطن ففي سنة ١٨٥٠ حرر كشف بامر البرلامنتوا توضح
منه ان الورش بالمملكة كانت الفاً وتسعمائة والشغالة ٢٢١ الف
شخص وان ما يرد لهذه الورش من قطن الشعر ٢٧٧ مليون
كيلوجرام ويخرج منها اقمشة وغزل ٢٤٧ مليون كيلوجرام يباع
منه على البلاد الاجنبية ١٧٤ مليون كيلوجرام ويستهلك في
داخل البلد على الاهالي ٧٢ مليوناً باعتبار ان كل شخص يستهلك
كيلوغرامين ونصفاً وفي تلك الازمنة كان جميع ما يخرج من بلاد
اوروبا لا يعدل عشر ما يخرج من بلاد الانكليز فكان ما يخرج
من بلاد فرانس ستة ملايين كيلو ومن بلاد السويس سبعة ملايين
ومن باقي اوروبا مليونين فقط ومع ذلك فلم تقف الانكليز عنده
بل اجتهدت كل الاجتهاد حتى صار عدد الورش سنة ١٨٥٦

الفين ومائتين وعشر وكانت القوة المستعملة في ادارتها ٩٧ الفا و١٢٢ حصانا منها بالجزار ٨٨ الفا وبالماء ٩١٢٢ وهذه القوة تعادل مليوناً وبصفا من الرجال وقد بلغ عدد الشغالة بالورش في تلك المدة ٢٨٠ الف نفس نساء ورجالاً صغاراً وكباراً والمشتغلون بتجارته بأنواعها ببلاد الانكليز يقربون من مليونين اي جزء من أربعة عشر جزءاً من الامة الانكليزية وما من يوم الا وتظهر ورش جديدة ويزيد ما يصنع بها ومن ثم ترى الاجتهاد متزايداً في جلب القطن الشعر الى الورش ففي سنة ١٨٥٧ بلغ الوارد لها اربعائة مليون كيلو غرام صنع منه ٢٦١ مليوناً اقمشة وخرج منه غزل ٨٥ مليوناً والباقي وهو ١٨٤ مليوناً صنع شيتا وغيره وخرج للتجارة واستهلك في البلد ٩٢ مليوناً وتحصل من ذلك ١٤٢٨ مليون فرنك وقدّر بعض العارفين قيمة جميع ما صنع من القطن ببلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ بنحو ٦٥ مليون جنيه يخرج منها قيمة القطن الخام المشتري اربعة وعشرون مليوناً فيبقى للربح والمصاريف نحو اربعين مليوناً وقد قارن بعض المهندسين بين عمل الآلات والادمي فوجد انه لو بقي الامر في صناعة القطن على عمل الرجال للزم لذلك واحد وتسعون مليوناً من الرجال وذلك قدر اهالي فرنسا والبروسيا والنمسا واحصى بعض المؤرخين جميع ما يصنع من القطن بجهات اوروبا فوجد ما يصنع منه ببلاد الانكليز مليون ونصف مليون بالة وفي فرنسا ٢٣٦ الف بالة

وفي بلاد الفلمنك وبلجيكا ٥٩ ألف بالة وفي باقي بلاد أوروبا
 ١٤٧ ألف بالة وفي ألمانيا ٢٤٦ ألفا وفي الروسية ١٢٠ ألف بالة
 فجميع بلاد أوروبا لم تصنع الا ثلاثة اخماس ما تصنع بلاد الانكليز
 وفي سنة ٥٧ كان مصنع بلاد الانكليز ضعفي مصنع
 جميع بلاد أوروبا تقريباً لانه كان الوارد في هذه السنة الى جميع
 بلاد أوروبا من جميع الجهات قريباً من ثلاثة ملايين من بالات
 قطن الشعروفي السنة المذكورة كان محصول الایتازوني وحدها
 ثلاثة ملايين من البالات نصفه يسافر الى الانكليز والربع يبقی
 في البلد يصنع في فوريقاتها والربع يوزع على سائر جهات الدنيا وقد
 امعن بعض المؤرخين النظر فيما يرد للانكليز من بلاد الایتازوني
 فوجده أخذاً في النقص عندهم وفي الزيادة في باقي الجهات مثلاً
 وجد متوسط الداخل الى بلاد الانكليز في مسافة سنتين من ابتدا
 سنة سبعة وعشرين ٥٩٦ جزءاً من ألف من محصول الایتازوني
 والموزع على الدنيا جميعها اربعمائة واربعة اجزاء من ألف وفي السنين
 الخمس التالية الى سنة ٢٨ كان وارد الانكليز ٥٦ والموزع على الدنيا
 ٤٣٥ وفي السنين الخمس كان وارد الانكليز ٥٢٨ والموزع على
 الدنيا ٤٦٢ ومن سنة ٤٥ الى سنة ١٨٥٠ كان وارد الانكليز
 ٥٠٦ والموزع على الدنيا ٤٩٤ ثم من سنة ٤٨ الى
 سنة ٥٠ كان داخل الانكليز ٤٨٧ والموزع على الدنيا
 ٥١٢ فيعلم من ذلك ان صناعة القطن اخذت في التقدم في

جميع جهات الدنيا وقد نسبوا الوارد من القطن لفرنسا الى الوارد منه الى الانكليز فوجدوا النسبة بينها كسبة مائة الى ٤٧٩ ونسبوا ما تصنعه الايتازوني في ورشها الى ما يصنع في ورش فرنسا فوجدوه كسبة ١٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المستهلك في ورش الانكليز الى المصنوع في ورش الايتازوني من محصول تلك البلاد كسبة ٢٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المصنوع في الايتازوني الى المصنوع في اوروبا كسبة ١٠٠ الى ٤٥٢ ومن سنة ٥٠ الى ٥٧ ورد ثلثا محصول الايتازوني الى الانكليز والثلث لجمعية جهات اوروبا منه الى فرنسا ثلثه وثلثاه لباقي اوروبا ومن تأمل حركة الورش وقوتها ببلاد الانكليز حكم بان في قدرتها ان تكفي جميع اهل الدنيا وليس في طوق دولة من الدول مشاركتها في تجارة هذا الصنف وصناعته لانها باستعداد ورشها وكثرة مراكبها وقوة الاتهام يمكن لها ان تنقص السعر حتى لا تتجاسر دولة على مجاراتها مع ان مدة الشغل عندهم عشرين ساعات ونصف بخلافها في الدول الاخر فانها اثنتا عشرة ساعة بل ثلاثة عشر وفي سنة ١٨٥١ كان قدر المصنوع من القطن باوروبا والايتازوني ٤٨٥ مليون كيلو وقيمة ذلك بلغت ثلاثة الاف مليون فرنك فزاد قدر المشغول سنة ٥٧ حتى بلغ سبعة وخمسين مليونا وبلغت قيمته اربعة الاف مليون من الفرنكات من ذلك قيمة القطن الخام ثمانمائة مليون من الفرنك وقدر

ربا المال المنصرف ثلثائة مليون فيبقى للارباح والاجر المتنوعة
٢٩٥٠ مليوناً من الفرنك

ومقدار الشغالة بورش اوروبا والايتازوني ١٢٥٠٠٠٠
نفس وباعتبار اجرة الشخص في السنة الواحدة خمسمائة فرنك
يكون المدفوع للشغالة كل سنة ٦٢٥ مليوناً من الفرنك
ومن حين انتشار هذه البنائة والتفات الناس اليها قل
زراع الكتان والتيل وصار اغلب الملابس والفرش منها بواسطة
الالات المخترعة للغزل والنسج حتى وصل سعرها الى قيمة واهية
ولذلك تمكن الفقير من شرا ما يقيه البرد بادنى القيمة وانتفع بذلك
عموم الناس لانا نعلم في التاريخ انه في سنة ١٨١٦ كانت قيمة
الكيلو ١٢ فرنكاً وفي سنة ١٨٣٤ نزلت الى ستة فرنكات ثم في
سنة ١٨٥١ نزلت الى ثلاثة فرحم الله من عرف الناس بشجرة
القطن ومن علمهم زرعها وصناعتها وعلى الاوروبا ويين ان
يشكروا فضل العرب انا الليل اطراف النهار فانهم هم
الذين نقلوهم من خشونتهم الى السعادة التي هم فيها الان

المسامرة (١٣٠)

الثمار

ومن حقق النظر في الاشجار والنباتات المغروسة في هذا
 البستان وجد اكثرها انما وصل الى هنا من بلاد العرب او من
 بلاد المشرق بواسطة السياحين مثلاً شجرة البرقوق هذه
 اصلها من الشام من ارض دمشق وقد تكلم عليها بلين المؤرخ
 فذكر ان اول دخولها في ايطاليا كان زمن قاطون وانها باوروبا
 انواع منها الاصفر والاخضر وما بعضه اصفر وبعضه احمر وتارة
 تكون كروية وتارة مستطيلة وتوكل طرية وناشفة ويسمونها
 القراصية وهي تجارة عظيمة لجهات كثيرة من ارض فرانسوا وكذلك
 شجرة الكريز المعتدلة القد المساء الجلد واردة من جهة سيرازونه .

من الشام الى رومه ايام القيصر لوكولوس قبل المسح بثمان وستين سنة وانتشرت في ظرف خمس وعشرين سنة بجميع جهات اوروبا وانتقلت من ايتاليا حتى وصلت جزيرة الانكليز الباردة والان يوجد منها انواع كثيرة وعند اثمارها تجد عناقيدها مدلاة بنحو الارض نابتة من جذور الاوراق تجذب اعين الناظرين بلطيف لونها ومنها نوع عظيم الساق يبلغ في الطول عشرة امتار عناقيده سود ويستخرج منه شراب الكرز وشجرة اللوز الموجودة في جميع جهات اوروبا اصلها من بلاد افريقيا ومنها الحلو والمر ويستخرج منها دهن اللوز وهي مغذية ومبردة وتدخل في الطب ويوجد دهن اللوز بجميع الاجزاء اذ انات واما شجرة الخوخ فاصلها من بلاد الفرس ويوجد منها ثلاثة انواع نوعان على ثمرها وبرة خفيفة والثالث لا وبر على ثمر واخذنا من الارمن شجرة المشمش

واما شجرة التفاح والكمثرى والسفرجل والمشملا فهي تنبت بطبيعتها في بلادنا وليست محنلة من الجهات ومن التفاح نوع حريف الطعم يستعمل في بعض جهات فرانس بدل العنب ويستخرج منه شراب يسد مسد التبيذ ومن الكمثرى انواع كثيرة منها نوع يستخرج منه الشراب والسفرجل اصله من جزيرة بريد وهذه الشجرة الصغيرة المسماة بالقشطة وارده من امريكا الجنوبية والين من البلاد المشرقية وكان ابتداء وروده في الجهات الجنوبية من فرانس قبل

المسيح بستمائة سنة والذي غرسه هم الفينيقيون حين توطنوا مرسيليا
ثم تنوع انواعاً كثيرة ويؤكل اخضر وناشفاً والتجار يرسلونه الى
جميع جهات الدنيا واصل شجرة البرتقال هذه من الصين والهند
وهو انواع كثيرة ومنها اليوسف افندي ويزرع في الاندلس من
زمن مديد وغالب هذه الخضروات وهذه الرياحين الزكية نقلها
السياحون الى اوروبا الا انهم تفتنوا هنا في زرعها حتى كثرت
انواعها

المسامرة (١٢١)

العنب

واعظم الشجر عندنا نفعاً والده طعماً شجرة العنب هذه ومنبتها
المخفي بلاد المجرستان نبت فيها بالطبيعة في صخور الجبال

الشائعة مثل جبال القوقاز وجبال ارارات وجبال توروس، وهو الآن يزرع في غالب اقطار الدنيا ولكن منه ما يزرع للتفكه رطباً ومنه ما يجفف واغلب جهات اوروبا وامريكا وبعض الجزائر يستخرجون منه النبيذ والمشروبات الروحية وليست خواص النبيذ واحدة بل متفاوتة طعماً ورائحة وتأثيراً على حسب الارض والهواء وكيفية زرعه وعصره وقدر الارض المشغولة بزرعه في فرنسا مليونان هيكثاراً وهو عبارة عن خمسة ملايين فدان مصري وبحسب الرغبة في النبيذ الفرنسي رغبات الاهالي في زيادة زرع العنب واتسعت متاجره حتى سار الى جميع بقاع الارض وقدر ما يتحصل من عصير المزروع منه بفرنسا يبلغ ستة واربعين مليوناً هيكثولتر (مائة لترا) من النبيذ الاحمر والابيض ومليون وربع من العرقي وكل ذلك قيمته تبلغ اربعمائة وستة وسبعين مليوناً من الفرنك وبهذا السبب تعد مملكة فرنسا اول مملكة بالنسبة لزرعه ويوجد منه ببلاد الاندلس والبرتغال وايطاليا انواع مقبولة عالية الاثمان ولكن نبيذها العادي لا يفوق النبيذ العادي الفرنسي وفي بلاد النمسا والمانيا والموسكو والفنك وامريكا يزرع العنب ويستخرج منه النبيذ غير ان الزائد عن لزوم الاهالي قليل جداً وفي هذه الايام الاخيرة صار تجربة زرعه في جهات الجزائر فتج نجاحاً تاماً فانتسعت زراعته وحصل لزراعه ارباح عظيمة خصوصاً لما ظهر لهم في نبيذه من الخواص الجيدة فلذا ترى اهل اوروبا وغيرهم يرغبون فيه

وعمليات استخراجة اربع الاولى تقطيع العنب قطعاً صغيرة
ثم يعصر بين اسطوانتين من حديد تدور كل منها على الاخرى
والعملية الثانية تصفية المائع الخارج وذلك بعد تركه ثمانية ايام
حتى يتخمر ثم يصفى في براميل ولا يملأ البرميل بل يوضع فيه الى
نحو اربعة اخماسه ويترك حتى يصفو ويرسب تفله وهذه العملية
تكون في شهري مايو وابريل وربما استعانوا على كمال صفائه بقليل
من الدم او بياض البيض هذا هو النبيذ الجاري بيعه بين الناس
سواء كان ابيض او احمر والنبيذ الابيض يتحصل من الاحمر ولا
تختلف طرق عمله الا بفصل المائع عن التفل في اول الامر وقت
الدوس ولا يترك ليتخمر معه بل يجري تخميره وحده فيكون ابيض
لان المادة الملونة ليست حينئذ في العصارة وكذلك النبيذ المعروف
بالشبانية وانبذة اخرى يحصل عند فتح قارورتها قرقرة فطرق
استخراجها كما وصفنا مع اختلاف قليل وانما عند ملء القارورات
يضعون في كل قارورة قطعة من السكر النباتي ثم يحكمون سدادها
فيتخمر بالسكر بعد عدة اشهر ويزيد النبيذ جودة ويحدث منه
في القارورة جزء كبير من غاز الكربون فهذا هو سبب الفرقعة
التي تسمع واعلى انواعه واغلاها ما عصر بعد التذيب والجفاف
لانه بذلك يقل ماؤه وتكثر مادته السكرية

المسامرة (١٢٢)

شراب التفاح والكمثري

وطريقة استخراج شراب التفاح تقرب من طريق استخراج نبيذ العنب وأكثر استعماله في البلاد التي لا ينبت بارضها العنب ويغلو فيها سعر النبيذ وكان العرب مدة اقامتهم بالاندلس يستخرجونه فتعلمه منهم سكان المديريات المجاورة لهم من فرانسا مثل اهالي توار وغيرهم وقال بعضهم انه كان معروفا من زمن قديم وفي بعض الكتب ان الملكة رادغوند ملكة فرانسا كانت تشربه دائما وكانت في القرن السادس من الميلاد والحق انه لم يظهر بجهات النورماندي في فرانسا الا في القرن الرابع عشر وكان مشروبهم قبل ذلك البيرا

فلما قام مقامها شربه غالب اهل فرانسا ومنها وصل الى الالمانيين
والانكليز والروس وامريكا حتى بلغ مقدار المستخرج منه في السنة
الواحدة ثمانية ملايين هيكتولتر وقيمة ذلك ستون مليوناً من الفرنك
وانواع التفاح المستعمل في ذلك ثلاثة المحلو السكري والحامض
والغض وهو الذي يستخرج منه احسن الاشربة ويبقى زمناً بخلاف
المستخرج من النوعين الاخرين فانه لذيد الطعم ولكنه قليل البقا
وليس في عمل هذا الشراب صعوبة فانه بعد جمع التفاح
يترك نحو ستة اسابيع حتى يتم نضجه وتكثر مادته السكرية ثم يهرس
في مھاريس كبيرة ثم يوضع في الهواء كيما انا اربعا وعشرين ساعة
فيكسبه الهواء اللون الكهربائي ثم يعصر ويوضع في براميل قائمة
يخمر فيها ويخلص من المواد الباقية فيه فبعضها يرسب في القاع
لثقله وبعضها يعوم على السطح لحفته فاذا خلص من ثقله صبّه من
حنفيات في براميل ليتم تخميره فيها ثم يستعمل

ومن الشراب ما يستخرج من الكثرى واستخراجه كالذي
قبله الا انه يبقى له لون البياض الحاصل من عصر المواد بعد
هرسها من دون تعريضها للهواء وهذا الشراب كلما عتق كان اشد
اسكاراً من جميع الانبذة

واما المشروبات الالكولية مثل العري والكونياك والكروش
والجن فتستخرج من التبيذ والسكر والبنجر (اي الشمندور) ونحو
ذلك ويستخرج منها انواع اخر من المشروبات ولا حاجة لنا الى

شيء من ذلك لانها تمنعنا عن الاطلاع على باقي ما هو في هذا
البستان من انواع النباتات الغربية وايضا فمعرفة عمل المشروبات
الروحية لا تخصكم في شيء

فقال الشيخ لا يلزم من العلم بالشيء استعماله ولا يخفى عليكم
قولهم العلم بالشيء ولا الجهل به فحيث تكلمتم على كيفية استخراج النبيذ
فلا بأس بشرح عمل الالكول ونحوه

المقامة (١٢٢)

الكول

فقال الخواجا الالكول مائع يوجد في تركيب السكر ويخلص
منه بالتخمير مثلاً لو اذينا قطعة سكر في قدح واضفنا اليها بعض

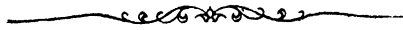
شيء من خميرة البوزة ثم تركاه في مكان درجة حرارته ٢٠ او ٢٥
او في الشمس مدة قليلة رأينا المائع قد اضطرب وتساعد منه غاز
يكون قليلاً في اول الامر ثم يزداد شيئاً فشيئاً ثم ينقطع بعد عدة
ايام فاذا صفي وركز حتى يهدأ وذقناه فاننا نجد الطعم طعم الشراب
والرائحة رائحة النبيذ ولا نجد للسكر اثرأ فلو قطرناه بالانبيق لتحصلنا
منه على مائع طيار ولا لون له يقبل الالتهاب فهذا هو الالكول
وهو يستخرج من كل ما فيه مادة سكرية كعصارة العنب والنفاح
والكمثرى والكريز ونحو ذلك وهذه لا تحتاج لوضع خميرة فيها لان
في ضمن تركيبها مادة ازوتية متى مسها الهواء انقلبت الى خميرة
وتحللت المادة السكرية التي في العصارة الى الالكول واذا تقطر
النبيذ او البوزة او نحوهما من الانبذة يتحصل مائع يختلف فيه كمية
الالكول بكثرة الماء وقلته فان قطرناه مرة ثانية قلت كمية الماء
وزادت كمية الالكول وهكذا

وللمشروبات الروحية اسماء مختلفة في التجارة بحسب مقدار
الالكول الموجود فيها فما كان الكوله النصف او اقل قيل له
عربي وما كان الكوله اكثر قيل له روح فالعربي عبارة عن ماء
مزوج بالالكول والالكول الخالص هو المجرد عن الماء بالكلية
ولا يتحصل عليه الا بعد تقاطير عديدة وهو عديم اللون اكثر
ميوعة من الماء يلتهب منه الفم رائحته لطيفة وله به باهت ضعيف
النضوء

وانواع العرقى وخواصه تختلف باختلاف المادة المستخرج من
عصارتها واحسنه المستخرج من عسل القصب او العنب او الكريز
واقل منه جودة المستخرج من التفاح او الكمثرى او الحبوب وقيمة
العرقى تختلف باختلاف درجة الالكول وتتميز هذه الدرجات في
التجارة باستعمال آلة بسيطة عبارة عن قضيب من الزجاج عليه
علامات وارقام اولها الصفر واخرها مائة وفي اسفله كرة من الزجاج
فيها زئبق فاذا اريد معرفة مقدار ما في المائع الروحي من الالكول
فتغمس الالة في المائع وتترك فتقف عند درجة من الدرجات
التي في القضيب فان وقفت عند رقم من هذه الارقام علم ان المائة
جزء من المائع تشتمل على اجزاء من الالكول بقدر ذلك العدد
وهذا في الحجم لا في الوزن وان الباقي ماء عادي وتلك الالة تسمى
مقياس الالكول وعند الفرنج تسمى الكولومتر ولاجل تقسيمه غمسوه
اولاً في الالكول الخالص من الماء ورقموا عليه عدداً مائة ثم غمسوه
في مائعات درجاتها اقل بخمسة ثم بعشرة ثم بخمسة عشر وهكذا
فعرفوا درجة ٩٥ و ٩٠ و ٨٥ و ٨٠ و ٧٥ و ٧٠ وهكذا

ويقال ان اختراع المشروبات الروحية كان من الملك لوني
الرابع عشر عند هرمه لاجل اتعاشه وعود قوته وجميعها عبارة
عن عرقى سكري مختلط بمواد عطرية مثلاً الماء الذي تسميه الفرنج
اييزيت هو عبارة عن الكوئل وماء وسكر ينقع فيه من غصون هذه
النباتة الصغيرة التي اصلها على ما يقال من مصر وتخرج في ايتاليا

وتزرع الآن في جهة من فرانسما وما يسمونه كاسيس هو عرقي
وسكر وفاكهة ويصنع ايضاً شراب يدخله نوى المشمش او الخوخ
او البرقوق والشراب المعروف بشارب الكورانا يوخذ من عرقي
قديم ويوضع فيه قشر برتقان مع اضافة مقدار من السكر اليه
وشراب الابسنت حاصل من جعل زهر الشيبة او ورقها في
الالكول ثمانية ايام ويضاف الى ذلك لاجل التقطير حب
الانيسون او غيره وهو من السهيات يقتل عند الاكثار منه



المسامرة (١٢٤)

الدوزة او (البيرا)

واما البوزة (البيرا) فقد انفق المؤرخون على ان المخترع لها
في الزمن القديم المصريون وقيل ان اول استعمالها كان بمدينة

يلون المعروفة عندكم بالطينة وهي من زمن مديد شراب اهل
الجهات الشمالية من فرانس والانكليز وجميع الممالك الشمالية يستعملونها
كثيراً ومقدار ما يستهلك بلوندره من هذا الصنف كل عام
مائتان وخمسون مليوناً من اللتر وباريز مقدار ذلك اربع عشر
مرة وهي من بين الخمور تشتمل على خاصتين التغذية والتنبيه وقد
امتنعها بعض مشاهير الكيماويين فوجد في كل مائة جزء منها ثمانية
واربعين جزءاً من مادة جامدة مركبة من مواد ليست ازوتية
كالنشا ومن مواد اخرى ازوتية كالتى في الحب المستعمل فيها
فلذلك يحصل لمن يشرب من جيدها غذاء بقدر ما يحصل له من
اكل ثمانية واربعين جراماً من الخبز اى ستة عشر درهماً

وطريقة عملها ان يوضع حب الشعير في حياض مبنية وبوضع
عليه من الماء قدر حجمه اربع مرات ويترك الى ان يتنفخ فينقل من
الماء وبوضع في اماكن فيها هواء درجة حرارتها من خمسة عشر الى
سنة عشر حتى تنبت واحسن الفصول لصنعها فصلا الخريف
والربيع فما صنع منها فيها فهو المقبول عند الناس اكثر مما صنع
في غيرها فاذا نبت اخذ وجفف سريعاً كي لا يذهب نشاؤه
ويكون تجفيفه اما بوضعه في الهواء او في محل يمر عليه هواء حار لطيف
ثم اذا تم التجفيف بفرك ويغسل نخلا يفصل به الحب من النبات ثم
يدش دشا خفيفاً وبعد ذلك بوضع في حياض من الخشب بعضها
فوق بعض في كل حوض خرق يصب في الاخر ثم يصب عليه

في الماء فبواسطة تلك الخروق يسهل مرور الماء في المادة وينفصل عنها ولكن في ابتداء العملية تكون الخروق مسدودة ويصب على المادة ماء حرارته ستون درجة مئوية وتقلب وتذلك وتترك حتى تهدأ ثم بعد ذلك يصب عليها ماء حرارته تبلغ تسعين درجة ويصنع بها كما سبق حتى يسخن الجميع وتكون درجة حرارته سبعين او خمسا وسبعين ثم يقلب ويدلك وتغطى الحياض وتترك ثلاث ساعات تقريبا ففيها يكتسب الماء جميع ما يلزم ان يكتسبه من المادة السكرية التي في الشعير فيؤخذ حيثذ ويغلى مع عروق النبتة المعروفة بمحشية الدينار واوراقها لتكتسب المرارة والخاصة التي تبقى بها زمنا بدون تغير شيء من صفاتها ثم بعد تلك العملية ينقل المائع الى حياض اخرى ليبرد فيها ولا يبقى في محله لئلا يتلف ثم توضع عليه الخميرة ويترك زمنا يختلف من اربع وعشرين ساعة الى ثمان واربعين وهذه هي التخميرة الاولى وفي تلك الساعات يظهر على الماء رغوة كثيرة ثم يؤخذ المائع ويوضع في براميل يستمر فيها التخمير ويظهر على الماء رغوة ايضا فاذا اخذت وعصرت يضعونها في كيس وتكون هي الخميرة للبوزة التي تستعملها الفطاطرية والخبازون ويستعملونها في البوزة للتخمير وفي المشروبات الحاجة للتخمير ولا تكون البوزة رقيقة ذات لون لطيف كما يشاهد فيها الا بعملية اخرى وهي ان يضاف من غراء السمك على

المائع فبذلك يحصل بعد مدة رسوب جميع المواد وتصفو المائدة
المائعة الصفاء الذي ترى به عند التجار



المسامرة (١٢٥)

الاشجار والزمور

وعند هذا حضرت الست وابنها فقالت للخوارجا أيجوز لك
حرمان الشيخ من الاطلاع على ما في هذا البستان من الانهار

والازهار التي قل ان يجتمع مثلها في بستان وحرماننا من الانس
 به ويا ليتك شغلت وقته بالاطلاع على النباتات العطرية والرياحين
 الزكية فانها في جميع حياض البستان من خلفك وامامك وعن
 يمينك وشمالك وكان بيدها صحبة فاهدتها الى الشيخ قبلها وبعد
 ان تأمل فيها قال حقيق انه لم يكن لنظام هذا البستان نظير
 فاني لم ار فيه شيئين متجاورين من نوع واحد وارى وضع
 النبات على اصول الهندسة حتى انها حوت من اختلاف اللون
 الازهار المجموعة صحباً مختلفة الشكل والحجم وتوزيعها وسط
 الحياض بين الاشجار وبجافات الطرق كان لها صور ومناظر
 مختلفة باختلاف المواضع التي يتف فيها الناظر وما من صورة
 الا تسر الناظر وينشرح لها المخاطر ثم قال للست واني لاشكر
 فضلك ومعروف حضرة الخواجا لانه حصل لي من مجلسه
 فوائد ما كنت اعلمها قبل وقال لها الخواجا حيث اشرقت هنا
 طلعتك فينبغي لنا ان نتكلم في النبات العطري فقالت ان
 اكثر الورد والنبات الغريب والرياحين، في الجهة المقابلة لنا من
 البستان وهناك كشك صغير قريب من مجرى الماء يسمع منه
 تغريد الطير فاظن ان لو رآه الشيخ لهنى الاقامة فيه لانه فوق
 ربوة صغيرة ويرى من شبابه الطريق السلطاني والزراعين
 بالاراضي المجاورة له فاجابوها لدعوتها واخذ الخواجا بيدها واخذ
 الشيخ بيد ابنه وساروا حتي وصلوا مكاناً مستدير الشكل في وسط

حوض ماء فيه نوفرة عظيمة مركبة من صور حيوانات وطيور
والماء يخرج من افواهها في اتجاهات مختلفة واشكال عجيبه فكان
تارة ينزل في دوائر الحوض وتارة يخرج عموديا او منحنيًا
قليلاً بحيث لا يتجاوز سقوطه رءوس الصور القاذفة له فيكون
لصوت الماء عند سقوطه على المعدن الحامل لتلك الصور في
الحوض رنات لطيفة وينشا عن امتزاجها بالاصوات المحاصلة
من اهتزاز الاشجار ومن تغريد الطيور نغمات مطربة فهدوا من
جانبها فراءوا طريقاً فسلكوه الى علوية مخوفة بالشجر وعليها قبة
من انضمام اغصان الاشجار وراء اغصان الشجر منتظمة انتظاماً
تاماً ومجافتي الطريق صفيين من اشجار البورد وانواع الرياحين
كالفل والياسمين وكل ماله رائحة طيبة مرتبة ترتيباً حسناً بحيث
لا يحجب نوع ما وراءه بل كل نوع خلف ما هو دونه وراءه
اغصان الفل والياسمين ملتفة على اغصان الاشجار ممتدة معاً
في دوائر القبة كأنها مصنوعة بيد مصور ومن نفوذ الاشعة
الشمسية في خلالها رسمت صورتها على ارض الطريق ثم جات
صاحبة البيت فسلمت على الشيخ وابنه وقالت للشيخ باللغة
الفرنساوية على ما ترجمه له الخواجا ما معناه ارجوك ألا تواخذني
في عدم مصاحبتك لك فان اكبر عذري جهلي باللغة العربية فقبل
الشيخ عذرها واطنب في الثناء على زوجها ثم قال وضع هذا
البستان على هذه الصورة الفاتقة في حسن الرونق والبهجة يقتضي

شدة الاعثناء به وزيادة الالتفات اليه وصرف اموال جسيمة فترجموا لها ما قاله فقالت ان زوجي لا يكتفي بخدمة الخدّمة بل يتولى الخدمة فيه بنفسه وكلما يسمع بنبأته ليست فيه بادر الى جلبها اليه بدون التفات الى كثرة ما يصرفه عليها واكثر اوقاته مصروفة في ذلك خصوصاً معرفة خواصها وكثيراً ما سافر الى بلاد بعيدة وقطع جبالاً واودية وبجراً للاطلاع على ما فيها من النبات والاشجار وامتحانها لمعرفة خواصها وليعرف طرق ترتيبها وحفظها وهو الذي رتب هذا البستان وزرع ما فيه من انواع النباتات وليس ههنا نباتة الا وعليها ثمرة ولها قيد بدفتر النبات عنده وفي دروسه التي يلقيها للتلأمة في كل اسبوع يبين لهم ما يتعلق بالنبات وان كان لبعضه خواص بينها لم كالنباتات الطبية والعطرية وغير ذلك وخلف هذا المكان محل التجربة والامتحان واماكن معدة للتدريس وخزانة كتب

فقال الشيخ قد اودع الله في النبات من العجائب والاسرار ما يهز اولي الابصار ولا يبعد ان المعلوم منها الان اقل من المجهول ثم ان كثيراً من النبات بعد زمن يزول وينبت غيره من غير جنسه فلم يقيّض الخالق لهذه النباتات من يشتغل بالكشف عن اسرارها ويبين فوائدها وينشرها لحرمات الخلق من تلك الفوائد ولبقيت اسرارها مجهولة مع انها هي المعينة لنا على اعمالنا برّاً وبجراً اذ منها افواتنا وبها يعالج ما اخل من ابداننا وفيها ما تتعش بهما و احنا

فجزى الله عنا المشتغلين خيراً اذ لولا هم ما عرف النافع من الضار ولا
 البارد من الحار . فقال الخواجا من تأمل رأى انه ما من شيء الا وتعتريه
 احوال غير متناهية ففي السماء تحدث سحابات وتظهر نجوم مختلفة
 وفي الارض تظهر نباتات وحيوانات كذلك ولا شيء مما نراه اولاً
 نراه الا وفيه شيء من سر الحياة ففي البعض تكون ظاهرة تدل
 عليها حركة الاعضاء وتنقل الجسم ونحوه وفي البعض تكون كامنة
 خفية فلا ندركها فالحياة في الحيوان امر وقف عنده علم الانسان
 وكذلك في النباتات وكما ان بعض الحيوانات يظهر في بعض
 الفصول ثم يزول ولا يظهر الا في ميعاده وبعضها يظهر في الظلمة
 ولا يهوى النور وبعضها على عكس ذلك فكذلك النباتات بعضها
 يخرج زهره في وقت معين دون غيره وكثير منها في هذا الوقت
 نفسه اما ان يتجرد من ورقه او يبيس عوده ولا يعود لحالته الاولى
 الا في السنة القابلة مع الانتظام

ومن هنا رأى بلين الروماني ان يرتب الاشهر والفصول على
 حسب تزهر النبات ولكن لم يتم هذا المشروع الا في زماننا هذا
 بواسطة بعض العلماء وبملاحظته اتضح له ايضاً ان لكل اربعة
 انواع من الازهار ساعة معينة تنفتح فيها ولا نتعدها وبعض
 المتوحشين القاطنين بالبراري الشاسعة لا يعلمون الوقت الا من
 الزهور فيوزعون اعمالهم على حسب ذلك وبعض النبات لا تنفتح
 زهره الا بمجاذث من الحوادث مثلاً الفوقحان اذا احس بنزول

المطر انضمت اكمام الزهر عليه انضماماً جيداً ليحفظ نفسه منه وبعض
النبات لا يهوى الشمس مثل النباتة المعروفة بالبقلة اليهودية
وتسميها الفرنج لترن وتنبت بارض السيريا فانها اذا احست
بالشمس انضمت اكمامها ضمّاً جيداً حفظاً للزهر من الشمس ولا
ينفتح الا اذا اظلم الجو وتغطت السماء بالسحاب وما يزداد تعجب
الانسان منه ان هذه النباتات بانواعها وهذه الاشجار مع غلظها
وارتفاعها اصلها خلایا صغيرة نامية وفي داخلها حويصلات صغيرة
بحيث لا ترى الا بالنظارة المبعظمة وهذه الحويصلات عبارة عن
فقاقيع دقيقة كروية الشكل ثم من تأثير بعضها على بعض تكبر
وتتمو فتصير اجساماً ذات اسطحة متعددة بعد ان كانت كروية
ولا ترى بالبصر لصغرها لكن قوة الحياة فيها عظيمة بحيث انها تزداد
في اقرب وقت زيادة عظيمة فينشأ عنها الياف النبات والحزج
والغصون والاوراق وبواسطة النظارة المعظمة وجدوا داخل الخلية
الواحدة مع دقتها جدور اجسام من مواد مختلفة وشاهدوا في
الورق حياً كثيراً ومن الوانه اخذت الاوراق الوانه وبعض
الطبيين رأى في بعض النبات المائي حيوانات كالذروفي المنسوج
الخلوي يشاهد غالباً دقيق كالذي يستخرج من الحنطة وهذا الدقيق
يكون في جميع اجزاء النبات سواء كانت جذوراً او غصوناً او فاكهة
وسكان جزيرة تايبي يصنعون الخبز من فاكهة تخرج في
جزيرتهم فياخذونها ويحمصونها على النار ثم ياءكلونها

فيجدون طعاما كطعم الخبز ولذا تسمى السياحون هذه الشجرة شجرة الخبز ويصل وزن الواحدة منها الى اقة مصرية بل ايتين وثلاث وكثير من جزائر المحيط كجزيرة جافا وجزائر الملوك وجزيرة بندا وغيرها من الجزائر اكثر غداء اهلها من جزع شجر يزرعونه في جزائرهم فمتى بلغ عمره خمسة عشر عاما قطعوه واخذوا منه بواسطة مغارف يغرفونه بها ثم يضعونه في حياض منحوتة من هذه الاشجار ثم يسدون اطرافها بمادة ليفية فاذا امتلأ الحوض من المادة المستخرجة من الخ اضافوا عليه ماء وقلبه حتى يمتزج الماء بالدقيق الموجود مع الخ ويمر من المادة اللينة فينزل في حوض اخر فيفعل به ما فعل بالاول ويتلقى في حوض غيره فاذا عرف ان مادة الخ تخلصت من جميع دقيقتها واجتمعت في الحوض الاخير مع الماء تركت فيه لترسب ثم يصفى الماء من فوقها ويؤخذ الدقيق طريا ويحفظ في اوعية تصنع في الحال من اوراق هذه الشجرة يسع الوعاء الواحد منها من احد عشر كيلو غرام الى اربعة عشر ولا يتركون الاوعية الى ان تحف خوفا من تلف ما فيها ومع ذلك فيغمسونها في الماء مرة بعد مرة واهل جهات الاوستراليا يعرفون جدور نباتات يتعاطونها فتقوم عندهم مقام الخبز ويخزنونها للقوت

فقات صاحبة البيت ما من يوم الا ويذكر لي زوجي في بعض مسامراته احوالاً جديدة للنبات مستفادة من استكشافات اهل هذا العصر من العلماء والسياحين الذين جابوا الارض

وان رأيتم الفرجة على المدرسة ومحل التجربة فما انا مستعدة لخدمكم
وان رأيتم ان تنظروا باقي البستان الى ان يحضر الخواجا ويرىكم
بنفسه فلا باس

فقال الشيخ الرأي ما ترينه وايها تختارين فهو الموافق واني
لاحب الاطلاع على الجهتين وفي وجودي بين جهابذة الفن مثلكم
فرصة لا بد من ان انتهزها واغترف من بحور علمكم الغزيرة ما
تتغش به روعي من الفوائد الكثيرة التي منها معرفة الحكم التي
اودعها سبحانه في عالم النبات فان هذه المعلومات من نتائج هذا
العصر السعيد الذي هو في اتساع دائرة المعارف البشرية فريد وما
ذكر من ذلك في كتب الاقدمين يوجد منتشراً في الكتب العربية
فضلاً عن كونه قليل الجدوى لقلته على انه لم تثبت صحة نقله
خصوصاً وان يد الجهل اضافت اليه خرافات كثيرة

فقال الخواجا الرأي المناسب ان نطوف في ارجاء البستان ونخار
منه الجهة التي بها المشومات فان في ذلك مناسبة للستات فتبسمت
ثم قالت هذا هو الراي الحسن ولكن من الواجب اتباع راي الشيخ
فقال الراي ما رآه الخواجا فان النفس الى الروائح الزكية اميل
فساروا قليلاً ثم وقف الخواجا حذاء خطوط الورد وقال قد
جمع المعلم هنا كثيراً من مالوف النباتات ثم مد يده وقطف وردة
وناولها اياها فطلبها منه ان يتكلم على بعض الازهار ليجمعها بين اللذة
والفائدة فقال لا باس بذلك والاحسن ان نبداً بالورد لانه

هو الذي بأيدينا فنقول الورد أنواع منه ما يزرع بالبلاد الحارة كالبلاد التي بساحل البحر الأبيض من أوروبا وإفريقيا وهذا النوع هو الذي يستخرج منه ماء الورد وعطره الذي تالفه الغيد والستات في جميع بقاع الأرض ومنه هذه الوردة التي تراها بيضاء وزهرتها قليلة الورق وفي نهاية كل ورقة جزء أصفر فقد منحها الله كثرة العطر بدل ما تقص من ورقها وجعل نوعها أفضل الانواع ولذا تختار في استخراج عطر الورد وأما أصلها فمن بلاد المشرق وقد أهدت إلينا جبال القوقاز هذه الشجرة العظيمة المسماة بالورد المثني لكثرة ورق زهرته وأما هذا الورد السباعوي الذي لا ينقطع زهره صيفاً ولا شتاءً فاصله من دمشق الشام ومنذ ثلثائة عام أخذنا من بلاد المشرق هذا الورد المسكي وأدخلناه في ضمن الأزهار التي تتحلّى بها بسايتنا وهذا النوع يكبر كبيراً زائداً في جهة تونس حتى يبلغ عشرة أمتار وبالتفنت في زرع الورد ظهر نوع يعرف بالورد المجوز وبلي هذا النوع شجر البنفسج وهو أوروباوي الأصل ويوجد في الغابات تحت ظل الأشجار وزهره وإن كان عزيزاً إلا أنه لا يتجرد من عطره وقد تعسر عليهم هنا استخراج عطره كما استخرجوا عطر الورد والياسمين وتبدى للسائر روائح أزهاره الزكية ويعطر الياسمين والمحذائق من أول شهر فبراير ويستمر يهدي إلينا من طيبات أنفاسه الزكية مدة شهر مارس وأبريل ثم أشار إلى شجر الياسمين وقال

واما هذا النوع فلم يوجد باوروبا الا في القرن السادس
واصله من الجهات الحارة الواقعة فيما بين المدارين وهو نوعان
بحري وطبري فكبر زهره ولطف لونه الابيض الوردي واستطالة
شكله السنيلي وتجمع ازهاره وحمله حمله فوق ساق وحيد وذبوله
التدريجي المتعاقب الذي يقي لنا التنوع باستنشاق ريحة الطيب
عدة اسابيع كل ذلك جعل هذا النوع الطبري فائما على ما حوله
من الازهار واختارته ايدي الحسارن على غيره ثم اشار الى نوع
اخر منه وقال

واما هذه الشجرة ذات الوريقات البيضاء الخمسة التي يعطر
الجوشداها فقد نقلها الاوروباويون من اسيا الكثيرة العطريات
فزرعوها باراضهم واستخرجوا دهنها واكثر الموجود منها في
التجارة يستخرج من الياسين الزنبقي او العربي وهو كثير بالهند ثم
ان احدى السيدات مدت يدها الى شجرة قصيرة ذات وبرشوكي
ولها زهر مجنوع اجتماعا لطيفا ورائحة تشبه رائحة الفانيليا وقطفت
منها زهرة وناولتها للشيخ فرأى لها رائحة زكية وكان لم يسبق له
رؤيتها فسال الخواجا عنها فقال له هذه النبتة غريبة واصلها من
اليرو من بلاد الامريقا واسمها في بلادنا الهليوطروب وفسرها في
القاموس بدوار الشمس والصغيرة من هذا النوع تسمى عندنا
تنوم بمثابة فوقية فنون ثم واوفيم والكبيرة منه تسمى صامر يوما وعلى
ورقها من الجهتين وبر والوبر الذي على الجهة العليا اقصر واحد

وازهاره الصغيرة متجمعة فوق الساق في هيئة صحبة ولونها ازرق
سجاي وكل زهرة على حدة فوق ساق بفردتها ويتكون عن المجموع
فوق الساق الاصلي شكل كالمظلة بهج المنظر تتميز به هذه النباتة
عن غيرها وباوروبا من هذا النوع ما ينبت بنفسه الا ان زهره
ابيض قليل الرائحة

ثم التفت الخواجا الى نبات اخر وقال ومن هذا النوع الذي
تسمونه في بلادكم بالتفاح يستخرج بالتقطير من ازهاره البنفسجية
اللون المشكلة في شكل السنبلة في اخر الغصون ماء شديد زكاء
الرائحة في مبداء امره ويقل ذلك تدريجاً بالملكث وطعمه حريف
ولكن اذا اضيف اليه ماء وشرب فانه يترك في الفم رطوبة خاصة
به والمشهور ان التفاح الفلنلي هذا ورد الينا من بلاد الانكليز
وهو كثير بالبساتين

ثم قال وهذا النوع الذي تسمونه في مصر بالسنبيل والخزامى
ونحن نسميه ثوند اصله موجود من قديم الزمن في الجهة الجنوبية
من ارض فرانساً ويقال ان له ميلاً الى الحر وهو نبات عطري
طيب الرائحة الى الغاية وفيه حدة ومرارة قليلة وفروعه مستطيلة
مخيفة مريضة بيضاء مزينة في اسفلها بالاوراق وفي اعلاها بالازهار
الصغيرة البنفسجية اللون ويكون في اعلا تلك الازهار اوراق
خضراء

ثم نظر الى نبت فروعه كأنها ذر عليها من تراب الافران

وقال هذه النبابة هي التي تسمونها السعتر ونحن نسميها الثن ولها
 فروع دقيقة مستديرة مجملية باوراق صغيرة منضمة اطرافها الى جهة
 اسفل وفي اعلاها نقط ولون اسفلها ابيض وزهرها في اخر السيقان
 على هيئة سنبله دقيقة ومنه البنفسجي والابيض ويستخرج منه ماء
 السعتر وينبت بكثرة في سفح الجبال فيعطر سماها وبطيب هواها



(انتهى الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الرابع
من كتاب
علم الدين



صفحة	المسامرة	في
١١٥٣	٩٧	الجمعية المشرقية
١١٨٠	٩٨	البركة في الحركة
١١١٠	٩٩	الانكليزي والنباترو والكتاب
١٢١٦	١٠	الجغرافية
١٢٣٥	١٠١	نزهة في باريس
١٢٤١	١٠٢	نقمة حكاية بعقوب واخيه
١٢٥٢	١٠٣	البورصة
١٢٦٢	١٠٤	بيت الكتاب
١٢٧٢	١٠٥	قصه
١٢٩٥	١٠٦	البانكات واوراق المعاملة
١٤١٨	١٠٧	الهوام والدواب
١٤٢٦	١٠٨	المجراد

صفحة	المسامرة	في
١٢٢.	١٠٩	نور الغاز
١٢٤٧	١١٠	السائف، والمخنف في الاسلام
١٢٥٢	١١١	القار
١٢٥٧	١١٢	المستشفى
١٢٦.	١١٣	التبغ
١٢٧٥	١١٤	البن
١٢٨.	١١٥	الانهر
١٢٩٢	١١٦	الاحجار الكريمة
١٤٠٠	١١٧	الموآء والماء
١٤٢٦	١١٨	فسيحة خارج باريس
١٤٤٤	١١٩	القطن
١٤٦٢	١٢٠	الثمار
١٤٦٤	١٢١	العنب
١٤٦٧	١٢٢	شراب التفاح والكمثرى
١٤٦٩	١٢٣	الكول
١٤٧٢	١٢٤	البوزة او (البيرا)
١٤٧٥	١٢٥	الاشجار والزهور



